رواية

حنّا مينه

البحر والسفينة وهي



دار الآداب

البحر والسّفينة.. وهي!

حنّا مينة

البحر والسّفينة.. وهي!

رواية

دار الآداب - بيروت

البحر والسّفينة.. وهي!

حنّا مينة/روائي سوري

الطبعة الأولى عام 2002
الطبعة الثانية عام 2009
ISBN 978-9953-89-109-5

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير - بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت - لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

ـ ١ ـ

البحر والسّفينة وهي!

بينه وبين البحر، اللّغة لا لغة. تتعطّل اللّغة وهذا جيّد «هذا جيّد جدًّا، قال بدر الزرقا بغير كلام، فالصّمت، في حينه، صلاة. إنّني أصلّي، كنت أصلّي، في قلبي، عندما كانت تهبّ علينا العاصفة، والمركب يرقص فوق اللّجّة. نحن، الآن، فوق اللّجّة، إنّما لا رقص، السفينة لا تمخر، مخترقة بعنف، جدار الأمواج، بل تنساب، كأنّما تتزلق، على الماء، فاتحة فيه ثلمًا كبيرًا، على جانبيه رغاء الزبد، وأنا أتكئ على الحاجز، كأيّ سائح ابن أمّه، يتعرّف على البحر في سنّ الشيخوخة، ويختبئ في قمرته ما إن تهتزّ به السفينة اهتزازًا مريبًا!».

أمس كان يجلس على طرف حلقة من الركّاب، فوق جؤجؤ السفينة. قالت فتاة خرنوبيّة، يابسة كعود على أرض غابة، أصلها من جونيه، منطقة الكسليك:

ـ هذه أوّل مرّة أركب فيها البحر، مع أنّ جونية جارة البحر.

قال شابّ طبّوش:

ـ وأنا مثلك!

قالت سيّدة:

ـ المهمّ السّلامة..

أجابتها الفتاة الخرنوبيّة الضامرة:

ـ لا سلامة إلاّ على اليابسة.. أكاد لا أصدّق، من شدّة الخوف، أنّ قدميّ ستلامسان الأرض مرّة ثانية، وأنّني سأعود إلى لبنان، أرض لبنان، والأرزة الخضراء.

قال رجل:

ـ نعم! نعم! الأرض أمّنا.. غاغارين، الذي وصل إلى القمر، قال، بعد عودته، لا طمأنينة إلاّ على الأرض.

قالت السيّدة، وكانت نَصَفًا، على شيء من ملاحة، من المزرعة:

ـ لو كان هناك من يطمئننا عن الطقس!

قالت الفتاة:

ـ لنسأل أحد البحّارة إذن.

قال بدر:

ـ إِسألوني أنا!

التفت الجميع إليه باستغراب. قالت الفتاة الخرنوبيّة الناحلة:

ـ ولماذا أنت؟ ألست مسافرًا مثلنا؟

ـ نعم! وهذا من سوء حظّي!

ـ تعني أنّ هناك خطرًا ما؟

ـ أعني أنّني سائح مثلكم.. وفي البحر أيضًا!

قالت السيّدة:

ـ ألا تحبّ ركوب البحر؟

ـ أحبّ البحر حين أكون أنا هو البحر.

قال الرّجل:

ـ لا أحد يستطيع أن يكون البحر.

أجاب بدر:

ـ هذا صحيح، لكنّني قصدت شيئًا آخر، لا تنس صور وصيدا، والفينيقيّين والبحر.

قالت الفتاة:

ـ وماذا يهمّنا ماذا تقصد؟ نحن نريد أن نطمئنّ على الطقس.. هل يبقى كيّسًا كما هو الآن!؟

قال بجفاء:

ـ طبعًا لا!

قالت السيّدة:

ـ «فأل الله ولا فألك».

قال الرّجل:

ـ وما أدراكَ؟

قال بدر:

ـ الرِّيح!

حدّق الجالسون في الحلقة على جؤجؤ السفينة، في وجه بدر بمزيد من الاستغراب. لكنّه كان قد أشاح بوجهه عنهم، وراح يتملّى البحر، كأنّما لا وجود لهم بالقرب منه، أو كأنّه ضجر من أسئلتهم التي لا مبرّر لها. ولأنّ الفتاة الخرنوبيّة طلعة

بطبعها، وتحبّ الثرثرة قليلاً، فقد رازته جيّدًا، مفكّرة أن يكون سائحًا، هو الذي له، في وجهه، ساعديه، صدره، ثيابه، هيئة المتشرّد. وبعد أن أشبعت فضولها سألت:

ـ هل نفهم، ممّا قلته عن الطقس، بأنّك تشتغل في الأرصاد الجوِّيَّة؟

قال بجدِّيَّة:

ـ أشتغل بعلم الفَلَك!

ضحك بعضهم، وقال الشابّ الطبّوش:

ـ وماذا يقول لك علم الفَلَك؟

ـ يقول لي إنّه لن تكون هناك عاصفة، خلال ٤٨ ساعة على الأقلّ!

قالت الفتاة متوجّسة:

ـ وبعدها!؟

ـ نأمل أن نتفرّج على عاصفة ما!

صاحت:

ـ وهل العاصفة فرجة؟

ردّ ببرود:

ـ ولماذا لا!؟

قال الرّجل:

ـ أعوذ بالله!

قالت السيّدة:

ـ لا تهتمّوا! قصدُه إخافتنا.. لو حدثت العاصفة، لا سمح الله، سيكون أوّل الخائفين، هذا الذي يدّعي علم الفَلَك!

قالت الفتاة:

ـ مهما يكن! مهما يكن! لا يجوز هذا التشاؤم.. هل يرضيك، أنت يا سيّد، أن تهبّ العاصفة وعلى ظهر السفينة هذا العدد الكبير من السيّاح، وبينهم الأطفال والنّساء؟

أجابها بدر دون أن ينظر إليها:

ـ يرضيني جدًّا.

نبرت:

ـ مجنون!

قال بدر:

ـ الجنون، يا عزيزتي، هو نصفي الأجمل! تصوّري أنّ كلّ النّاس عقلاء، ماذا كان يحدث للعالم؟

قالت الفتاة:

ـ يعيش بسلام!

ـ لا أظنّ!

ـ كيف لا تظن؟

ـ لأنّ كلّ الذين يشعلون الحروب العدوانيّة، هم عقلاء في نظر شعوبهم، أو بعض شعوبهم على الأقلّ! وكلّ المعتدين، في كلّ مراحل التاريخ، كانوا في نظر أنفسهم، وبكلّ بساطة، عقلاء، يزعمون أنّهم يريدون، حتّى في عدوانهم الصريح، خير الذين يعتدون باسمهم، وهؤلاء، في النتيجة، يدفعون الثمن، في حال انكسار العدوان.. والعدوان، كما تعلمين، أو يجب أن تعلمي، إلى انكسار، لأنّ للباطل جولة ثمّ يضمحلّ، والمثل القريب

على ما أقول، هو العدوان الهتلريّ، الذي بدأ بانتصارات.. ثمّ ماذا كانت النتيجة؟ الاندحار، ومن الذي دفع الثمن، وبعشرات ملايين الضحايا؟ الجواب واضح: إنّهم الذين سيقوا، من الألمان وغيرهم، إلى الحرب العالميَّة الثانية سوقًا! صحيح أنّ هتلر، في النهاية، انتحر، ولكن بعد ماذا؟ إنّ نهاية المعتدين على غيرهم، كنهاية هتلر، مهما يَطُلِ الزمن، وهذا هو حكم التاريخ! وهذا الحكم يشمل المعتدين الإسرائيليّين أيضًا، وانتظروا تروا! مصيبتنا، يا آنسة، أنّنا «عقلاء» أكثر من اللاّزم!!

أجابت الفتاة بحدّة:

ـ هذه المحاضرة، يا سيّد، لا تسوى التعب الذي بذلته فيها.. لأنّنا، في المآل، لم نستفد منها شيئًا، ما دمنا، كلّنا، نعرف التاريخ، وبعضنا، أنا مثلاً، خرِّيجة قسم التاريخ من الجامعة، ولست بحاجة إلى محاضرة عنه، منك أو من غيرك!

قالت السيّدة النَّصَف:

ـ كنّا في البحر فصرنا في الحرب، والكلام، على الاثنين، يجعلنا نرتعب، فهل تتعمّد إرعابنا؟ ألا تكفينا أهوال الحرب الأهليّة، حين كانت بيروت تشتعل؟ وتأتي أنت، لتزيدنا خوفًا على خوف؟

قال بدر:

ـ لا سمح الله يا سيّدتي! كلّ ما أردته من هذه «المحاضرة الخائبة»، كما أسمتها الآنسة، (وهي على حقّ ربّما) أن

أفرّق بين عقل وعقل، وبين عقلاء وعقلاء، فالبُلْداء كلّهم، أو أكثرهم، يدّعون أنّهم عقلاء بما فيه الكفاية، كي يعظونا بنعمة القعود عن الكفاح، وحتّى عن العمل المجدي، ويغرونا بفضائل الكسل، الذي «نأكل معه الهواء» ونحن نستريح، بأقفيتنا، على أرائكنا أو طراريحنا!

قال الرَّجل:

ـ أنا لست ضدّك في كلّ ما قلته أيّها الفتى، لكن ما غايتك من إثارة هذه الرجّة العصبيّة فينا؟

قال بدر:

ـ غايتي الرجّة العصبيَّة ذاتها!

ـ حتّى ونحن في البحر!؟

ـ خاصّة ونحن في البحر!

لماذا!؟

ـ لأنّنا بحاجة إلى إيقاظ، حتّى نفتح عيوننا على ما حولنا!

ـ ما حولنا الماء! ما حولنا بحر مخيف!

ـ البحر ليس مخيفًا بالقدر الذي نتوهّم.. أجدادنا ركبوا البحر، وهاجروا إلى بلاد المغترب، ولم يخافوا البحر، في كلّ الفصول!

قال أحد الجالسين بنبرة ساخرة:

ـ ومتى يكون البحر مخيفًا؟ هل حين يجعلنا نغرق فيه!؟ عال والله!

قال بدر:

ـ الخوف، يا عزيزي، هو الفرق الأكبر.. الخائف غارق

دون أن يعرف أنّه غارق!

ـ لو أمتعتنا بهذه الدرر، ما ركبنا البحر.. لماذا بخلت بها علينا قبل أن نركب؟

ـ لأنّني لم أكن قد عرفتكم بعد، مع أنّنا لبنانيّون جميعًا!

ـ وبعد أن عرفتنا؟

ـ كنّا، جميعًا، قد ركبنا البحر وانتهى الأمر!

ـ والمعنى يا سيادة عالم الفَلَك!؟

ـ المعنى في قول الشاعر: «من يركب البحر لا يخشى من الغرق!»

صاحت الفتاة:

ـ نحن نخشى وكفّ عن هذا الهذر!

قالت السيّدة:

ـ لا داعي للملاسنة! دعونا نفهم: هل هناك عاصفة ما!؟ هل هناك خطر!؟

قال بدر:

ـ لا عاصفة ولا خطر، في الوقت الحاضر على الأقلّ، اطمئنّوا جميعًا، وبعد ٤٨ ساعة أعطيكم نشرة جوِّيَّة أخرى، أرجو أن تكونَ مطمئنةً أيضًا.

سأل المتكلّم السّاخر:

ـ نشرة جوِّيَّة أم نشرة فَلَكيّة؟

ـ كيف تريدها أنت؟

ـ نشرة تخبيص، كما تفعل الآن!

فكّر بدر: «هذا الساخر، أكثر الموجودين على مقدّمة

السفينة، خوفًا! السخرية ستارة! وبعده تأتي الفتاة التي تتحرّك على مقعد أعصابها! إنّها خافت لمجرّد ترحيبي بقدوم العاصفة، إذا ما قدمت! اختبأت وراء غيرها، والأطفال بخاصّة. ولكن لماذا؟ لماذا يا بحر؟ هل فعلاً أنت مخيف حقًّا؟ وهل يخافونك لأنّهم يخافون خوفهم؟ كنت مرّة على سفينة، وكانت هناك سائحة دانمركيَّة عجوز، وعندما بدأت السفينة تهتزّ، ثمّ تضطرب، أصيبت بحالة من الذعر، تقرب من الهيستريا. فقدت صوابها، أيقنت أنّها غارقة مع السفينة لا محالة، وكي تتجنّب الغرق، ركضت طالبة النجاة، لكنّها لم تنجُ، فقد سقطت من أعلى أحد السلالم، وتدحرجت نحو قاعة الآلات، حيث ارتطم رأسها بالجدار الحديديّ وماتت. أمّا السفينة التي خشيت العجوز أن تغرق معها، فقد نجت من الغرق، لأنّ أعصاب قبطانها كانت هادئة، فأحسن قيادة سفينته، وأخرجها من طوق الإعصار إلى المأمن الذي كان وراءه، وهكذا كانت فرحة الركّاب مضاعفة: مرّة لأنّهم عرفوا لذّة الوقوف على حافّة الخطر، ومرّة ثانية لأنّهم تماسكوا فتجاوزوا الخطر!»

قالت السيّدة النَّصَف التي كانت على شيء من ملاحة:

ـ إلى ماذا انتهيت بعد هذا التفكير؟

سأل بدر:

ـ وهل كنت أفكّر؟

قال الرّجل الساخر:

ـ كان يسبح مع أفكاره فقط!

وقالت الفتاة:

ـ وإلى أين قادته هذه السباحة؟

قال بدر:

ـ إلى برّ الأمان.. البحر جميل، بل هو أجمل الكائنات، لماذا لا تحبّونه مثلي؟ وإذا كنتم لا تحبّون، فكيف تستمتعون بركوب متنه؟ فوّضوا أمركم إليه، وعندئذ تصبحون أبناءه، كما أصبحت أنا ابنه، ومنذ طفولتي.. البحر يحبّ من يحبّه! البحر يحبّ أبناءه!

قالت السيّدة:

ـ أنا ابنته منذ الآن، شرط أن يدع السفينة توصلنا إلى حيث نقصد، وبغير عواصف!

وقال الرّجل:

ـ أنا معك مطمئنّ، لكن بغير عاصفة.. ثمّ لماذا تتمنّى أن تهبّ العاصفة؟

قال بدر بإصراره السابق:

ـ قلت لكم حتّى نتفرّج عليها!

صاحت الفتاة:

ـ نتفرّج على العاصفة!؟ وهل العاصفة فرجة!؟

ـ أحلى فرجة يا آنستي!

ـ أنت، إذن، مجنون، ولمرّتين!

نظر إليها بدر مبتسمًا وقال:

ـ وأنت، يا آنستي، صادقة، ولمرّتين أيضًا!

ـ ٢ ـ

كانت الساعة حوالى الحادية عشرة صباحًا. السماء غائمة، كما هي كثيرًا، فوق البحر أو على سواحله. الشمس التي، كطائرة عند الهبوط، تبحث عن منفرج بين الغيوم، لم تجد هذا المنفرج بعد، لكنّها ستجده. الغيم، مثل الدخان، يتبدّد أمام الوهج. الشمس الثابتة، التي ترقب الأرض في دورانها حول نفسها، كانت تتأجّج كتلة كبيرة من لهب. كانت جذوة مشعّة ذات حجم خرافيّ، يعرفه، ويحدّد مكانه، علماء الفلك، من وراء مراصدهم، المقامة في أماكن مناسبة، في الجهات الأربع من هذا الكوكب الصغير، الذي اسمه الأرض، والذي لا يطمئنّ المسافر، جوًّا أو بحرًا، ما لم يطأه بقدميه، وما لم ينعم، في فرحة الوصول، بالسلامة التي هي همّ الإنسان، منذ بدء الخليقة.

كانت الجماعة الصغيرة، على جؤجؤ السفينة «سانتا ماريّا»، جزءًا من جماعة لبنانيّة كبيرة، أفرادها من كلّ الأعمار، بينهم رجال ونساء في سنّ النضج، وبينهم، وهم الغالبيّة، الشباب والشابّات، وهناك أطفال أيضًا، والكلّ يستشعر القلق، لأنّ السفينة كانت في بدء انطلاقها من مرفأ بيروت.. وفي البدء

يشعر المسافر، خاصّة في الجوّ والبحر، بعدم الاطمئنان، هذا الذي يأتي بطيئًا، لكنّه يأتي، مع الوقت، وعندئذ تسترخي أعصاب المسافرين، الذين يبسملون بتمتمة، أو في سرائرهم، سائلين الله اليسر، والسلامة، والوصول بأمان إلى حيث يقصدون. هذه حال المسافرين العرب والشرقيّين، الذين لم يألفوا، بعد، التعامل مع الآلة، في كلّ أنواعها، لذلك يفتتحون سفرهم، بأيّة وسيلة، بالأدعية، فمنهم من يقرأ آية الكرسيّ، ومنهم من يرسم الصليب على جبينه وصدره، ومنهم من يتشفّع، بكلّ الأنبياء والأولياء، أن تكون الرّحلة محروسة بالعناية الإلٰهيَّة، وأن تكون العاقبة على خير.

خوف! دائمًا هناك خوف، لا في السفر البعيد وحده، بل في التنقّل داخل المدينة الواحدة، ويشارك السائقون في الخوف العامّ هذا، لذلك تكثر الكتابات على وسائط النقل، من مثل «سيري وعين الله ترعاك» أو «عين الحسود فيها عود» أو «المحروسة»، وفي وسع المرء، مع تكاثر وسائط النقل، أن يرى السيّارات مرشومة بأنواع من الكتابات، بعضها من التقوى، وبعضها من الطرافة، وبعضها الثالث من الزهو، هو في المآل، مجلبة للطمأنينة، لأنّ ثمّة، في الأعماق، خوف يتمظهر بأشكال متعدّدة، متنوّعة، غريبة، عجيبة، لا يجد المرء مثيلاً لها في البلدان المتقدّمة، إلاّ في حالات نادرة، وبأشكال مختلفة، مثل لصق صور القدّيسين على لوحة القيادة، في هذه السيّارة أو تلك، أو تعليق الدمى، استجلابًا للحظّ! ما أفظع ما تركت الحرب اللّبنانيَّة من خوف في النفوس!

الجماعة الصغيرة، الجالسة على جؤجؤ سفينة «سانتا

ماريّا»، معذورة إذن في خوفها من البحر، وهلعها من الرِّيح واهتزاز السفينة، واضطرابها من اصطخاب الموج قليلاً، وارتطامه على الجوانب. ولويزا، الخرنوبيّة والضامرة، والتي تترقّب، بكثير من الارتباك الداخليّ، سطوع الشمس، ارتاحت جدًّا لانصراف بدر الزرقا، الذي أخافها حتّى درجة الرّعب، عندما تحدّث عن العاصفة، واحتمال هبوبها أثناء الرّحلة، فما إن ابتعد قليلاً، حتّى قالت لمن حولها:

- إلى جهنّم، وجه الشؤم هذا!

أجابها الرّجل البدين، الجالس غير بعيد منها:

- هذا لا يجوز يا لويزا! تذكّري أنّنا في البحر، وأنّ الدعاء بالشرّ على الآخرين فيه مضرّة.

نبحت في وجهه، مدفوعة بعصبيّتها الجاهزة:

- مضرّة!؟ أنا أريد له المضرّة، هذا الحقير الذي أخافنا.

قالت السيّدة وهي تداعب ابنها الطفل، بنبرة نصوح:

- لا تكوني، يا بنتي، عصبيّة بهذا الشكل، ونحن في أوّل الرّحلة.

- في أوّلها أو آخرها، هذا لا يهمّ! إنّه غبيّ وكريه هذا المدّعي.

قال فتى في سنّ المراهقة:

- وما أدراك أنّه غبيّ؟ يبدو أنّه يفهم..

قاطعته لويزا:

- يفهم بماذا؟ بالفَلَك؟

- يفهم في البحر! ألم تسمعي؟ قال «أنا ابن البحر!»

ـ هذا تفشير! أعرف الشباب الذين أمثاله، في جونيه وغيرها، أكثرهم فشّارون!

ـ أراد إغاظتك لا أكثر، لأنّ ردّك عليه كان قاسيًا!

ـ يذكر العاصفة، وتريدني أن أكون لطيفة معه؟

ـ وماذا إذا ذكر العاصفة؟ قال إنّها مستبعدة إلى ما بعد ٤٨ ساعة، ومعنى هذا أنّه يطمئننا!

ـ وما الذي حشركَ أنتَ؟

ـ الذي حشركِ أنتِ!

ـ وقاحة!

قالت فتاة صبيّة، يبدو أنّها أخت الفتى أو قريبته!

ـ تأدّبي! السفاهة لا تليق بفتاة قالت قبل قليل إنّها خرِّيجة قسم التاريخ! ومن أين؟ من الكسليك!

نبرت لويزا:

ـ نعم أنا خرِّيجة قسم التاريخ، وأعتزّ بذلك، وكلّ ما قاله، ذلك الكلب، لا معنى، ولا طعم، له!

قال الرّجل البدين:

ـ يا بنتي، يا لويزا، شتم الآخرين، في غيابهم حرام!

ـ وما أدراك أنت بالحلال والحرام؟

ـ العفو يا سيّدة الفهم! نحن أخطأنا ومنك السماح!

قال الفتى:

ـ اسمعي! إذا لم تكفّي عن هذه البذاءة فسألقيكِ في البحر.

وقالت أخته:

ـ انقبري! اللّعنة على السفر مع أمثالك!

صاحت السيّدة:

ـ ماذا يجري!؟ خناقة!؟ ومن أوّل يوم!؟ وعلى ماذا؟ على أشياء تافهة؟ ذلك الشابّ قال كلامًا معقولاً، ومضى في حال سبيله، فلماذا الاستغابة؟ ولماذا «التكبير في الكلام؟»

نهضت لويزا وهي شبه زرقاء الشفاه، قالت قبل أن تغادر الحلقة:

ـ كلّكم ضدّي؟ اجتمعتم كلّكم عليّ!؟ ألم تسمعوه يتحدّث عن ضرورة الجنون؟ هل هناك عاقل، في هذه الدنيا، يمدح الجنون؟

ردّ عليها الفتى:

ـ أنا، أيضًا، أمدح الجنون! قال الشابّ «إنّنا بلداء، لذلك نحن عقلاء!» وهذا صحيح! لكنّك أنت، يا آنسة التاريخ، فهمت الكلام بالمقلوب، أنا في الثانويّة، وأفهم قليلاً، وبحسب فهمي فإنّني أوافق على كلّ ما قاله، حول «عقلائنا» وبليّتنا بهم! إنّه يقصد الزعماء، الذين يدّعون العقل، والفهم، ولديهم الإذاعات والتلفزيونات.. فهمت!؟

ـ أزعر!

قالتها لويزا الضامرة وهي تبتعد، فصاح الفتى وراءها:

ـ وأنت قارحة! انقلعي لا ردّك الله!

علّقت السيّدة:

ـ «يسلم تمّك» الذي يطرق الباب يسمع الجواب! قال خرّيجة تاريخ قال! تفو!!

قال الرّجل البدين، الذي أخرج مسبحته وراح يطقطق

بحبّاتها!

ـ «نهفة!» ومن الصباح، يا فتّاح يا عليم، اللَّهمّ يسّر ولا تعسّر..

وبعد أن نظر في ساعته قال:

ـ بخاطركم، اقترب موعد صلاة الظهر!

نهض الفتى وأخته أيضًا.. قال لها وهما يتّجهان إلى مؤخّرة السفينة:

ـ اذهبي أنت إلى القمرة، وسأذهب أنا لأبحث عن هذا الشابّ الذي أريد التعرّف عليه..

ابتسمت أخته وسألت:

ـ وماذا ستقول له؟ أنّنا دافعنا عنه؟ وأنّ لويزا الممعوصة شتمته؟ النميمة عيب يا ناصر!

أجابها:

ـ أنا لست نمّامًا يا عفراء، ولكن هذا الشابّ أثار فضولي، فهو جريء، ويعرف ما يقول، والرحلة طويلة، وخلالها يتعارف الناس ويتصادقون، ومن يدري..

قالت ضاحكة:

ـ ما شاء الله.. هكذا؟ ومن أوّل لقاء!؟

وقالت في سرّها وهي تهبط السلّم إلى الطابق الثاني:

ـ وماذا في ذلك؟ اللّقاء الأوّل يترك انطباعًا جميلاً أحيانًا.. لا أدري لماذا أنا سعيدة في هذه الرّحلة.. ما جرى لم يكن سيّئًا، بل هو مصادفة طيبّة، ربّما!! قالوا لي، قبل النزول إلى السفينة، في مثل هذه الأسفار، تحدث مفاجآت

أحيانًا.. لم أصدّق، عن أيّ مفاجآت يتحدّثون؟ مفاجأة لويزا التي كلّها أعصاب مستنفرة؟ ما أغرب أمر هذه الفتاة التي تفاخر بأنّها خرّيجة قسم التاريخ، وماذا يعني ذلك؟ لا شيء إذا ما بقيت على توتّرها خلال هذه الرّحلة.. تافهة!!
أضافت وهي تستلقي على سريرها في القمرة:

ـ أحسن ذلك الشاب في سخريته منها. قالت له، في نوع من عداء «إذن أنت مجنون مرّتين!» لم ينزعج. نظر إليها مشفقًا وساخرًا. تأمّلها، هذه الممسوسة، وقال لها متهكّمًا: «وأنت، يا آنستي، صادقة، ولمرّتين أيضًا!» ثمّ أدار لها ظهره وانصرف. لويزا لم تدرك ما في جوابه من تهكّم. نحن ابتسمنا من بلاهتها، وهي، في سوقيّة معيبة، راحت تشتمه بإقذاع.. مغفّلة! كلّ من في الحلقة لاحظ هستيريّتها، وضحك في سرّه عليها، وردّ عليها بجفاء، أو بقسوة، كما فعل ناصر، دون أن تخجل، أو تكفّ عن المهاترة، وعن الإمعان في البذاءة!

استدارت عفراء، وهي في سريرها، إلى الجانب الأيمن، وبعد قليل إلى الجانب الأيسر، تساءلت:

ـ لماذا قال ذلك الشابّ، ونحن نرغب في معرفة حالة الطقس: «اسألوني أنا!» وبثقة كاملة في النفس؟ لا يبدو، من مظهره، أنّه من المشتغلين في الأرصاد الجوّيّة. إنّه بيضاويّ الوجه، قاسي الملامح، حادّ النظرة، وفي قسماته قدرة على التعبير دون كلام، لكنّه قليل الاعتناء بثيابه، ويبدو كفنّان بوهيميّ، أو متشرّد، أو مستخفّ بغيره، وقد أشاح بوجهه عنّا، وكان يردّ على كلام لويزا وهو ينظر إلى

الماء، وهذا ليس من التهذيب، ليس من اللّياقة، مهما تكن الأسباب، ومهما تكن المبرّرات، لأنّ التي تكلّمه أنثى، جديرة ولو بقليل من الاحترام، لو كان له حظّ من تمدّن، أو على شيء من حسن السلوك.. ترى عثر عليه ناصر؟ وما التأثير الذي مارسه عليه، حتّى يبحث عنه؟ ناصر مراهق، وغريب الأطوار مثله.. هذه كلّ المسألة!

بعد قليل عاد ناصر خائبًا. لم يكن مستاء ولا مرتاحًا، لكن حركاته بدت غير طبيعيّة، كأنّما هناك ما أزعجه، ولا يريد الإفصاح عنه. عفراء، بحكم السنّ والثقافة، كانت تعامل شقيقها الأصغر، بمداراة فيها قدر من الإشفاق، وكان ناصر يكره نظرة الإشفاق حتّى من والديه، وفي تصرّفاته، في البيت والمدرسة، بعض المشاكسة، وفيها عناد، وفرط نشاط، ناتجان عن طاقة تبحث عن منفذ للتصريف، إلاّ أنّ ذكاءه، تفوّقه في الدراسة، كانا يشفعان له، وكثيرًا ما ضحكت عفراء من لهْوجته، وهو يحوص ويلوص في غرفته، بحثًا عن كتاب أو دفتر أو غرض ما، ضائع في الفوضى التي تعمّ هذه الغرفة.

جلست في سريرها وسألته مازحة:

ـ ماذا جرى لطاحونة الهواء يا دون كيشوت؟

ـ عضّتها الأفعى يا كليوباترا!

ـ أنا كليوباترا برغمك!

ـ لكن بغير أنطونيو مع الأسف!

ـ وماذا يهمّ!؟ يمكن العيش بغير أنطونيو، لذلك تراني في أفضل حال! أمّا أنت..

قاطعها بنرفزة:

ـ ماذا أنا!؟

ـ لويزا سألت عنك!

ـ هذه المهووسة لا تستحقّ مجرّد أن تكون أنثى.. قفّة عظام وأعصاب!

ـ تعرف حكاية الثعلب والعنقود؟

ـ وأعرف حكاية الغراب والجبنة!

ضحكت عفراء وقالت:

ـ أفهم سبب نرفزتك، ولديّ اقتراح مفيد لك.. ما رأيك أن أصالحك مع لويزا؟

أتى بحركة استخفاف من يده وقال:

ـ «تشكرات أفندم!»

ـ تكلّم بالعربيّة يا ولد!

أخرج لسانه وقال:

ـ سمعًا وطاعة يا شهرزاد!

ـ وهل عثرت على شهريارك!؟

ـ إنّه على البار، وإلى جانبه امرأة أجنبيّة!

ـ وماذا في ذلك؟ نحن في رحلة، وهناك، في الباخرة، الكثير من الأجانب!

ردّ بنبرة عالية:

ـ وهل ترينني أبكي لذلك؟ هيّا إلى المطعم ودون فلسفة..

أصلحت عفراء من شأنها وخرجت معه. صعدا الدرج إلى الطابق الأوّل، حيث المطعم والبار، وحشد من المسافرين، بعضهم على البار، وبعضهم يشرب واقفًا، وبعضهم يتناول

غداءه، والرّجل الغريب والمبهم في مكانه، على كرسيّ البار العالي، وإلى جانبه سيّدة أجنبيّة، على كرسيّ مماثل. كان بدر يؤشّر بيديه وهو يتكلّم، وكانت السيّدة الأجنبيّة تصغي وتضحك، دون التفات، من أيّ منهما، إلى وراء.

التعارف، في القطار أو الباخرة، يحدث أحيانًا بشكل عفويّ، في المطعم أو البار، أو في مجازات القطار؛ حيث تتجاور المقصورات، أو على سطح الباخرة، حيث المسبح، والمقاعد القماشيّة، المستطيلة والمجوّفة، وذات المساند العالية، وحيث يسبح المسافرون، ويتشمّسون، ويسترخون، مستغرقين في الحديث، أو في قراءة كتاب أو صحيفة.

بدر الزرقا، بعد أن غادر حلقة الركّاب على جؤجؤ السفينة، ذهب إلى البار مباشرة، وهو يأسف على حديثه المجّانيّ، مع تلك الفتاة المعروقة العظام، التي ذُعرت لمجرّد ذكر العاصفة، وقالت كلامًا ينمّ عن عُصابيّة مزمنة! «إنّها عانس، قال وهو يستعيد كلامها، ولا علاج لها إلاّ بالزواج، ولكن أيّ قليل الحظّ، أعمى البصر، سيتزوّج هيكلاً بشريًّا، مجرود اللّحم، كهذه التي رمتني بالجنون، وأغظتها بالسخرية منها؟ ولماذا، نحن العرب والشرقيّين، نفتقر إلى روح المغامرة؟ هل هذا لأنّنا عانينا طويلاً من القهر، على يد الأتراك العثمانيّين، وأيدي المستعمرين الفرنسيّين والإنكليز والإيطاليّين، وفقدنا، مع الأيّام، روح الفروسيّة التي كانت لأسلافنا؟ هناك خلل ما، في تشكّلنا العقليّ، ينبغي إصلاحه. علينا أن نخرج من قوقعة الحزن، والخرافة، والحذر، وكلّ ما يعيق انطلاقنا النفسيّ في أجواء الحرِّيَّة، والانعتاق من الخوف، والكسل، والتبلّد،

والأخذ بما أخذ به غيرنا، من نشاط حيويّ، حتّى نلحق بركب العالم الذي بيننا وبينه، في التقدّم، مسافة قرون من الزمن! أفّ! هذا النكد لا يعالج إلاّ بالشرب، ولو في وقت مبكر من النهار!»

رأى، وهو في طريقه إلى البار، مجموعة من الشباب تتحلّق حول غيداء، وإلى جانبها صديقتها هزار، وعلى مبعدة تجلس السيّدة صالحة، تراقب بنظرات خبيثة، حسودة، غيداء من حولها. كانت صالحة هذه، ترهف السمع، لعلّها تلتقط ولو كلمات ممّا يقال، كي تلفّق حولها فضيحة ما، تنشرها بين جماعة الرّحلة من العرب، وتحملها معها إلى بيروت حين تعود. بدر يعرف غيداء الجميلة، بقامتها السمهريّة، وعينيها الرمحاويّتين، السوداوين، وسمرتها الفتّانة، وعنقها الأتلع، وقوامها الممشوق، المتناسق، الذي تتبدّى فيه، تحت فستانها السماويّ، مغريات جسد فتيّ، شهّاء، جاذب كالمغناطيس، لكلّ من يلتقي بها، ولو بشكل عابر، ومن بعيد. إنّها سمراء بيروت الساحرة، التي يراهن عليها الكثيرون، لأنّها توزّع ابتساماتها الملأى بالإغراء، على الكثيرين، وكلّ منهم يأمل أن يجد حظوة لديها، وأن يتزوّجها، باذلاً في سبيل ذلك ماله إن كان ثريًّا، وجاهته، شبابه، مكانته، ومنصبه أيضًا. بدر لا يملك إلاّ شبابه، مجرّدًا من الحسب والنسب ومتاع الدنيا، لذلك لا يقترب من غيداء، وحيدة كانت، وهذا نادر جدًّا، أو من حولها الذين يتهافتون عليها، ومن عادته، إذا ما التقاها في مناسبة ما، أن ينتبذ ركنًا من المكان، مستندًا إلى زاوية أو جدار، في وقفة لا اكتراثيّة، خالية من التصنّع، ومن اتخاذ أيّ

وضع لافت للنظر، كأسه، إن وجد، في يده، وسيكارته المشتعلة في فمه، وهو يسرّ في نفسه، بثقة لا يشوبها أدنى شكّ: «هذه المرأة ستكون لي!».

اليوم أيضًا، وعلى سطح الباخرة، رآها ومن معها، فاتّكأ على حاجز السفينة، في موضع ليس بالقريب. أشعل سيكارة وراح ينظر إلى البحر، الذي تفجّه السفينة منطلقة إلى أمام، وبين لحظة وأخرى، كان يتأمّل غيداء في بهائها الكلّيّ، ويردّد قولته إيّاها: «هذه المرأة ستكون لي!» من غير أن يُتعب نفسه، ولو بتفكير بسيط، كيف ستكون له، وبأيّ وسيلة، ولأيّ سبب، إلاّ الثقة بأنّ ذلك سيكون كذلك والسلام!

رمى بدر عقب سيكارته في البحر، هبط إلى الطابق الأوّل، تقدّم إلى البار الخالي إلاّ من رجلين أجنبيَّين، جلس على كرسيّ وطلب قدحًا من الڤودكا، وزجاجة من البيرة، شرب الڤودكا دفعة واحدة، بعدها عبَّ قليلاً من البيرة، لم يستسغ الڤودكا الأميركيّة، لم يقل شيئًا، سأل البارمان بالإنكليزيّة:

ـ ألا توجد ڤودكا روسيّة؟

أجابه البارمان:

ـ ولكن هذه باخرة سويديّة!

قال مازحًا:

ـ لذلك تستبعد اللّون الأحمر!

ردّ البارمان:

ـ وهل يتعامل البار مع الألوان؟

ـ هذا ما يبدو، إذا لم أكن مخطئًا!

ـ أنت مخطئ!
ـ سجّل عليّ هذا الخطأ الأوّل، وتذكّرني به.. الاسم الكريم!
ـ غابور!
ـ بدر!
ـ أنت في رحلة؟
ـ حول أوروبا، مع أنّني أعرفها جيّدًا.
ـ يبدو أنّك تحبّ السفر!
ـ وخاصّة في البحر، وفي سفينة ركّاب فخمة، ومع بار يغري بالشرب كهذا.. سأكون زبونًا مداومًا لديك خلال الرّحلة كلّها، إذا ما كانت نقودي تكفي لمتعة كهذه!
تأمّله البارمان غابور باستغراب، وقال:
ـ آمل أن تكون لديك نقود كافية، وأن تتسلّى جيّدًا.. هذا ما يُقال له: السفر السعيد!
ضحك بدر وقال:
ـ السفر السعيد لا يكون بالشرب وحده!
غمز غابور بعينه وقال:
ـ فهمت! تمنّياتي بحظّ طيّب، من هذه الجهة أيضًا!
ـ سيكون طيّبًا من كلّ بدّ.. هناك سمكات جميلات على الباخرة، ومن كلّ الأعمار!
أضاف:
ـ الصيّاد الماهر يا صديقي، يتحلّى بصبر جيّد.. ولديّ صبر لا ينفد! إنّها التجارب!

قال غابور:

ـ التجارب والشباب يا سيّدي!

ردّ بدر:

ـ الشباب رأسمال لا يعتمد عليه وحده.. نحن في زمن البزنس! أعطني كأسًا من الويسكي المغشوش!

أعدّ له غابور كأسًا من الويسكي وقال:

ـ هذا بار محترم يا سيّدي، وأنت لم تسكر بعد، لكنّك لاذع الدعابة.. بماذا تشتغل؟

ـ بالتشرّد حين أكون عاطلاً عن العمل، مثلي الآن!

ـ وقبل الآن؟

ـ باصطياد الغيم فوق البحر! أليس هذا عملاً جيّدًا ومربحًا!؟

في هذه اللّحظة جاءت سيّدة أجنبيّة، جلست إلى البار وطلبت كأسًا من «الديبونيه»، أخرجت سيكارة فبادر أحد الأجنبيّين لإشعالها، لكنّ ولاّعته لم تقدح. تناول بدر ولاّعته من على البار وأشعل لها السيكارة، ثمّ أشعل سيكارة لنفسه، ولاذ بالصمت، إلى أن قدّم غابور كأس «الديبونيه» للسيّدة وقال:

ـ اصطياد الغيم مهنة لا بأس بها يا سيّدي، إذا كنت لا تخشى البلل!

قال بدر:

ـ الغيم الذي أصطاده لا مطر فيه.. إنّه من النوع الجافّ!

ـ وفوق أيّ بحر يكون الغيم الجافّ هذا؟

ـ فوق البحر الأسود! هناك لا يتعرّق الإنسان، كما فوق البحر

الأبيض المتوسّط، حتّى لو كان في عزّ الصيف!

ـ قالت السيّدة:

ـ المعذرة! إنّني لا أفهم.. هل كان السيّد يصطاد الغيم فوق البحر الأسود؟

ـ قال بدر:

ـ وفوق بحر الخزر أيضًا!

ـ عجيب! أين يقع هذا البحر؟

ـ بين الاتّحاد السوڤياتي وإيران.. ومن أسماكه يستخرجون الكافيار الفاخر!

ـ ومسألة اصطياد الغيم الذي بلا مطر!؟

قال غابور:

ـ صديقي هذا يمزح! إنّه في رحلة حول أوروبا، ويقول إنّه الآن عاطل عن العمل ومتشرّد، وإنّه سيكون زبوني إلى أن تنفد نقوده! تأمّلي!

قالت السيّدة وهي ترى إلى بدر باستغراب:

ـ ولكنّه طريف هذا الذي أسمعه! من أيّ بلد السيّد..

ـ بدر!

ـ وأنا جان.. جان توليب، من ستوكهولم!

ـ تشرّفنا! أنا من كسروان!

ـ تقصد لبنان!

ـ نعم يا سيّدتي! من أجمل منطقة في لبنان!

ـ آه! الأمر كذلك إذن؟ نعم!؟ اعذرني، لم أزر كسروان، مع أنّني كنت في لبنان، اختلط الأمر عليّ.

رفع بدر كأسه وقال:

ـ نخب اختلاط الأمور كلّها، وفي هذا العالم كلّه!

ضحكت السيّدة توليب. شربت النخب وسألت:

ـ ولماذا هذه اللّخبطة؟ هذه نزعة بوهيميَّة! هل صحيح ما قاله البارمان عن تشرّدك؟

ـ صحيح جدًّا!

ـ تقصد أوروبا للبحث عن عمل؟

ـ لا! سأعود إلى بيروت مع جماعتي في الرّحلة! إنّني أحبّ بلدي، فهو جميل جدًّا، كلّ ما في الأمر أنّني أهوى السفر، ففيه، كما قال شاعر عربيّ، سبع فوائد! منها الفرجة، والترويح عن النفس، والاطّلاع على الجديد، وتحصيل المعرفة، والتجارة، أخيرًا!

ـ جيّد! إنّني، أنا أيضًا، أهوى السفر لهذه الأسباب، ما عدا التجارة.. زوجي مدير بنك، وأنا فنّانة تشكيليَّة! وأنت؟

ـ خرّيج كلّيَّة الآداب من الجامعة الأميركيّة في بيروت، ثمّ الكلّيَّة البحريَّة في أثينا، وقبطان سابق، والآن عاطل عن العمل.. ولا أعرف ما سأكون في المستقبل، وهذا أفضل! إنّني من هواة الكسل الملوكيّ! في صحّتك!

قالت السيّدة توليب:

ـ شن شن! أنت طريف حقًّا، وهواية الكسل الملوكيّ تعبير جيّد.. الملوك كسالى حقًّا، وأنا لا أحبّهم! إنّهم لا يتحفوننا إلاَّ بفضائحهم! وهذا طبيعيّ، لأنّهم يعيشون الفراغ المملّ، وكي يتسلّوا يخون بعضهم بعضًا، رجالاً ونساءً، لكن انتبه! إنّني أتحدّث عن الملوك في أوروبا، لأنّني أتابع أخبارهم في الصحف الشعبيّة، هل لديكم أشياء مثل هذه؟

قال بدر:

- لدينا صحف شعبيّة، وصحف غير شعبيّة، لكنّ صحفنا لا تنشر إلاّ المحاسن، لأنّها مهذّبة جدًّا! نحن كلّنا مهذّبون، كلّنا عقلاء، وقد استاءت منّي، اليوم، فتاة في الرّحلة، لأنّني ذكرت أمامها العاصفة والجنون، وأسفتُ لأنّها استاءت، فهي جميلة جدًّا، ورصينة جدًّا، تزن كلماتها بميزان الذهب!!!
- وأين هي؟ أريد التعرّف عليها!
- مشغولة بتخسيس وزنها!
- بالرياضة؟
- لا! بالمعجّنات!

ضحكت السيّدة توليب وقال:

- نقدك لاذع جدًّا، بتّ أخاف منك! ماذا ستقول عنّي؟
- كلّ شيء حسن! لأنّني، صدّقيني، معجب بك، وبأفكارك، وبفنّك، حتّى قبل أن أرى أيّما لوحة لك.. لدينا، نحن العرب، ما يسمّى علم الفراسة، أي معرفة الإنسان من قسمات وجهه! قسمات وجهك تدلّ على أنّك فنّانة.. وهذا يرضيني! إلى اللّقاء!
- أين؟
- لا أدري!
- سأسبح بعد الظهر، وأنت؟
- حسب الرّيح!
- هل تغفر لي، إذا قلت لك إنّك زئبقيّ، لا يُقبض عليك باليد أو اللّسان؟

ضحك بدر وقال:

ـ أنا أمامك يا سيّدتي الكومسْييرة، اقبضي عليّ.. ودون مقاومة!

ـ سأفعل ولكن ليس الآن.. لديّ موعد على الغداء، وتجدني في المسبح بعد الظهر، أسبح أو أتشمّس.. إنّه شهر تمّوز، والحرّ شديد!

ـ أتمنّى لك شهيّة طيّبة، وسباحة ممتعة، ولا أعد بشيء، لأنّني لا أكذب حتّى لا أقع في «الخطيئة المميتة!»

نظرت إليه نظرة نافذة، فيها ابتسام، وقالت:

ـ تخاف «الخطيئة المميتة»؟

ـ جدًّا!

ـ أريد أن أصدّق، ولكن!! إلى اللّقاء، بعد الظهر، حول المسبح، وكن عاقلاً قليلاً، قليلاً فقط... هل تسمع!؟

ـ ٣ ـ

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكان الازدحام، على المطعم، قد خفّ، فلم يجد بدر صعوبة في العثور على طاولة لشخصين. جلس لوحده، ينتظر الكرسون، الذي جاء بعد قليل، سائلاً:

ـ ماذا يشرب سيّدي؟

ـ حساء ساخن، وطبق اليوم!

ـ والمقبّلات؟

ـ شكرًا، ما طلبت يكفي.

فكّر وهو ينتظر الطعام بالسيّدة إيبوليت. «قويّة الشخصيّة ولا ينقصها الذكاء! إنّها، في مثل هذه الرحلة الطويلة، المملّة بعض الشيء، صديقة لا بأس بها! يكفي أنّها لا تخاف العاصفة ولا الجنون، مثل تلك الفتاة الناحلة كفقير هنديّ، وليس حولها معجبون مثل غيداء، وتحسن الحديث مع الكأس، وهي، فوق ذلك، من زبائن البار، وتشرب باعتدال، دون أن تصدّع الرّأس بأسئلة بائخة، وتفهم النكتة، وتتقبّلها مهما تكن لاذعة!»

تناول بدر طعامه بإقبال. أشعل سيكارة، كعادته قبل النوم، وكان على وشك النهوض والانصراف، حين فاجأته السيّدة

صالحة بحضورها غير المتوقّع، قائلة إنّها ترغب أن تشرب معه فنجانًا من القهوة، وتتحدّث قليلاً، إذا لم يكن لديه مانع! رحّب بها لياقة، طلب فنجانين من القهوة مع الحليب، بعد أن قال لها إنّ القهوة، على الطريقة الأوروبيّة، لا تشرب وحدها، لأنّها أشبه بالماء الأسود الساخن! عرض عليها سيكارة مع القهوة، فلم ترفض، قالت:

ـ من يدك مقبولة، رغم أنّني لا أدخّن إلاّ نادرًا، ومع الكتابة فقط!

كان يعرفها جيّدًا. التقاها مرارًا في الأمسيات الأدبيّة، يوم كان طالبًا في كلِّيَّة الآداب. لم يتغيّر فيها شيء، سوى بعض الترهّل، وبعض الغضون على الجبين، لتقدّمها في السنّ. الوجه المدوّر، الباهت البياض نفسه، النظارات نفسها، القِصَر نفسه، الدغْبَلة نفسها، والسمات الخبيثة والمنفّرة نفسها. سألته:

ـ أين أنت؟ سنين ولم أرك! تخرّجت من كلِّيَّة الآداب؟ طبعًا! ماذا تشتغل؟ هل أدركتك «حرفة الأدب»؟

قال بدر وهو يبتسم:

ـ لا والحمد لله! عملت مدرّسًا، في النبطيّة، لمدّة عامين، بعد ذلك سافرت، درست في الكلِّيَّة البحريَّة في أثينا، وعملت قبطانًا على إحدى السفن الصغيرة، وها أنا مع الرحلة، بعد أن أغراني بها مكتب السفريّات الذي نظّمها، وأكاد لا أعرف أحدًا سوى تلك الفتاة الخرنوبيّة، الضامرة، التي أجهل اسمها!

ـ لويزا! نعم! هي ذاتها، وهي عصبيّة جدًّا، لكنّها! كيف

أقول؟ فتاة شريفة! وليست كغيرها، من الفتيات الداشرات، أو النساء.. أعوذ بالله! والرّجال الرقعاء، المتصابين، الذين.. ولكن ما لنا وللناس!؟ إنّني أشارك في هذه الرّحلة البحريّة لأوّل مرّة، بقصد الاطّلاع، والكتابة، ألا تقرأ لي؟
تحيّر بدر، قال:
- في الماضي نعم، أمّا الآن فإنّني أسافر كثيرًا، ومطالعاتي قليلة.. ماذا لديكِ من جديد؟
- قصص قصيرة كثيرة، وبعض الدواوين الشعريّة، وكذلك بعض الدراسات.. إنّني جدِّيَّة في الكتابة، ومشهورة كما تعرف، وللشهرة متاعبها.. لذلك أتوارى عن الأنظار، ورغم ذلك يلاحقونني، يكتشفونني حيث أكون.. وكما تقول أنت، أغرتني هذه الرحلة! لماذا؟ لا أدري.. المشاركة مباركة كما يقولون عندنا، في طرابلس!
- ومن يشترك في هذه الرّحلة؟ وهل هم كثر؟
- جدًّا! ألم تتعرّف على بعضهم؟ خسارة! لكن على ماذا؟ الابتعاد عن الناس راحة! تعرف؟ إنّني سعيدة جدًّا بوجودك معنا.. هناك، يا بدر، حثالة! غيداء مثلاً، هذه مغرورة، تحسب نفسها جميلة، لذلك يلاحقها الشباب، وهم دائمًا حولها، إنّها رخيصة! هزار، صديقة غيداء، وأمينة سرّها، ومن الطراز نفسه، حاشاك! الأستاذ عبد الصمد المحامي، نسونجي، عينه زائغة، وقد شارك في الرّحلة، لأنّ جمانة، التي تدّعي أنّها شاعرة، تشارك فيها. إنّه وراءها في كلّ مكان، فتنته، هذا الشايب العايب، ببياض بشرتها، وعسليّة عيونها، مع أنّها متزوّجة لمرّتين، الأولى من رجل، أو شبه

رجل، هلفوت مثلها، طلّقها، بسبب الزنى، كما يُشاع ويُذاع، فتزوّجت تاجرًا عجوزًا، ترك زوجته وأولاده لأجلها، وسكن بيروت معها! هناك امتثال أيضًا، وهي فتاة معمّشة، طبعت مجموعة قصص بائخة، فلم يقرأها أحد، لأنّها بيننا، لا تُقرأ، ثمّ نورا، سيّدة مطلّقة، عائبة وقارحة، شرّيرة بشكل مخيف، كذلك صبحيّة الدعجاوي، كانت عندها حلقة أدبيّة، يخزي العين، لا أريد أن أغلَق على لسانها، وهناك أنماط أخرى على هذه الشاكلة، لا أريد الخوض في سيرتها، لأنّ النميمة، والاغتياب، والثرثرة، ليست من طبعي.

قال بدر:

- تحسنين صنعًا بترك الناس وشأنهم يا سيّدة، عفوًا، يا أستاذة صالحة!

قالت صالحة:

- لنرفع الكلفة بيننا، في أيّ طابق أنت؟
- في الطابق الثاني!
- خسارة! أنا في الطابق الثالث.. اعتبرني، طول الرّحلة، كأخت، وأنا سأعتبرك كأخ، يستأنس واحدنا بالآخر، تعال إليّ، سنشرب قهوة بلادنا معًا، وأعرّفك بالآخرين، الأوادم، الذين يتّقون الله، ويعتزّ الإنسان بمعرفتهم.

نهض بدر وهو يقول:

- ياه! أخذنا الحديث، لديّ موعد على السطح.. اعذريني!
- عذرك معك.. أنتظرك على قهوة الصباح، الطابق الثاني،

القمرة ٩، أسكن مع السيّدة أمّ أسامة وابنها، امرأة مقدّرة، مثل طربون الحبق.

قال بدر وهو يصافحها مستعجلاً:

ـ قد لا أستطيع.. أنا أسهر طويلاً، وأفيق متأخّرًا، قهوتك مشروبة.. بخاطرك!

قالت وراءه:

ـ انتبه يا بدر! أنا حذّرتك وفهمك كافٍ، لا تتورّط! لا يغرّك الجمال، إنّه قشرة تحتها وساخة!

قال بدر وهو يصعد درجات السلّم بسرعة:

ـ أفّ! ما هذا اللّسان؟ منشار حقيقي!! نشرت أعراض الناس، ومن الجلسة الأولى!

أضاف وهو يضحك في كفّه:

ـ لا بأس من اللّقاء بها، على فترات متباعدة، إنّها إذاعة متنقّلة، وكلّ برامجها فضائح!

توقّف قليلاً عند بوّابة السطح. كان يرتدي فنيلّة قطنيّة، ماصّة للعرق، وبنطلونًا صيفيًّا رماديًّا خفيفًا، بخلاف الأجانب، الذين يرتدون الشورتات، ومايّوهات السباحة. لم يشأ أن يفعل مثلهم، مراعاة لمشاعر من معه في الرّحلة، وخاصّة من النساء، ولأنّه لم يعد شابًّا صغيرًا، بل هو في استواء الرّجولة.

مشى نحو مقدّمة السفينة، على طرف الحاجز، تحت شمس انكسرت حدّة أشعّتها قليلاً، وقد اعتادها، في إبحاره الطويل، وغيابه عن لبنان، أكثر سنوات الحرب الأهليّة. بيروت الكبرى، حسب المصطلح الأمنيّ، تعيش طمأنينتها منذ سنتين.

عادت الحركة إليها، وعاد النشاط التجاريّ، وغابت بعض مظاهر الحرب والويلات، ولم تعد هناك خطوط خضر أو حمر، بين شطري العاصمة، وتنفّس الناس الصعداء، لكنّ الذين هاجروا، وبكثرة، لم يعودوا بعد، بسبب وجود الميليشيات، التي لم ينزع سلاحها بعد، وكذلك الشائعات، وتصريحات «أمراء الطوائف»، الساخنة والباردة، المتناقضة بين صبح ومساء!

كان البحر هادئًا، السفينة تمضي بالسرعة الطبيعيّة، الزبد يفور ويرغي، حول الثلم الكبير، المفجوج بالمقدّمة الطولانيّة، الممشوقة والمرتفعة، وعلى الجوانب يرتطم موج خفيف، وليس ثمّة، في الجوّ، نوارس، هذه التي تكثر عند الشواطئ، وتعدّ بشارة خير، في الأجواء النوئيّة. استند بدر على الحاجز، يتأمّل المدى الفسيح، لعالم الماء المألوف والمحبوب لديه. صحراء لا رمال فيها! لجّة ساكنة يعرف كلّ أحوالها، الراكدة والمصطخبة، يعرف الهاوية التي تنفتح فيها، عندما تهبّ الرِّيح، ويكون النوء، في مضطربه العاصف، والسفينة في متناوله، تهبط معه إلى الهاوية، وتصعد على جبل الأمواج، والبحّارة في كفّ القدر، والمصير مجهول، والابتهالات صلوات على الشفاه.

أحسّ بدر، في وقفته التأمّليّة، بإنسان إلى جانبه، التفت إليه، دون أن يأبه له، ودون أن يكفّ عن التأمّل. لكنّ الفتى سأله، بصوت متهدّج من رهبة:

ـ كيف ترى البحر؟

نظر إليه نظرة جانبيّة، لامبالية، وقال:

ـ كيف تراه أنت؟

ـ جميل! ما دام هادئًا!

ـ وعندما يثور؟

ـ لا أعرف، هذه أوّل سفرة لي في البحر.

ـ هل أنت من جماعة الرّحلة؟

ـ نعم! وأرغب في التحدّث معك، إذا لم تكن مشغولاً!

استدار بدر وتأمّل الفتى:

ـ معي أنا!؟ وهل تعرفني!؟

ـ رأيتك قبل ظهر اليوم، وكان ردّك موفّقًا، على تلك الفتاة العصبيّة!

ـ تقصد لويزا؟

ـ وكيف عرفت اسمها؟

ـ مصادفة!

ـ أزعجتك؟

ـ ولماذا تزعجني؟ قالت ما عندها، وكانت خائفة كما يبدو!

قال الفتى:

ـ أنت الذي أخفتها، كنتُ مع الجماعة، وسمعتُ كلّ ما قلته!

ـ وخفت طبعًا، أنت الآخر!

ـ لم أخف! لكنّك كنت، في كلامك، غامضًا، هل تفهم، حقيقة، في الفَلَك، وتشتغل في الأرصاد الجوِّيَّة؟

ـ هذا تخريف، قصدت به إغاظة لويزا، التي كلّها أعصاب مشدودة إلى حدّ التوتّر!

ـ لكنّك قلت أيضًا إنّك ابن البحر! وكنت تتكلّم بثقة، وتتنبّأ بالطقس! هل هذا تخريف أيضًا؟

ابتسم بدر. ربّت على كتف الفتى وهو يتفحّصه، ناظرًا إليه بإمعان:

ـ ما اسمك يا شاطر، ومن أيّ بلد في لبنان؟

ـ اسمي ناصر، وأنا من الكورة في الشمال، لكنّني، الآن، في بيروت، مع عائلتي، أدرس في الثانويَّة!

هل عائلتك معك؟ وهل أنت مبسوط في هذه الرّحلة؟ اسمي بدر الزرقا..

ـ معي شقيقتي عفراء فقط، مدرّسة جغرافيا، ونحن، حتّى الآن، على ما يرام! وقد تشرّفنا بالمعرفة، أختي وأنا!

ـ وهل استشرتها في التعرّف إليّ؟ وما رأيها بكلام تلك الفتاة لويزا؟

ـ أنا كبير بما يكفي كي أتصرّف دون إذن من أحد، ولويزا تلك مسكونة!

ـ برافو! أنت فتى جريء، لكن عليك ألاّ تخرج عن إرادة أختك، وأن تتسامح مع لويزا، هذه الفتاة المسكينة، التي لم تألف البحر بعد.. الخوف شيء طبيعيّ، وكلّنا نخاف، أحيانًا. هل أستطيع معرفة ما تريد منّي؟

ـ لا شيء سوى الإعجاب، ولهذا بحثت عنك بعد تركك الحلقة مستاء!

قال بدر بلطف وإعجاب بناصر، «الفتى المراهق» كما فكّر:

ـ اِسمع يا ناصر! هناك أشياء كثيرة مسيئة، علينا أن ننساها

لعدم الفائدة من تذكّرها! نحن، في هذه الرّحلة، عائلة واحدة، عائلة لبنانيّة واحدة، مهما تكن الفوارق في الأفكار والأعمار، الكرامة عزيزة على الإنسان، لأنّه، دونها، فاقد لإنسانيّته، لكنّني، أنا، لم أستشعر مسًّا بكرامتي، وقد غادرت الجماعة، لأنّني لا أعرفهم أوّلاً، ولأنّني أقحمت نفسي عليهم ثانيًا، وهذا تطفّل منّي أعترف به، وما قلته كان «فشّة خلق!» رغم أنّه صحيح، في رأيي على الأقل، وبعد ذلك ذهبت لأتسلّى، لأقتل الضجر والملل..

سأل ناصر بنبرة استنكار:

ـ بالشرب على البار، مع تلك السيّدة الأجنبيّة!؟

ضحك بدر مقهقهًا:

ـ وهل كنت تراقبني!؟

ـ كنت أبحث عنك فقط!

ـ ولماذا لم تأت إليّ؟

ـ إلى البار!؟

ـ وماذا يعني هذا؟ إنّه طبيعيّ! عندما تكبر ستعرف أنّ البار ليس مكانًا محرّمًا.

ـ وتلك السيّدة الأجنبيّة!؟

ـ ما لها؟ مجرّد تعارف! وهي سيّدة لطيفة، فنّانة، تسبح الآن.. وبالمناسبة: لماذا لا تسبح أنت؟ ألا تحبّ السباحة؟ هل هناك من لا يحبّ السباحة؟ تريّض قليلاً يا عزيزي، هذا مفيد من كلّ النواحي.. والآن اعذرني.. لديّ موعد، سنلتقي كثيرًا، فالرحلة طويلة، وأنا معجب بك، صدّقني! إلى اللّقاء!

سأل ناصر:

ـ وأين أجدك؟

ـ على السطح، في الكافتيريا، في المسبح.. تعال وسأعرّفك ببعض الأصدقاء.. وكذلك الصديقات! التعارف مرغوب في الرحلات.. وبعامّة، لا تكن خجولاً أكثر من اللاّزم.

افترقا. هبط ناصر السلالم قفزًا إلى الطابق الثالث. دخل القمرة مسرعًا. لم يقرع الباب، كما ينبغي، لأنّه نسي. لم يكن في القمرة سوى أخته. كانت قد استيقظت لتوّها، تأكل تفّاحة. سرّها أنّ ناصر كان مبتهجًا، قفز إلى سريره بخفّة، استلقى دون أن يتكلّم، دون أن يقول لها أين كان، ومن رأى على السطح، وأين أمضى كلّ هذا الوقت، مع أنّها نصحته أن يستريح، بعد الغداء. سألته:

ـ مالَكَ؟ لماذا من الباب إلى السّرير فورًا، كالسنجاب الذي ينطّ على شجرة؟

أجابها:

ـ دعيني! إنّني أرتّب أفكاري!

ـ وما هي هذه الأفكار ما شاء الله!؟

ـ أفكاري والسلام!

ـ أفكارك الخائبة كالعادة؟

مدّ رأسه من السرير، سحبه كالسلحفاة، جلس، هبط من السّرير، وقف قبالتها، قال:

ـ أفكاري غير خائبة دائمًا، وبرغمك!

ـ ما هذه اللَّهْوجة؟ هل تعرّفت على صديقة جديدة؟

ـ صديقة؟ هَهْ! أصدقاء وصديقات، ومن الأجانب! انتظري تري. . دعيني أعدّ نقودي!

قال ذلك وفتح محفظته. عدّ نقوده وأعادها إلى المحفظة. راقبته عفراء وهي تضحك، وضعت إصبعها على صدغها، فتحت كفّها ونفخت عليه، قالت:

ـ مجنون! كم معك؟

ـ لا بأس، وفيكِ البركة عند الحاجة!

ـ لم تحزر! ولا ليرة واحدة!

ـ ليرة!؟ مرحبًا ليرة! الدولار وحده الذي يحكي هنا! نحن، يا شاطرة، لسنا في «وطا المصيطبة!»

ـ ولسنا في شارع الحمرا أيضًا! الرحلة في يومها الأوّل، تعقّل! حافظ على دولاراتك!

ـ لست بحاجة إلى نصائحك.

ـ أهبل!

ـ الهبل نافع، بل هو ضروريّ أحيانًا. . ألم تسمعي ما قاله بدر الزرقا؟

ـ ومن هو بدر الزرقا هذا؟ طالب ثانويّ مثلك؟

نظر إليها باستغباء وقال:

ـ أقول لك بدر الزرقا، وتقولين «طالب ثانويّ!»؟ فهيمة بحقّ، ولكن في الجغرافيا! ومن يدري! بدر الزرقا، يا فصيحة، هو الرّجل الذي كنت أبحث عنه!

استقامت عفراء في جلستها. بدا عليها الاهتمام رغم تظاهرها بعكسه. سألت وكأنّها تسخر:

ـ وأين وجدته؟ على البار كما في الظهر!؟
ـ ولماذا اهتمامك به؟
ـ أنا!؟ ولا على بالي! مجرّد حبّ اطّلاع، ولأنّني وجدتك، أنت، مهتمًّا به، لا أكثر!

قال ناصر:

ـ أنا فعلاً مهتمّ به، ومعجب أيضًا! مع أنّه لم يقل لي ماذا يعمل، أو أين. . ارتبكت! مضى الوقت بسرعة، وكان لديه موعد، لكنّنا سنلتقي، على السطح أو في الكافتيريا!
ـ ولهذا تعدّ نقودك؟
ـ من باب الاحتياط، لا أعرف الأسعار على الباخرة بعد.
ـ وهل ستدعوه إلى الغداء أو العشاء؟ أم تشرب معه على البار!؟
ـ ولماذا لا؟ ربّما. . ولكن على البار لا! تعرفين أنّني لا أشرب.
ـ حتّى البيرة؟
ـ هذه نعم، ولكن ليس على البار، يجوز على الغداء، وبحضورك، كما مع الأصدقاء في شارع الحمرا.
ـ وماذا قال لك؟
ـ لا تخرج عن إرادة أختك!
ـ هذا جيّد. . وبعد؟
ـ سألني: تخاف البحر؟
ـ أجبته لا طبعًا!
ـ ولماذا طبعًا هذه؟ أنا لا أخاف البحر، رغم أنّني لم أسافر في أيّ باخرة قبل الآن. . وقد شجّعني على السباحة، وقال

إنّ مسألة علم الفَلَك، والأرصاد الجوِّيَّة، تخريف، لإغاظة لويزا! لكنّه، في المقابل، أوصاني أن أعاملها بتسامح، وأكّد أنّنا، على الباخرة، عائلة لبنانيّة واحدة، رغم اختلاف الأعمار والأفكار.

قالت عفراء بعذوبة:

ـ هذا صحيح!

نهض ناصر وقال:

ـ إذن بخاطرك.. لم أسافر كي أحبس نفسي معك في القمرة.

ـ وأنا لن أحبس نفسي! انتظرني لنصعد إلى السطح معًا.. المسافرون كلّهم هناك الآن، مع الغروب، تعرف ما معنى الغروب ونحن في البحر؟

ـ سأعرف كلّ شيء.. الغروب والشروق والبحر.. بدر نصحني بالتعرّف على الآخرين، قال: التعارف مرغوب فيه، في الرّحلات بخاصّة، هكذا بالحرف الواحد.

ـ فكرة جيّدة، ولكن كيف؟ نحشر أنفسنا بالآخرين؟ لا! التنزّه على سطح الباخرة فقط، ومع بعضنا! إيّاك أن تفلت منّي، وخاصّة في اللّيل، لا تدعني وحدي، لا تجعلني أقلق عليك، انتبه! نحن لا نعرف كيف يسهر المسافرون، وهل هناك موسيقى ورقص، وهل المطعم سيكون مزدحمًا كما على الغداء؟ هذه أمور نجهلها، ومن الأفضل أن نعرفها على مهل بغير لهْوجة!

قال ناصر:

ـ طبعًا طبعًا! ولكن لا تكتمي أنفاسي! الصَّبيّ غير البنت..

قاطعته عفراء وهما يصعدان السلالم:

ـ ماذا تعني؟ أن تتسكّع على كيفك!؟ وأنا!؟

ـ لا بدّ أن نجد بعض الناس، من الذين تعرّفنا عليهم صباحًا.. في هذه الحال لن تكوني وحدك.

ـ ولكن ليس قبل العشاء، ومهما حدث!

قال ناصر:

ـ تعالي! ها نحن على السّطح! أنظري! أكثر المسافرين هنا.. تذهبين إلى المقدّمة؟ هناك المنظر رائع، لا تقتربي كثيرًا من الحاجز، رغم أنّه مرتفع، قد تهتزّ الباخرة فجأة، كوني حذرة! نتنزّه قليلاً، وبعد ذلك إلى الكافتيريا، نشرب قهوة إكسبريسو، ما رأيك؟

ـ دعنا نر.. أنا أيضًا أشتهي فنجانًا من القهوة، لا تتعجّل!

سارا على مهل. كان الناس غادين رائحين، بين مقدّمة السفينة ومؤخّرتها. بعضهم، ورغم الزحمة، يتّكئ على الحاجز، يستمتع برؤية الغروب، وبعضهم يسبح، أو يجلس حول طاولات صغيرة، مستديرة، وعلى إحدى هذه الطاولات، كان يجلس بدر والسيّدة جان إيبوليت، بعد أن سبحت، وتشيّكت، وراحت تدخّن، مستمتعة بالنسمات الرهوة، وبالنظر إلى الناس، نظرة استعراضيّة، وهي ترتدي فستانًا «ديكولتي» من الحرير المشجّر بالأصفر والبنّيّ، وتسترخي، بعد أن نعمت بماء المسبح الفاتر، مرتدية مايّو بكّيني، يكشف عن مفاتنها، ويعرّض جسمها للشمس، كي يتعمّق لونه البرونزيّ، بينما يجلس بدر، على مقربة، وحيدًا، مفكّرًا، والسيكارة في فمه، لا يستثيره ما يرى، لأنّه يعرفه، وقد اعتاده، وأصبح مألوفًا جدًّا

لديه، ولا ينتظر أحدًا، حتّى السيّدة جان، التي كانت تثرثر، وتضحك، مع السابحين معها، وهم يجلسون على حافّة المسبح.

وعندما، أخيرًا، جاءت جان إلى بدر، وجدته في أحلى صفاته النفسيّة، مبتسمًا، نشيطًا، يتكلّم بحيويّة، وبمرح ظاهر، مرحّبًا بها، سائلاً عمّا إذا كانت قد استمتعت بالسباحة «وبكلّ شيء!» بعد الظهر. ضحكت جان وقالت:

ـ الاستمتاع بالسباحة نعم، لكن «بكلّ شيء» لا.. ماذا تقصد بهذا؟

ـ الأحلام الذهبيّة!

ـ لكنّني لم أنم بعد الظهر!

ـ أحلام اليقظة الذهبيّة إذن.

ـ وكيف تكون هذه الأحلام؟

ـ بالفكر! يفكّر الإنسان بما هو خياليّ على أنّه حقيقة، ويستشعر اللّذّة مع الآخر، كما في الواقع! إنّها متعة تكتسب بالتمرين، وهي رائعة، تعلّمتها من راهب بوذيّ، عندما كنت في التيبت! وإلاً كيف يعيش الرهبان؟ دون لذّة!؟

تأمّلته جان بفضول، بعد أن فكّرت «هل يمكن هذا!؟». بدر يقول أشياء طريفة، إلاً أنّها معقولة. الرهبان والراهبات، ومسألة بلوغ اللّذّة، بتمرين الحواس! هل هذا من البوذيّة؟ سألته:

ـ ألا تكون، مثل هذه الأحلام، داعرة! وتأتي كثيرًا في سنّ المراهقة!؟ وهل يحقّ، في الرهبنة، ممارسة اللّذّة عن طريق

الحواسّ؟

ـ يحقّ للإنسان، في حياته القصيرة، أن يقاوم الحرمان بكلّ الوسائل المتاحة، وأن ينشد اللّذّة، بكلّ الوسائل المتاحة أيضًا! وإلاّ ماذا يفعل السجناء، من الرّجال والنّساء، المحكومون لمدد طويلة؟ وكيف يتدبّر المشوّهون جسديًّا، من الجنسين، أمورهم؟ نحن البشر لا سلطة لنا على اللاّوعي، لذلك أحلام النوم غير إراديّة، وأنت تعرفين هذا، غير أنّ أحلام اليقظة، إراديّة، وتتبع، في أحيان كثيرة، الألم واللّذّة، أو الحرمان والإشباع، أمّا مسألة نوع هذه الأحلام، فإنّها شكليّة، عقّدتها المدنيّة، فصنّفتها بين شريف وداعر، لذلك فإنّ القبائل شبه البدائيّة، أسعد منّا، لأنّها أكثر انسجامًا مع الطبيعة، ولم تصلها لعنة العقد النفسيّة، المتفشّية جدًّا في المجتمعات الصناعيّة.. اعذريني، لم أقل جديدًا، فأنت فنّانة، ومثقّفة، ولست بحاجة إلى هذا اللّغو!

قالت جان:

ـ أوه! أنت يا بدر ممتع الحديث، لأنّك عشت المعرفة بشقّيها، الكتبي والاطّلاعيّ، ما رأيك بهذه الرّحلة؟ أليست ممتعة؟ إنّني أحبّ السفر بالقطارات والسفن، فيهما يلتقي المسافر بأنماط من البشر، ويتعرّف على آراء وعادات كثيرة.. أنت قبطان، وحياتك ملأى بالغرائب. ما رأيك أن نشرب القهوة، أو البيرة، في الكافتيريا؟ أحسب أنّها خالية الآن، لأنّ الجميع على سطح الباخرة!

قصدا الكافتيريا، التي لم تكن خالية، إلاّ أنّ فيها أمكنة

شاغرة، وقد دهش بدر لأنّ غيداء كانت هناك، وحولها «بعض المعجبين ولا شكّ!» كما كان هناك ناصر ومعه فتاة، قدّر بدر أنّها أخته، فرفع يده من بعيد محيّيًا ناصر، وجلس مع جان في ركن المكان، يشربان القهوة، يدخّنان، يتحدّثان، ويضحكان، دون قهقهة، كما على البار، وجان تسأل:

ـ لماذا تركت العمل في البحر؟

ـ لأنّني ارتكبت غلطة فاحشة أثناء قيادة سفينتي في البحر الأحمر!

ـ حادث!؟

ـ حادث ارتطام بالشعب المرجانيّة.

ـ كان يجب أن تنتبه، مسؤوليّة القبطان كبيرة!

ـ وها أنا أتحمّل المسؤوليّة!

ـ لا تأسف!

ـ ليس هناك، في حياة الإنسان المضطربة، ما يستحقّ الأسف، خاصّة إذا كان هذا الإنسان مخلصًا في عمله، وأنّ خطأه نتيجة مصادفة سيّئة.. في البحر الأحمر تصعب القيادة. إنّه مليء بالشعَب المرجانيَّة الحمراء، لذلك سمِّي بالبحر الأحمر، وهذه الشعَب تشبه الأشجار، لكنّها قاسية كالصخر، وتفاديها ليس سهلاً، لكنّه ممكن، ودائمًا هناك مصادفات، بعضها حسن، وأكثرها سيِّئ!

ـ وهل لديك عائلة، زوجة وأولاد مثلاً؟

ـ تزوّجت وطلّقت قبل أن أنجب! حياة البحّار مهدّدة في كلّ سفرة، ودائمًا.. إنّه موجود مفقود، وماذا ذنب الزوجة حتّى تتحمّل عذاب الانتظار، الذي يطول أحيانًا؟ المرأة العربيّة

بخاصّة، والشرقيّة بعامّة، محكومة بعوامل كثيرة، وكلّها ضدّها.. المجتمع الذكوريّ لا يرحم! عقليّة الذكوريّة بلوى، تصيب المرأة دون الرّجل، وتزداد الأمور سوءًا وشقاء، في المجتمع المتخلّف، وبلدان العالم الثالث متخلّفة، أمّا ما يتمتّع به لبنان، كبلد سياحيّ، من ميزات، ومن حرّيّات، ومن خروج الطبقة الثريّة على التقاليد، وتحرّرها، وبذخها، فهي مظاهر تبهر السائح، الذي يرى النصف الجميل، المترف من لبنان، أمّا النصف الآخر، الفقير، الكادح، أمّا المناطق البعيدة عن بيروت، في الشمال والجنوب، وكذلك الأحياء الفقيرة، البائسة حتّى في العاصمة، فإنّها تقدّم لوحة أخرى، مختلفة جدًّا، وأشدّ مدعاة للرّثاء!

صاحت جان:

ـ أوه بدر! ماذا أسمع؟

ـ الحقيقة يا سيّدتي! لكنّ الأشياء ستتغيّر نحو الأفضل، بعد زمن طويل وكفاح مرير، لا بدّ منه! ما رأيك بكأس من السنزانو؟

قالت جان من فورها:

ـ ضروريّ! لأجل البهجة قليلاً!

ـ أنتِ على حقّ.. من الضروريّ أن نغيّر الحديث، وأن نبتهج قليلاً.

قال ذلك وطلب كأسين من السنزانو، سأل:

ـ هل هناك، اللّيلة، حفلة راقصة يا جان؟

ـ من المرجّح أن تكون، وإلاً فَقَدَ السفر، في باخرة فخمة كهذه، معناه! تحبّ الرّقص؟

ـ أحبّه لكن لا أجيده!

ـ معي ستجيده، لكنّني، اللّيلة، مرتبطة.. هناك لعبة بوكر مكشوف، مع أصدقاء، ما رأيك أن تأتي معي؟

قال بدر:

ـ آسف يا جان، نقودي لا تكفي لمثل هذا الترف!

ـ لعب البوكر ترف!؟

ـ بالنّسبة لأمثالي نعم!

ـ لكنّ اللّعب لن يطول.. عليّ أن أكمل رسم لوحة، ولو سهرت لوقت متأخّر من اللّيل! إنّني في «كبين» خاصّ، في الدرجة الأولى، رقم ٥، أمارس فيه هوايتي.

شربا كأسي السنزانو، نهضت جان وقالت:

ـ إلى اللّقاء غدًا.

ـ إلى الغد، مع حظّ طيّب في اللّعب، وعمل موفّق في الرّسم.

تصافحا. أعطته خدّها فقبّله بلطف. خرجت جان من الكافتيريا وهي تلوّح بيدها!

- ٤ -

بقي بدر، بعد ذهاب السيّدة جان توليب، وحيدًا إلى طاولته. كان، الآن، رائق المزاج، لتعرّفه بهذه الفنّانة الدمثة، المثقّفة، التي تراعي، على نحو جيّد، إحساس من معها. أعجبه منها، احترامها لذاتها، وسرّه أنّها كانت المبادرة إلى رفع الكلفة معه. نادته: بدر! ناداها: جان! هكذا بكلّ بساطة. أسفه الوحيد أنّها تقامر، أمِلَ ألاّ تكون مدمنة على اللّعب، وألاّ تنتقل من البوكر إلى الروليت، وأن تعطي فنّها الوقت الكافي، وأن تكون مبدعة، كما تدلّ لمعة الموهبة على محيّاها. ما عدا ذلك لا شيء! علاقة جيّدة، متبادلة الاحترام، لقاء من وقت لآخر، من غير أن يجاريها في نزواتها: سكرًا، قمارًا، رقصًا، تبهرجًا، لأنّه لا يملك نقودًا تسمح له بمجاراة نزواتها، ولا يرتاح لهذا التفاوت، بينهما، في القدرة على البذخ، أو الإسراف فيه، وأهمّ من كلّ ذلك، عزّة نفسه كإنسان وبحّار، يرفض، في أيّما ظرف، أن يتهالك على امرأة، أو يقبل بغير التعادل في المواقف، والندّيّة الكاملة في المعاملة.

فكّر وهو يدخّن، في جماعة الرّحلة الموجودين في الكافتيريا. لم يكن، بينهم، من يعرفه سوى غيداء، ومن

بعيد، سوى ناصر الذي معه شقيقته، ومن غير المرغوب فيه، أن يلتفت إلى أحد من أفراد الجماعة، أو إلى ناصر، لأنّ ذلك ليس من اللّياقة، ولا يدخل ضمن اهتماماته، لثقته الكاملة، وقد تكون المفرطة، في أنّ غيداء، كما يردّد كلّما رآها: ستكون لي! أو «هذه المرأة ستكون لي!» لا يهمّ في أيّ يوم، أيّ عام، أيّ عقد من الزمن، في الصباح أو الكهولة، في بيروت أو غيرها، فالمراهنة، هنا، على تبرير الثقة، على تحقّقها، دون أن يتساءل: «أُحبّها أم لا أُحبّها!؟» فالتساؤل إضمار، والنشاط النفسيّ، في تحرّكه اللاّشعوريّ، خدّاع، وبدر اعتاد، منذ صباه الأوّل، العيش العفويّ، كأنّه الذي عناه الشاعر بقوله: «دع التقادير تجرِ في أعنّتها!» وهذه اللاّاهتماميّة، ازدادت بعد أن عمل في البحر، مع اعتقاديّة إيهاميّة، أنّه، حين يكون على البرّ، وفي بيروت تخصيصًا، يلتقي غيداء مصادفة، دون انتباه، ودون معرفة بأنّ المصادفة بنت الضرورة، وأنّ الضرورة يرتّبها، ويحرّكها، في داخله، عامل نفسيّ ثابت، متأصّل، وقد تمظهر ذلك كثيرًا، في التردّد اللاّعفويّ، على الأماكن التي تتردّد عليها غيداء، مع اعتقاد بدر بأنّ تردّده عفويّ، وبشكل مطلق! كما هي حاله الآن، في الكافتيريا، حيث كانت غيداء ومن معها.

ولأنّ بدر يجلس بوضع جانبيّ، لم يلحظ دخول شابّين أجنبيّين، وجلوسهما بمحاذاة طاولة غيداء، وبشكل قريبٍ جدًّا منها، وهما مخموران إلى درجة عدم الاتّزان، بعد أن طردهما البارمان غابور، رافضًا أن يعطيهما المزيد من النبيذ، كي يتفادى أيّ عربدة على البار. الشابّان إيطاليّان، هيّبان، وفي طبعهما شراسة، ومن غير المستبعد أن يكونا من المرتزقة، أو

من أصحاب السوابق، وكان أحدهما يجلس ووجهه إلى ظهر هزار، وقد أغراه منها جمالها الشرقيّ، وضحكها، وتلفّتها، فمدّ ذراعه وطوّق خصرها، محاولاً أن يجذبها إليه، حين فوجئت هي مذعورة، وراحت تصرخ في محاولة للتملّص، بينما نهض من معها لإنقاذها، وعندئذ سحب الشابّ الإيطاليّ المخمور سكّينًا، من النوع الذي تستعمله المافيات الإيطاليّة! مهدّدًا به من يقترب منه.

هبّ الذين في الكافتيريا واقفين! هرب بعضهم وتجمّد البعض، لم يعرف بدر، في البدء، ما هنالك، لكنّه رأى السكّين مشهورة، والشابّ الإيطاليّ في فورة غضب، يشتم بإقذاع، فتقدّم منه صائحًا بقوّة:

ـ اِرم السكّين! دعنا نتفاهم!

صرخ الشابّ:

ـ ومن أنت؟ سائح إنكليزيّ؟ علام نتفاهم؟

ـ على أنّ هذا لا يليق.. كن عاقلاً!

قال زميله الأقلّ سكرًا:

ـ نعم! كن عاقلاً يا ألبرتو!

ضحك ألبرتو ضحكًا مخمورًا وقال:

ـ أنا عاقل! عاقل جدًّا! وماذا فعلت؟ هي التي تحرّشت بي، فأمسكتها من خصرها!

قال بدر وهو ينظر في عيني ألبرتو بثبات:

ـ دع الفتاة، وسنتفاهم بهدوء! هذا أفضل، وقبل أن يتدخّل حرس الباخرة.. أنظر! إنّهم وراءك.

التفت ألبرتو إلى وراء، فانقضّ بدر وقبض بقوّة على ذراعه التي تحمل السكّين. ضغط على الذراع بقوّة، حتّى التوت، وتراخت، وسقطت السكّين أيضًا، وعندئذ برم الذّراع إلى الوراء، وقال له وهو يدفعه أمامه إلى الباب:

ـ هيّا! أُخرج بغير مقاومة.. وسأعتبر الأمر منتهيًا!

قال زميله:

ـ هيّا ألبرتو، كلّنا، على الباخرة، أصدقاء، انتهينا.. سيا!

عاد بدر إلى طاولته في ركن الكافتيريا وكأنّ شيئًا لم يكن، التقط الكرسون السكّين وخبّأها في مكان ما، في الداخل، جاء بوليس الباخرة وتسلّمها، ثمّ ركض في الاتّجاه الذي أشار إليه الكرسون، عاد الوضع في الكافتيريا إلى ما كان عليه، طلب بدر فنجانًا من القهوة، أشعل سيكارة، نفث الدخان من فمه ومنخريه، وبعد قليل صعد إلى سطح الباخرة، دون أن يلقي نظرة على ما حوله، أو إلى وراء.

سطح الباخرة يتلألأ بالأنوار، إنّه اللّيل على البحر، من يعرف البحر، في جلاله والبهاء، وفي الصيف، آنَ الوداعة والسمر الجميل؟ السفينة تنزلق على الماء، كما القطرة على طرف صخر أملس، القمر الفضّيّ، أشعّة مصباح كبير كبير، تتكسّر على الأمواج في ونى تدافعها، تنير منبسطًا لا حدود له، من كلّ الجهات، تذكّر بالمرْج السهليّ، الذي يتلوّن عشبه الأخضر، فيغدو رصاصيًّا، داكنًا، ساكنًا كما المعبد، ومن جوانبه شذى بخور مسكيّ، في اللّيالي التي يتوحّد فيها مع نفسه، مرسلاً ابتهالاته الصامتة نحو الأعالي! «لو أنّ الفصول

الأربعة، تصير فصلاً واحدًا، صيفيًّا، كرمى للذين أسلموا أقدارهم، لكفّ البحر الجبّارة، مؤتمنينها على أرواحهم، في الإبحار الذي يُخال معه ألاّ يابسة، على هذه الكرة التي تتناوب عليها، في التحديق البعيد، عين القمر وعين الشمس!»

بدر موقن أنّ ذلك محال، وأنّه أمنية خلبيّة، يطرّزها الوهم، إلاّ أنّ البحّار، في الأسفار البعيدة، يظلّ يغزل أمنيات، على نول رجائه في العودة، كرّة أخرى، إلى الذين فارقهم، حاملاً معه ذكريات عنهم، تسكنه، تهيم به، كالرّوح التي تسبح، في خضمّ فضاء أزرق، تدور الأفلاك في رحبه الذي بلا حدود، كالقناديل المعلّقة في قبّة شفّافة، عالية، معلّقة بدورها في الفضاء، وبعده فضاء، ثمّ فضاء، ثمّ ماذا!؟ لغز! برغم كلّ الاكتشافات العلميّة، التي تقول إنّها قانون الكون، الذي رتّب كلّ أشيائه، وفق نظام دقيق، عجيب، ومحيّر!

الاشتراك، في هذه الرّحلة، لم يكن اعتباطًا بالنّسبة لبدر. رغب أن يكون في البحر، في هذه الرحلة المملّة، كي يملّ البحر، كي يكرهه، كي ينساه فيه، لا لأنّه يعرف أنّ نسيان ما يحبّ الإنسان، يكون في هذا الذي يحبّه بالذّات، بل لأنّ حالة ما، مبهمة، دفعته إلى السفر في البحر، كي يراه في خضوعه، والسفينة تشقّ قلبه، من غير أن يجرؤ حتّى على الشكاة، حتّى على الاحتجاج ولو بالصراخ الموجيّ، وحتّى على التمرّد بشكل ما، أمام التحدّي الذي يجعله مُذلًّا، مُهانًا، صاغرًا حيال شماتة يضمرها بدر له، وإزاء حقد نفّارٍ يحمله أيضًا، كالجرح المفتوح في الصدر، من طعنة غادرة، منذ ذلك الحادث الذي كان بدر ضحيّته، في البحر الأحمر، الذي يزعم

أنّه يعرفه مثلما يعرف كفّه.

انفتحت في البحر، مشهديّة مؤلمة، انداح لها الماء، فرآها بدر، وعاشها من جديد. ها هو في غرفة القيادة، في سفينته «ذات الصواري»، وها هو السكّان بين يديه، والخريطة أمامه، والرّؤية واضحة، والشعَب المرجانيّة معروفة، وتدمّرت بها سفينته، في حركة متقنة من يديه على المقود، مرّات كثيرة، وبنجاح كامل. لكنّه، في سفرته الأخيرة، فوجئ بارتطام السفينة، كأنّما في ومضة برق، بشعبة مرجانيّة، أحدثت عطبًا شديدًا في مقدّمتها، عطّلها عن الحركة، واحتاج الأمر، بعد ذلك، إلى زورق إرشاد، قطرها وأخرجها، بصعوبة كبيرة، وأضرار فادحة، من المكان الذي علقت فيه، وقادها إلى الإصلاح، في أقرب ورشة، لأحد المرافئ، على البحر نفسه! «حمار! كنت حمارًا حتّى ارتكبت مثل هذه الخطيئة. اللاّمبرّرة، من أيّ وجه.. خطيئة واحدة، قضت على مستقبلي كقبطان، لأنّني عجزت، أمام الحقيقة الفاضحة، عن الدفاع المقنع عن نفسي. لم يكن ذلك سهوًا، أو غفلة عين من أثر نعاس، أو فقدان وعي من سكر. كنت بريئًا من كلّ هذه المعايب، أنا القبطان اليقظ، المجرّب، الذي بدأت شهرته بالنموّ، بالاتّساع، مع كلّ إبحار جديد، إلاّ أنّ معاوني قدري الجرّ، قدّم تقريرًا، طُلب منه، نفث فيه كلّ سمّه، فاتّهمني بأنّني كنت في حالة سكر! وهي تهمة قاتلة، أخذت بها الشركة، فأقامت عليّ دعوى، وسرّحتني من العمل، مسيئة إلى سمعتي ومستقبلي إلى أمد بعيد!»

تراجع بدر عن الحاجز. عاد من جديد إلى حاضره، إلى

اللّحظة التي هو فيها، إلى وجوده على السطح المشعشع، والسفينة تمضي، والازدحام قد خفّ، لأنّ جرس الدعوة إلى العشاء قد قرع، وهو في غفلة عنه. كان يرتعش بعد أن استعاد كلّ ما جرى، يرتعش من خطيئته، ومن نذالة ذلك المعاون، ومن البحر، هذا الذي لم يكن وفيًّا! تنزّه قليلاً، محاولاً النسيان، السيطرة على الأعصاب، امتلاك رباطة الجأش، الاندغام بالجوّ العامّ، سماع الموسيقى التي تنداح نغماتها بهدوء، التمتّع باللّيل الجميل، في ليلة الصيف التمّوزيّة هذه، دون أن يشرب، لكنّه فشل في التوصّل إلى ما يريد، في إسار الوحدة التي هو فيها، دون زميل، دون صديق، دون معارف، حتّى من أفراد الجماعة، التي يشترك معها في رحلة واحدة. «ماذا تبقّى لك يا بدر، في الوحشة النفسيّة التي تعاني منها؟ أنت لا تحمل ما يكفي من النقود، ولا ترغب في الإدمان، وغيداء، «هذه المرأة ستكون لي!» ليست على السطح، وأنت لا شهيّة لك إلى الطعام، ولا بأس بكأس من الويسكي، كأس واحد فقط، يخدّر أعصابك قليلاً، تذهب بعده إلى قمرتك، محاولاً أن تنام، هربًا من كلّ شيء، وقرفًا من كلّ شيء: البحر والمرأة وتلك الفتاة المعروقة، التي تجلس الآن على أعصابها، لا تدري أين، وتلك النمّامة صالحة، التي لا تشبع من أكل لحوم الناس النيئة، والتي دعتك إلى قهوة الصباح معها، دون أن تحسّ باشمئزازك منها، هذه القنفذة التي كلّ شوكها في لسانها!».

اتّجه إلى البار بخطى ثابتة. قرّر أن يشرب وسيشرب، ولتربح السيّدة جان أو تخسر، لترسم أو تنم على ظهرها، مع

أيّ ابن عاهرة من الذين يلعبون البوكر المكشوف معها، وهزار الغنّوجة، أمينة سرّ غيداء، تلقّت اليوم درسًا مفيدًا، ومن عجب أنّ الذين كانوا معها، على الطاولة نفسها، وهم شباب لبنانيّون، من المفترض أن يكونوا، مثل سائر اللّبنانيّين، على قدر من الجرأة، لم يتصدّوا لذلك الرّقيع المخمور، الذي اسمه ألبرتو، ولم يندفعوا لتخليص السكّين منه، وتسليمه إلى حرس الباخرة! «ربّما سبقتهم أنا! هذا هو الاحتمال الوحيد، لكنّني أنا، الذي حسبني ألبرتو إنكليزيًّا، كنت عند وعدي: اكتفيت بإخراجه من الكافتيريا!»

جلس بدر إلى البار، بعد أن داعب البارمان غابور، بتحيّة ماجنة، قائلاً له، بصوت مرتفع:

- مساء الزفت يا غابور! أعطني كأسًا من الويسكي، المغشوش جيّدًا!

ردّ غابور ضاحكًا:

- مساء القطران يا بدر، فهذا أكثر نفعًا للمراكب، ولك أيضًا، يا قبطاني العاطل عن العمل، لأنّ السماء صافية، ولا غيوم فيها لتصطادها.. أين صديقتك السيّدة توليب؟
- تلعب البوكر المكشوف!
- ولماذا لست معها؟
- لأنّه لا مال لديّ، أقامر به.. أعطني كأس الويسكي، مع كثير من الثلج.

أعطاه غابور ما طلب، وانصرف عنه إلى زبائنه، من الجنسين، المتحلّقين حول البار، بين قاعد وقائم، وبعضهم

ملوّح سكرًا، والثرثرة على أشدّها، في غابة من الأصوات، بلغات مختلفة.. هذا الجوّ كان مألوفًا من بدر، انتفت فيه وحشته، وجد نفسه حيث يجب أن يكون، كبحّار سابق، إلاّ أنّ كرسون الكافتيريا دخل على الخطّ، ومعه أحد حرّاس السفينة. كانا مهذّبين جدًّا، ألقيا تحيّة المساء بأدب، وقال الحارس:

ـ اعذرني يا سيّدي، أرغب في التحدّث إليك قليلاً.. اِبق جالسًا حيث أنت، كن مرتاحًا، وآمل أن تكون سعيدًا في هذه الرّحلة.

قال بدر:

ـ إنّني على ما يرام.. ماذا هناك؟

ـ كلمة شكر وتطمين، ألست عربيًّا؟

ـ نعم! أنا عربيّ من لبنان، لماذا تسأل؟

قال الحارس بشوشًا:

ـ أحسنت التصرّف في الكافتيريا اليوم، كنت بارع الحركة، وقد أنهيت الموقف بسرعة وهدوء، وهذا موقف شاذّ ونادر على سفينتنا، وألبرتو محجوز الآن مع زميله لدينا، سنسلّمهما لشرطة أوّل مرفأ نرسو به، كي لا يتكرّر حادث مؤسف كهذا!

سأل بدر:

ـ وما هو المطلوب منّي؟

ـ هل تريد أن تدّعي على ألبرتو؟

ـ أدّعي!؟ لماذا؟

ـ كي نعاقب ألبرتو، بغرامة ماليّة مع الحجز!

ـ تعاقبون رجلاً مخمورًا؟

ـ هذا هو القانون، والقانون يُطبّق على الجميع، في حال الاعتداء على الغير.. ألبرتو اعتدى، وبالسّلاح!

قال بدر:

ـ نعم! هذا ما يجب.. أعرف ذلك..

قال غابور:

ـ هذا صحيح، السيّد بدر يعرف ذلك جيّدًا، كان قبطانًا على سفينة ما، في السابق.

قال الحارس:

ـ أرحّب بك على سفينتنا، سيّدي القبطان، حركتك، كما وصفوها لي، حركة بحّار متمرّس، أين درست!؟

ـ في الكلّيّة البحريّة في أثينا.. هل هناك شيء آخر؟

قال الحارس:

ـ مجرّد طلب، إذا لم يزعجك، أن تبلّغ الفتاة، وهي عربيّة لبنانيّة مثلك، ومن كان معها، اعتذارنا عن الحادث، مع التأكيد أنّه لن يتكرّر، نهارًا أو ليلاً، وفي كلّ السفينة، هذا للاطمئنان! إنّه ضروريّ جدًّا، كي يشعر جميع من على السفينة، بالراحة التامّة، وكي يستمتعوا دون خوف.

ـ وماذا بعد؟

ـ أن تُبلغنا الآنسةُ المعتدى عليها، ما إذا كانت ترغب بالادّعاء على المعتدي، غدًا.

قال بدر:

ـ وإذا قلت لك إنّني لا أعرف هذه الآنسة سوى بالاسم؟

وإنّني أترك أمر التبليغ لكم، مع الوعد بطمأنتها ومن كان معها، إذا ما التقيتهم غدًا أو بعده.. ما رأيك بكأس، على شرف تعارفنا؟

ابتسم الحارس، ربّت على كتف بدر بودّ وقال:

ـ شكرًا جزيلاً، إنّني في الوظيفة، وأنت تعرف.. أكرّر اعتذاري، إلى اللّقاء.

قال غابور بعد أن ابتعد الحارس:

ـ اللّقاء في حادث آخر، يا عزيزي القبطان السابق!

قال بدر:

ـ شرط أن يكون على البار! وبعد كأس آخر، من الويسكي المغشوش يا غابور!

ـ هذا ويسكي من النوع الممتاز، تذوّقه صرفًا! وعندئذ تعرف أنّ غابور لا يغشّ!

قال رجل قريب من بدر:

ـ الويسكي الجيّد يشرب دون ثلج أو ماء.. كما يفعلون عندنا، في سكوتلاندا.

قال بدر:

ـ أصدّقك يا سيّدي، أنتم، في سكوتلاندا، تصنعون الويسكي وتشربونه كلّه!

قال الرّجل ضاحكًا:

ـ مع ذلك يبقى منه للتصدير ما يكفي.. لا تخف!

ـ ولماذا أخاف؟ هناك الڤودكا!

ـ بَهْ! أقول الويسكي وتقول الڤودكا!؟ هل أنت من الحُمْر؟

ـ أنا من السُّمْر كما ترى. .
قال غابور:
ـ ومن لبنان أيضًا. . هناك يشربون العرق. . إنّه مشروبهم الوطنيّ.
قال بدر:
ـ وهو أفضل من الويسكي!
قال الرّجل السكوتلانديّ:
ـ لا تجعلني أسكر من الغضب! أقول الويسكي يعني الويسكي، وبغير نقاش!!
قال بدر:
ـ إذا زرت لبنان غيّرت رأيك!
صاح الرّجل:
ـ من!؟ أنا أغيّر رأيي!؟ الدنيا كلّها لا تغيّر رأيي! اِحفظ ما أقول، وتذكّره جيّدًا، فقد نلتقي في لبنان، العالم صغير، والدنيا، هذه العاهرة، صارت بحجم جوزة الهند!
أضاف وهو يترنّح:
ـ هل كنت في الهند، يا سيّد، أنت؟
قال بدر:
ـ أنا في طريقي إليها!
ـ إذن تحيّاتي إلى السيّدة أرملة راجيف غاندي، هذه امرأة حقيقيّة، رفضت تسلّم الحكم!
قال غابور:
ـ وأنت، يا سيّدي، سكوتلانديّ حقيقيّ، لكن لا قطرة أخرى

من الويسكي!
شرب بدر ما تبقّى في كأسه ونهض.. قال للرّجل:
ـ غابور على حقّ، إنّه بارمان رائع، يعرف متى يجب على زبونه أن يتوقّف عن الشرب!
احتدّ السكوتلانديّ وصرخ وراءه:
ـ وأنت؟ لماذا توقّفت؟ وإلى أيّ خمّارة ذاهب؟
لوّح له بيده وقال:
ـ إلى خمّارة النّوم! حظّ طيّب!
سار بدر متمهّلاً، عبّ من النسيم النديّ، شعر أنّه على ما يرام، الجلسة، على البار، روّقت مزاجه الذي عكّرته ذكريات حادث سفينته، فتحت شهيّته أيضًا، هبط السلّم إلى المطعم، التقى، بعد عدّة درجات، الفتى ناصر، صافحه قائلاً:
ـ ماذا تفعل هنا؟
ـ أبحث عنك!
ـ عنّي!؟ ولماذا؟ هل أنت وشقيقتك بخير؟ تعال! سنتحدّث ونحن نأكل.
أجاب ناصر:
ـ تعشّيت، ولكنّني أجلس معك قليلاً، أين كنت؟ لماذا اختفيت بعد حادث الكافتيريا؟
ابتسم له بدر وقال:
ـ لماذا كلّ هذه الأسئلة، ودفعة واحدة؟ لنجلس ونتحدّث بهدوء، ماذا لديك؟ رأيتك، في الكافتيريا، ومعك آنسة، هل هي شقيقتك؟ تعال نجلس هنا، ألا تشرب العصير

أيضًا؟

ـ معك أشرب، لكنّني مرتبك، ذلك الإيطاليّ المجرم كان خطيرًا ومخيفًا، لماذا تركته يهرب!؟

ـ وماذا أفعل به؟ وعدته بأن نتفاهم، وتفاهمنا.. هذا كلّ ما في الأمر!

ـ لو رآه حرّاس الباخرة لقبضوا عليه!

ـ رأوه وقبضوا عليه، اطمئنّ!

ـ أنا لا أخاف، لكنّ أختي..

ـ قل لأختك أن تطمئنّ أيضًا.. ألبرتو ورفيقه في الحجز، حرس الباخرة سيسلّمونهما للشرطة، في أوّل مرفأ تقف فيه السفينة، الحادث لن يتكرّر، قل هذا عن لساني، وللجميع.

ـ ولماذا لا تقوله أنت؟

فكّر بدر وهو يأكل «سؤال محرج!» قال بعد لحظة:

ـ لأنّ حرس السفينة سبقني، أبلغَ تلك الفتاة التي حاول ألبرتو التحرّش بها.. ما اسمها؟

ـ هزار!

ـ أبلغ هزار، والآخرين أيضًا، ظنّي أنّهم يعرفون، جميعًا، ما قلته لك، المهمّ أن يقتنعوا، لا بدّ أن يقتنعوا وبالتجربة، غدًا أو بعده، لديهم الوقت، مدّة الرّحلة شهر كامل، سيملّون إذا لم يتسلّوا، ويتعارفوا، ويختلطوا مع الآخرين!

سأل ناصر:

ـ حتّى الأجانب!؟

ـ لا أقصد الأجانب بالتحديد.. هذه باخرة ركّاب، وفي كلّ مرفأ ترسو فيه، يطلع ناس وينزل ناس، وبينهم عرب طبعًا،

من المغرب والمشرق، ثمّ هناك، بين الأجانب، نساء وأطفال، العِشْرة طيّبة، الركّاب يتعاشرون، ونحن، كلبنانيّين، نعرف اللّغات الأجنبيّة، وبعضنا يتقنها، أيّ لغة تتقن أنت؟

ـ الفرنسيّة، والإنكليزيّة قليلاً . .

ـ وأختك؟

ـ الفرنسيّة طبعًا، إنّها خرِّيجة قسم الجغرافيا، من الجامعة اللّبنانيّة، وتعرف الإنكليزيّة، وكانت معي في الكافتيريا، عندما وقع الحادث، وقد خافت كثيرًا، وخاصّة عليك، لأنّ ذلك الإيطاليّ السكران، سحب السكّين علينا، قبل أن تنتزعها منه. . بحركة بارعة!

ضحك بدر وقال:

ـ هكذا إذن! خفتم عليّ؟ تجريد ألبرتو من السكّين كان عاديًّا، تعلّمنا كلّ حركات المقاومة في الكلّيَّة البحريّة، درسناها كإحدى الموادّ المقرّرة، هذا ضروريّ جدًّا لمن يعمل في البحر، المسألة بسيطة!

ـ لكنّها خطرة رغم بساطتها، ما أدراك أنّ ألبرتو لا يتقن الحركات نفسها، قد يكون بحّارًا مثلك!

ـ هذا جائز، لكنّ الذي يحذر الخطر كثيرًا قد يقع فيه، وعندئذ؟ إسمع يا ناصر. . هزار ومن معها حسبوني إنكليزيًّا، لأنّ ألبرتو قال ذلك، لا تقل لهم إنّني عربيّ، ومن لبنان، وفي الرّحلة نفسها، هذا لا يقدّم ولا يؤخّر.

ـ كيف لا يقدّم ولا يؤخّر؟ تريد أن تبقى مجهولاً وغامضًا؟ قلت لهم كلّ شيء، وقد سرّهم ذلك، أم تريد أن تعاشر

الأجانب فقط، حتّى لا نضايقك؟ الشجرة تتباهى بأغصانها، كما يقول المثل، ولويزا تلك، بلعت لسانها، عندما عرفت أنّك قبطان سابق.. وعلى فوقة، هل تريد العودة إلى البحر؟ وهل تبحث عن عمل، في هذه الرّحلة؟
ضحك بدر وقال:

ـ تريد أن تعرف كلّ شيء، ومن اليوم الأوّل!؟
نهض عن الطاولة وأضاف:

ـ إرجع إلى قمرتك، قد تكون أختك بانتظارك، وهي قلقة عليك! لا تتأخّر عليها، حين لا تكون معك، وخاصّة في اللّيل!!

افترقا. قال ناصر في سرّه، وهو يتابع صعود بدر على السلّم إلى السطح:

ـ «يرسلني إلى النوم، كأنّني طفل يخاف عليه من الضياع! بينما يذهب هو إلى السهر، مع تلك الأجنبيّة التي كانت تسكر معه!! ومن يدري!؟ طيّب! ستكون لي صديقة، أنا الآخر، وعلى هذه الباخرة، وعندها يصبح للرحلة معنى، ومتعة أيضًا، لقد جرّبت، رغم صغر سنّي، ومع امرأة تكبرني.. آه ما ألذّ تلك اللّحظة، عندما..».
وهبط السلالم، إلى الطابق الثالث، مسرعًا.

ـ ٥ ـ

على السفن، في اللّيالي، خاصّة في أشهر الصيف اللاّهبة، يحلو السهر لمن اعتاده. . السهر في وقت متأخّر، حيث لا أحد يعكّر صفو الإنسان، لا أحد يقطع عليه حديثه، مع الطبيعة من حوله، أو بينه وبين نفسه. البحر يتكلّم، الفضاء يتكلّم، النجوم النائسة في السماء، تقول لمن يعرفها، لمن يفهم عليها، بحكم الصحبة الطويلة، أشياء موحية، ساحرة في إيحائها، غريبة، مبثوثة في الأثير، تلتقطها الأذنان المدرّبتان، اللّتان، من رهافة الإحساس، تسمعان ما لا يسمعه الآخرون، الذين على اليابسة، وحتّى في البحر، المشغولون بأمور الدنيا، وما فيها من نعيم أو شقاء. البحّار، ليس أيّ بحّار، المولع بالسهر، وبالنجوى، وبالتأمّل، واللّعب مع الذكريات، وحده يُحسن الإصغاء، والبوح، والفهم، في اللّيالي التي يكون فيها بغير عمل، خارج المهمّات المكلّف بها، خارج حسابات متى أبحر، ومتى يصل، ومتى يتسنّى له، في أيّما مرفأ، أن يجد خمّارة وامرأة.

بدر، بحكم مهنته كقبطان، أدمن السهر. القبطان ينام نهارًا، موكلاً مهمّة القيادة لمعاونه، لكنّه يظلّ، حتّى في نومه،

متوجّسًا، لأنّه المسؤول، أوّلاً وأخيرًا. اللّيلة، لا باخرة ولا قيادة، ولا مسؤوليّة من أيّ نوع، إلاّ أنّ بدر لا يؤاتيه النوم، إلاّ عند الفجر، وفي وسعه، إذا استطاع، أن ينام إلى الظهر، إلاّ أنّه يكون في حال جيّدة، إذا نام إلى الضحى، وهذا ما يأمله، في مجلسه عند مقدّمة السفينة، حيث اختار أن يرتاح، في وحدته، بعد أن افترق عن ناصر، وبقي مع البحر، والفضاء، والنجوم، يسألها، باللّغة التي لا لغة: «ما المصير، وإلى أين.. من هنا!؟» إنّه يعرف، ككلّ إنسان، من أين أتى، لكنّه، ككلّ إنسان، لا يعرف إلى أين يمضي، ومتى يعود، من جديد، إلى مهنته، بعد أن ساءت سمعته، وفكّر جدّيًا أن يترك البحر، باحثًا عن عمل آخر، في لبنان أو غيره، لولا أنّ البحر يعزّ عليه، كنور عينيه، وخارج محيطه، يحسّ بالغربة، وبعدم التلاؤم، ويصبح عصبيًّا، لا يحتمل!

هدوء، سكينة، جوّ مألوف، حبيب، يمتزج فيه بدر كما الخمر بالماء، وإلى أعلى سماء صافية، ومن حواليه فضاء، وارتطام موج، على وهن، صوته نغمة مموسقة، وكلام صامت، يقول له: «أنت حيث يجب أن تكون.. وحيث يجب أن تبقى.. أنت ابن البحر، كما قلت صباح اليوم، والبحر يحبّ أبناءه، يحبّك يا بدر، ولن يتخلّى عنك، رغم تلك اللّعبة الصغيرة، الماكرة، هناك، في البحر الأحمر، التي هي بمثابة اختبار، امتحان، فالمؤمن ممتحن، والبحّار كذلك، وفي كلّ وقت!»

تمدّد بدر في جلسته، استرخى، تأمّل الوجود، تذكّر جان التي ترسم في قمرتها الخاصّة، إذا لم يحرقها البوكر المكشوف، وناصر الطُّلْعة، الذي يندفع كشابّ مراهق،

يكتشف الأشياء بدهشة، يحاول أن يعرف كلّ شيء، وبعجلة، وهزار التي «هزّ بدنها!» ذلك الألبرتو المخمور، وربّما أصابها برجّة عصبيّة، وغيداء الجميلة، ملكة جمال الجامعة، يوم كانا، في الماضي البعيد، في كلّيّة الآداب، وكان يسبقها بصفّ، وتخرّج قبلها، لكنّه، دون أن يقترب منها، دون أن يتظرّف أمامها، ودون أن يتملّقها بامتداح جمالها كالآخرين، أُعجب بها، وظلّ على إعجابه هذا، سنين طويلة، طويلة جدًّا، وكلّما رآها، في أيّما مناسبة، وبعد أيّ غيبة أو سفر، يرى إليها من بعيد، مكرّرًا لازمته: «هذه المرأة ستكون لي!» لكنّ غيداء لم تكن له، وهو لم ييأس، لم يتعجّل، لم ينفد صبره، لم يندفع إليها، وحتّى لم يتعرّف عليها، مع أنّ ذلك كان متاحًا، بعد تخرّجه من كلّيّة الآداب ولقاءاته المتعدّدة بها، كلّ عام، عامين، ثلاثة، خمسة، أو عشرة، قبل أن تتزوّج، وبعد أن تزوّجت، لأنّه واثق بما يحدس، إلى حدّ اليقين، وحدسه هذا، لو فكّر فيه جيّدًا لضحك على نفسه، وأدرك أنّه وهم، وأنّه سراب، يتعلّل بمائه الخلبيّ، وأنّه يستحقّ الإشفاق، هو وحدسه وسرابه، وأنّ الثقة، في أحيان كثيرة، لا ثقة، إذا ما أفرط بها صاحبها، فثمّة ممكن وغير ممكن، معقول وغير معقول، والعبثيّة، بعد، ليست هراء كلّها، وانتظار غودو الذي لا يأتي، كانتظاره هو، تمظهرٌ فاقع لعبثيّة واضحة، يَحسن به أن يفطن إليها، وأن يحسمها، بالاقتراب من غيداء نهائيًّا، ومهما لاقى من صدّ أو عنت، أو الابتعاد عنها، نهائيًّا أيضًا، ونسيانها، فالرّمل المبلول لا يعجن، وعليه، هو بدر، أن يقلع عن عجن هذا الرّمل، بعد هذا الزمن الطويل، وبعد بلوغه

الثانية والأربعين، وبلوغ غيداء قياسًا على زمن الدراسة، الأربعين ونيفًا، وبعد أن مات زوجها بحادث سيّارة، فترمّلت، مرتدية الأثواب السود حزنًا، ثمّ تخلّيها عنها، إلى أثواب الموضة، بكلّ صرخاتها، بعد أن انتهى الحزن، لأنّ السواد، والبكاء، والانزواء، لا تُرجِع ميتًا، وهذا ما يتّفق عليه كلّ الناس، كما يتّفقون على أنّ الأحياء أولى من الأموات، وأنّ الحياة حقّ، كما هو الموت حقّ!

استعراض! شريط الذكريات يكرّ، وفي استعراض الذكريات، يكثّف شريط الزمن، وقائع العمر في ساعات، وأحيانًا في دقائق، والمستعرض أحداث عمره، يخرج بالحسرة غالبًا، فالمرء يتحسّر، دائمًا، على الذي مضى، وهذا لا يعود، إذن قبض الرّيح، ومن عجب أنّ البشر، لا يكفّون عن قبض الرِّيح، لأنّهم لا يكفّون عن التذكّر، إلاّ القلّة منهم، وإغراء التذكّر مغناطيسيّ الجذب، ومن يقوى، أو يمتنع، على الانجذاب، ذي اللّذة البالغة؟ من ينجو، بوعي أو غيره، من هذا الافتتان العبثيّ، الذي يمارسه لأنّه سائغ في عبثيّته؟ لا أحد، غالبًا، وقد مارس بدر، في سهره المتوحّد، هذا الافتتان، خارجًا بنتيجة طالما خرج بها: الإصرار على أنّ غيداء ستكون له! وثوق! بحث ملتبس! لا هو عن الحبّ، رغم قصديّته المضمرة، ولا هو عن تحقّق هذا الوثوق، رغم قصديّته المضمرة أيضًا، فماذا، في تلافيف ذلك المخّ المعذّب؟ «ماذا يا بدر، وراء هذا التفكير الاستعراضيّ، سوى هذا التفكير الاستعراضيّ، لذاته؟ هل تحبّ غيداء أم تشتهيها؟ أم تحبّ نفسك في الاثنين، في أسرار تخشى أن يُستعلن؟ العند،

أحيانًا، مضيعة للرّجال، وأنت رجل في استواء الرّجولة، تضيّع نفسك في هذا العند، الذي لا طائل تحته، سوى إثبات الذكورة!»

انتفض بدر، وهتف في ذاته: «لا! لا! لست بالعنيد، ولا الضائع، ولا الحامل عقليّة ذكوريّة، فأنا أحترم المرأة، أدعو لمساواتها بالرّجل، أقدّر كفاءاتها.. لكنّني.. لكنّني.. واثق، إلى أن يخونني وثوقي، وهذا لن يحدث، حدسي لا يخيب: هذه المرأة ستكون لي، معنى هذا أنّها ستكون لي، ولو كنّا معًا، على حافة القبر!»

نظر في ساعته فإذا هي الثانية بعد منتصف اللّيل. هناك، في ضوء القمر، بعض المسافرين بعد، حول المسبح. أزواج أو عشّاق! «إنهم يستمتعون بوقتهم على نحو جيّد، في هذه الرّحلة الممتعة، بالنّسبة لمن له زوجة أو صديقة» مرّ بهم في طريقه إلى مؤخّرة السفينة، حيث سيُلقي نظرة على البحر، من وراء. عرف من أصواتهم أنّهم أجانب. كانوا في الشورتات. شابّ وشابّة يتعانقان، يقبّل أحدهما الآخر في فمه، يضحكان، لا أحد منهم يتدخّل في شأن الآخر، رجل وامرأة، متقدّمان في السنّ، يتخاصران، لماذا لا؟ المداعبة شكل عمليّ من الغزل، التهيئة لممارسة الحبّ ضروريّة، هذا من الثقافة الجنسيّة، ومن التحضّر أيضًا.. المرأة التي يطبّ عليها زوجها، خبط لزق، تعيسة، وغالبًا لا تصل معه إلى الانتشاء الكامل، تكرهه، تتعذّب معه.. بعض الممارسة، في هذه الحال، عذاب، المرأة في الأوساط الفقيرة، وكذلك الجاهلة، في الشرق، تتعذّب، لشعورها بأنّها واسطة إنجاب، آلة تفريخ لا أكثر!

رأى بدر، وبدهشة، رجلاً يجلس وحيدًا، عند مؤخّرة الباخرة، يشرب من زجاجة معه عرقًا. ابتسم بدر عندما شمّ رائحة العرق. «إنّه من عندنا، هذا المواطن الصالح والأصيل، ومن الطبيعيّ أن يكون وحده، مثلي أنا، لكن لماذا يشرب هنا وليس في قمرته، ومن الزجاجة مباشرة؟» سأل:

ـ من أنت؟

التفت الرّجل إلى بدر، تفاجأ به لكونه عربيًّا مثله، وفي مثل هذا الوقت! كان شابًّا، منتشيًا، ظريفًا، قال:

ـ تعال واجلس إلى جانبي، ونتونّس معًا! أنا، محسوبك، صطيف القمطي، لقبي التحّ، باختصار.. من أنت؟

ـ بدر الزرقا!

ـ أهلاً وسهلاً، تشرّفنا!

ـ لماذا تجلس على الأرض؟

ـ جلسة كيف!

ـ تدخّن الحشيش؟

ـ عيب! أدخّن «اللّوكي»، تفضّل، شاركني الخبز والملح!

ـ وأين الخبز والملح!؟

ـ في هذه القنّينة!

اقتعد بدر سطح السفينة، مدّ رجليه، تأمّل التحّ بنظرة جانبيّة، فكّر بزجاجة العرق، هذه التي، بالنّسبة إلى هذا الشابّ «الخبز والملح»، في تعبير بسيط، طريف، فيه نكهة «ابن البلد»، اللّبنانيّ المغامر، منذ الهجرة الأولى، قبل قرن أو أكثر، إلى عالم المغترب، الذي لم يكن، في البدء، يعرف عنه شيئًا، ومع ذلك تقحّمه دون خوف من ضياع، اعتقادًا، ربّما،

أنّ اللّبنانيّ لا يضيع، وأنّه مستنبت رزقه، حتّى من التراب، كما كان، قبل الهجرة، يستنبت رزقه من الصخر.

قال التحّ:

- بماذا تفكّر؟ ساعة لك، وساعة لربّك، والدنيا واسعة، بحر! هل هناك أوسع من البحر!؟ خذ لك بلعة، لأجل الخبز والملح!

أخذ بدر الزجاجة، كانت نصّيَّة، عرقها ممزوج بالماء، رفعها إلى فمه، جرع جرعة، لذّه الأبيض السّائل حليبًا فيها، تناول حبّات من القضامة، أخرجها التحّ من جيب قميصه، وقدّمها له، وهو يقول:

- إلى أين، بالسّلامة؟
- إلى البحر!
- وبعد البحر؟
- إلى البحر أيضًا!
- هل هذه حزّورة؟ كيف إلى البحر، ومن البحر إلى البحر!؟ فهّمني بالقلم العريض، أنا حمار، حاشاك! والحمار، أحيانًا، يفهم أكثر، نزهة أم شغلة!؟ وبماذا؟ اِحكِ بصراحة، صار بيننا خبز وملح، لا تخف! كلّ عقدة ولها حلاّل، اعتمد عليّ! البحر في جيبي! نعم! البحر في جيبي، والمعنى بقلب الشاعر!

قال بدر ضاحكًا:

- والباخرة؟ في جيبك أيضًا؟
- وهذه في جيبي، هي ومن عليها، وحتّى القبطان نفسه!

تحسبني هيّنًا؟ أنا التحّ، إِسأل «بور» بيروت عنّي، دوّخت الجميع، من الذنب إلى الرأس، إلى الذي فوق فوق!

ـ ما شاء الله يا تحّ، أنت، يخزي العين، شمشون زمانك! من بيروت؟

ـ من قلب بيروت! محسوبك من «البسطا الفوقا»، قل التحّ، يقولوا: على العين والرأس! خذ بلعة ثانية.. إِشرب يا بني آدم، نحن في رحلة!

ـ أنت من جماعة الرّحلة؟

ـ وأنت، بلا صغرة!؟

ـ منهم! لكنّني لا أعرف إلاَّ القليلين فيهم، أنا من كسروان، غريب بينهم، تقريبًا!

ـ وصلت إذن، التحّ يعرفهم، كبارًا وصغارًا، عاجنهم وخابزهم، إذا تزعرن أحد عليك خبّرني! أنا في العنبر، مع الدراويش، مع الرّجال! اطلبني تجدني، على شرط! أن تطيعني! الذي يخالفني أخرب بيته، إيدك والبحر.. ماذا قلت؟

ـ كفى ما شربت! اِذهب إلى النوم ومن غير ثرثرة.. هذه سفينة، لا مرفأ! فهمت!؟

ضحك التحّ وهو يتلوّى. فنجر عينيه، رفع يده وهو يصرخ:

ـ ومن أنت، يا عرص، حتّى تأمرني؟

أمسك بدر بيده وأنزلها بهدوء، لكن بقوّة، رفعه من تحت إبطيه، تهاوى التحّ، كخرقة مبلّلة، حاول المقاومة فلم يفلح، قبض بدر على رقبته، ساقه أمامه إلى السلّم، ساعده على النزول، مغلقًا فمه، حتّى لا يصرخ فتحدث فضيحة، وفي العنبر

طرحه على سريره، وردّ على رجل مجاور له، استيقظ وسأل:

ـ ماذا جرى؟ ما له التحّ؟

ـ لا شيء! إنّه سكران جدًّا، دعه ينم.

ـ ومن أنت؟

ـ رجل من الرّحلة؟

قال الرّجل:

ـ يخرب بيتك يا تحّ! فضيحة؟ ومن أوّل ليلة؟ الله يجزيك الخير يا بيّي؟ أنت مشكور! لولاك بهدلنا ابن الكلب هذا، أوصيته لا تشرب أكثر ممّا تتحمّل، لا تتزقّم، لكن بلا فائدة، غدًا، بعد أن يصحو، شف شغلك معه، أدّبه، اضربه كرامة للنبيّ، حتّى لا يعود لمثلها، هذا العكروت الذي لا أمان له.

قال بدر وهو ينفض الغبار عن ثيابه ويديه:

ـ السكر، حتّى على الباخرة، لا يؤاخذ عليه، إذا لم يقع حادث.. من الخير أنّه وقع في يدي، لا في أيدي حرّاس الباخرة! في الأوّل حسبته إنسانًا ظريفًا، لكنّه عندما بدأ يخلط عبّاسًا بدبّاس، ويتمرجل، ويتواقح حتّى عليّ، وجدت من الأفضل أن أجرّه إلى سريره، وبلا فضائح، نحن بغنى عنها كلبنانيّين في رحلة، ومعنا نساء وأطفال، وهناك أجانب، في باخرة ركّاب محترمة.. تصبح على خير!

ـ وأنت من أهله، لكنّني لم أتشرّف بالمعرفة.

ـ هذا لا يهم!

على السلالم، وهو يصعد إلى قمرته، قال بدر: «حلو!

حادثان، وفي يوم واحد؟ ومع من؟ مع لبنانيّين، اعتذر الحرس لهم، لأنّ ذلك الألبرتو الكلح، حاول التحرّش بفتاة منهم، فقبضوا عليه واحتجزوه، ومن يعرف، لولا المصادفة، ما كان سيعمله التحّ، هذا الذي، خبزه وملحه هو العرق، وهو جرو مرافئ، فشّار، يحسب نفسه في «البسطا الفوقا» والله يعلم لماذا حشر نفسه في هذه الرحلة، وما هي غايته، وإلى أين يقصد!»

أضاف بدر وهو ينفخ على وسادته «وأنا؟ ما علاقتي أنا؟ خوفي على سمعة لبنان؟ في كلّ بلد بالوعة، ولبنان بالجملة! أم أنّ على رأسه خيمة؟ التحّ وأمثاله من إفرازات الحرب الأهليّة، الحرب التي باضت وفقّست صيصانًا من الشبّيحة، من المجرمين، ومن المدمنين، على المخدّرات وكلّ الموبقات! كان الله في عونك يا لبنان! يا وطني الجميل، الذي دمّرت الحرب الطائفيّة القذرة كلّ ما فيه، من شباب، وشابّات، ورجال، ونساء، ونفوس شوّهتها المليشيات، بسلاحها ومالها وقنصها وقتلها على الهويَّة، ومنازل وقصور وآثار، دمّرتها القذائف والصواريخ، وأرض حرقتها النيران، حرثتها القنابل، وسيّارات مفخّخة، انفجرت وفجّرت معها الأسواق ومن فيها من عباد الله، لا فرق بين أعزل أو مسلّح، بين مسالم أو إرهابيّ، بين شيخ أو طفل! ومن يعلم ما فعل التحّ وأمثاله خلال هذه الحرب الطويلة، ومن نهبوا، وما سرقوا، ومن أين لهم هذه الأموال، ينفقونها على السياحة، ويتمرجلون، حتّى في السّفر، حاسبين أنّهم يفعلون حيثما كانوا، ما فعلوه في لبنان، قبل أن يسوده الأمن، هذا الذي يبدو هشًّا، مهدّدًا، نسأل الله اللّطف به».

أغفى بدر لا يدري متى، غيظه انعكس كوابيس في منامه، أفاق مصدوعًا، الشابّ الفرنسيّ، الذي يسكن معه في قمرة واحدة، كان قد خرج، إنّه لا يراه، لا يعرف حتّى اسمه، لا يجده في القمرة إلاّ نائمًا، وفي وقت متأخر. هذا مريح بالنّسبة لبدر، يعطيه وقتًا للراحة، للتأمّل، للصمت الذي يحسّه، أحيانًا، نسفًا في عروقه، لطول ما اعتاد أن يبقى، في الإقلاع والرسوّ، وحيدًا، عازفًا عن المتع الرخيصة، المرغوبة من البحّار، كونها إحدى التسليات التي تطفئ الحرمان، في معاناته الطويلة بعيدًا عن اليابسة. القبطان، حتّى لو عانى، كالبحّار تمامًا، وربّما أشدّ، فإنّه ريّس، ومن واجبات رياسته، أن يبقى في الباخرة، وأن يستقبل بعض ممثّلي سلطات المرفأ، وأن يترفّع، على البرّ كما في البحر، عن الصغائر، وعن المزاح مع البحّارة، احتفاظًا بالهيبة التي يقرضها عتّ المزاح، مع الأيّام وبشكل خفيّ، فترتفع الكلفة، ويفقد الريّس قدرته على السيطرة، في مملكته الصغيرة.

هنا أيضًا، رغم أنّه في رحلة، بعيدًا عن كلّ مسؤوليّة، كان على بدر، بحكم التطبّع، أن ينأى بنفسه عن الدنايا، عن معاشرة من في الرحلة، ورفع الكلفة معهم، بخلاف مسلكه مع الأجانب، الذين يلقاهم بشكل عابر، ويقدّرون أنّه في إجازة، أو أنّه في عطالة، ومن الطبيعيّ، بالنّسبة إليهم، أن يتصرّف بحرّيّة، وأن يشرب ويمزح، إنّما دون سكر، دون تهالك، ومن غير ما يجرح مشاعره، أو مشاعر من يكون معهم، لا مجلبة للاحترام، بل لأنّ العادة، وهي طبيعة ثانية، تفرض هذا، تلقائيًّا، وكأنّ الممارسة، في البحر، هي ذاتها، في كلّ

الأحوال، وعلى كلّ السفن، وفي كلّ المرافئ، وبخاصّة الشجاعة، جوهر رياسة الريّس، وفق التشكّل النفسي، الذي لا بدّ أن يكونه، وأن يتصرّف بموجبه، وفي الحدود التي لا تخدش، بأيّ حال، الكرامة، أسّ الموقف الإنسانيّ، وبعامّة، لذلك فإنّ الغموض، البقاء على مسافة من كلّ راكب في الرّحلة، رجلاً كان أو امرأة، والذي لاحظه الفتى ناصر، فإنّه بعيد عن التصنّع، وعن التشوّف، وعن التدخّل في شؤون الغير، إلاّ عند الضرورة القصوى. «أمس تدخّلت مرّتين، في موقفين مختلفين، ضدّ ألبرتو والتحّ، اليوم غير الأمس، سأبقى بعيدًا، لأنّه ليس مطلوبًا أن أنوب عن حرس الباخرة، وكلمات قليلة، في وقتها، مع هذا التحّ، تكفي، إلاّ إذا اشتطّ، وعندئذ يكون لكلّ حادث حديث!»

أوّل ما فعله بدر، التدوّش بماء فاتر. ارتدى ثيابًا تناسب البحر، قصد الكافتيريا، تناول قهوة مع الحليب، الساعة الحادية عشرة، هذا وقت الاستيقاظ العادي، بعد سهر اللّيل، بصرف النظر كيف وأين، ومع الغيم الصباحيّ، على البحر، تصبح الجلسة ماتعة على سطح السفينة، إذا ما كان هناك كتاب جيّد، فيه متعة وفائدة. إنّه يقرأ الروايات البحريّة، يطالع كلّ ما يتعلّق بالبحر، كي يبقى في إطار اختصاصه، ويكون في صورة كلّ مكتشف جديد، له صلة بالبحر، ولشدّ ما يشعر بالأسى، حين يقرأ الكوارث البحريّة في الصحف، ويروح في تأمّل للظروف المحيطة بكلّ كارثة، وتحليل هذه الظروف، ومدى الخطأ والصواب، وأين مسؤوليّة القبطان، وكيف تصرّف، قبل الحادث أو بعده، والمكان البحريّ الذي وقع فيه الحادث،

وبأي شكل، لو كان هو القبطان الذي وقع معه الحادث، وبأيّة كيفيّة كان سيتصرّف، معطيًا للمفاجآت حقّها من التقدير، لأنّ هناك، دائمًا، ما هو خارج عن الإرادة، وعن الخبرة، والذكاء، وإلاّ لكانت الكوارث البحريّة، مثل الكوارث الجوِّيَّة، قد انتفت، فالطارئ، على جهاز القيادة، على آليّة وسيلة السفر، لا يمكن إخراجه من الحسبان، لأنّ الأعطال، لا حيلة معها، سواء كان قائد الباخرة أو الطائرة، مجرّبا جدًّا، وبارعًا جدًّا. «ما وقع معي أنا، في البحر الأحمر، كان خطأً كبيرًا، فالمدى مفتوح، رغم الظلام، ولوحة القيادة شغّالة، وبدقّة، وتجنّب الشعَب المرجانيَّة كان ممكنًا، في حالة واحدة: عدم الاطمئنان كلِّيًا للطريق البحري المطروق، وقياس الغاطس على أساس الارتفاع الأعلى، والدوران قليلاً، بعيدًا عن مناطق الخطر، ولو طال الطريق، وتأخّر الوصول عن التوقيت المحدّد له.. نصيب! صدق المثل: إذا وقع القدر عمي البصر، كان، ما جرى، قدري!»

الرصد الجوِّيّ، ليلة أمس، أشار إلى استمرار حالة البحر المستقرّة، لكنّ ريحًا مفاجئة هبّت في أواخر اللّيلة الفائتة، جعلت البحر مصطخبًا، والأمواج أعلى من المتوقّع، وهذا ما أدّى إلى ارتجاج السفينة، بأكثر من المعتاد، لذلك اضطربت أمعاء بعض الركّاب، من الذين لم يألفوا السفر في البحر، وأدّى الدُّوار المباغت إلى حالات مزعجة، من عدم التوازن، ومن الترجيع، واصفرار الوجوه، بالنّسبة لمن غادروا قمراتهم، كي يستنشقوا الهواء النقيّ على السطح، وهذا خطأ، والخطأ الأكبر، أنّهم كانوا ينظرون إلى وراء، ضدّ اتّجاه سير السفينة،

وهذا ما زاد في دَوَخان البعض، من أفراد مجموعة الرّحلة، وأغلبهم لا يعرف أصول التصرّف، في حالات كهذه.

ساعد بدر في تهدئة الاضطراب. وجد نورا مصفرّة الوجه، في حالة إعياء كامل، وكذلك ابنها الصغير أسامة. تقدّم وأمسك كلاً منهما بيد، وأخذهما إلى القمرة، ناصحًا بمصّ اللّيمون الحامض، أو أخذ بعض الحبوب. عاد إلى السطح، طالبًا إلى الآخرين النظر إلى أمام لا إلى وراء، قائلاً ليست عاصفة، إنّما ريح مباغتة، ستسكن بعد قليل، ومرّة أخرى رأى فتاة، في حالة ترنّح، صفراء الوجه، اسمها امتثال، تنظر إليه بتوسّل، كي يسندها لئلاّ تقع أرضًا. أمسكها من ذراعها، قال لها: «لا تخافي! استندي عليّ، اِمشي ببطء، لا تنظري إلى البحر، أو إلى وراء» وأوصلها، دون عناء، إلى سريرها في القمرة. بحّارة السفينة ساعدوا أيضًا. كان بعض الركّاب يتقيّأ أمعاءه، وبعضهم يتمسّك بما يصادفه، وآخرون، بينهم أجانب، نساء ورجال، أصيبوا بالدوار، لكنّ حالة الاستنفار لم تعلن في السفينة، لعدم الحاجة إليها، وكيلا يدبّ الذعر.. وحوالى بعد الظهر، بعد ساعات من الاضطراب، ومع اجتياز السفينة المصطخب النوئيّ، عاد الهدوء، استقرّت الحال، عولج من كان، أو كانت، بحاجة إلى معالجة، صبّت لويزا لعناتها على بدر «وجه الشؤم هذا، الذي تمنّى حدوث العاصفة ليتفرّج عليها، وها قد حدثت، فهل ارتاح، ابن الكلب هذا!؟» قال لها الذين حولها، في الطابق الثاني، وهم يمصّون اللّيمون الحامض، أو يأكلونه حتّى بقشره:

ــ اتّقي الله يا آنسة! كفّي عن السباب، هذا لا يليق!

صرخت بعصبيّة، وهي ترتجف:

ـ أنا لا يهمّني الذي يليق والذي لا يليق، لم يبق لديّ ولا ليمونة واحدة!

قدّم لها إبراهيم الشفّاط، وهو يطقطق بحبّات مسبحته ويتلو بعض الأدعيات، ليمونة وقال:

ـ خذي يا لويزا! اهدئي، هذه نويّة صغيرة وليست عاصفة!

رفضت اللّيمونة وهي تصيح:

ـ نويّة صغيرة!؟ كلّ هذا الذي جرى نويّة صغيرة؟ من قال هذا؟ ذلك الأحمق الذي يفهم بعلم الفَلَك، وبالأرصاد الجوِّيَّة أيضًا؟ لماذا لم يتنبّأ بما جرى، قبل وقوعه؟

ردّت السيّدة صبيحة الدعجاوي، صاحبة الحلقة الأدبيّة:

ـ البحر غدّار يا لويزا، من يستطيع أن يتنبّأ؟ مساء أمس، وبنفسي، سمعت النشرة الجوِّيَّة، وكانت تقول إنّ حالة البحر مستقرّة!

ـ تفشير!

قال عصام البُرُم، النحّات من البترون:

ـ الأرصاد الجوِّيَّة ليست تفشير.. احترمي نفسك يا آنسة!

زعقت لويزا:

ـ ومن أنت حتّى تعلّمني الاحترام؟ أنا أقصد أحد الدجّالين على هذه الباخرة! إنّه رقيع، سكّير، وأمس رأيته على البار، يفجر مع عاهرة أجنبيّة!

قال إبراهيم الشفّاط:

ـ أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق.. ترمي الرّجل بالفجور

ونحن لا نعرف عنه شيئًا؟

ـ أنا أعرف! إنّه لبنانيّ، فشّار وسافل!

قال ناصر الذي سمع الضجّة وجاء لتوّه:

ـ أنت الفشّارة يا لويزا! بدر إنسان محترم، وقد حدّثتك عنه!

ـ نعيمًا! صرت من أذنابه أيضًا!؟ سدّ بوزك! كلّ ما قلته عنه كذب في كذب!

ـ وأنت وحدك الصادقة يا جرباء؟ متى تبردين!؟

قال إبراهيم الشفّاط وهو يتمتم:

ـ هذا لا يجوز! الاستغابة حرام! نحن لا نعرف عن الرّجل أيّ شيء.

قالت هزار وهي تتكئ على باب قمرتها:

ـ دعونا نفهم! من تقصدون بكلّ هذا الكلام؟ إذا كان لبنانيًّا فهو منّا وفينا، ولا يجوز، يا لويزا، أن نتكلّم على شبح!

قال ناصر:

ـ هذا الشبح، يا آنسة هزار، هو من أدّب ذلك الإيطاليّ المخمور، الذي حاول التحرّش بنا، في الكافتيريا، وسحب السكّين علينا، واسمه ألبرتو!

قالت هزار:

ـ الذي أدّب ألبرتو رجل إنكليزيّ، وأنت الصادق!

ـ وإذا قلت لك إنّه لبنانيّ، وإنّه قبطان سابق!؟

قال إبراهيم الشفّاط:

ـ يا جماعة خلّونا نفهم بهدوء.. هل هو الرّجل نفسه الذي كان معنا صباح أمس على مقدّمة الباخرة؟

قال ناصر:

ـ هو نفسه يا عمّ إبراهيم!

قال العمّ إبراهيم:

ـ والله نظرتي في الرّجال لا تخيب! قلت في نفسي، عندما تكلّم عن البحر، هذا الشابّ ابن بحر! لكنّ لويزا، سامحها الله، شتمته في وجهه وغيابه، مع أنّه قال أشياء في محلّها، أشياء موزونة تمامًا!

قال رجل قصير، ضخم الرّأس:

ـ أنا عرفته الآن.. أمس، بعد نصف اللّيل، لمَّ التحّ السكران عن ظهر الباخرة، وأوصله إلى سريره في العنبر، ولولا ذلك لحدثت فضيحة! لكنّ ابن الأوادم هذا، رفض أن يعرّفني بحاله!

قال عصام البُرُم:

ـ والله إنّه ابن حلال.. لكنّنا لا نعرفه، تصوّروا!

قالت السيّدة صبيحة الدعجاوي:

ـ لا بدّ من لقاء تعارف! نحن كلّنا من لبنان، وفي رحلة واحدة، ولا يعرف واحدنا الآخر! هذا لا يجوز.. ما رأيك يا عمّ إبراهيم، أنت الكبير، بالقدر، بيننا؟

قال إبراهيم الشفّاط:

ـ أنا من رأيك يا سيّدة صبيحة.. التعارف ضروريّ، والتزام السلوك الحسن ضروريّ، وما جرى في الكافتيريا أمس بليّة، وسُكْر وعربدة التحّ بليّة أكبر! تذكّروا أنّنا من لبنان..

أكمل عصام البُرُم:

ـ ومن بلد الأرزة، والإشعاع، والجبل المُلْهم..

في هذه اللّحظة قُرع جرس الغداء، فقال إبراهيم الشفّاط:

ـ تفضّلوا على الغداء.. قَرْع الجرس معناه أنّ كلّ شيء رجع إلى مكانه، وأنّ الفرتونة انتهت، والرحلة ميسّرة بإذن الله.

- ٦ -

لم يكن المطعم، على مثل الازحام الذي كان عليه في غداء أمس. نصف الموائد ظلّت فارغة، فالدُّوار، والقيء، واضطراب الأمعاء، والتوعّك، أصاب العدد الأكبر من الركّاب، وحتّى الذين ظلّوا في قمراتهم، وأسرّتهم، لم يسلموا من نتائج النويّة، رغم أنّها عابرة. وكانت غيداء من الذين تأذّوا، ولم يفلح اللّيمون الحامض، والإسبرين، والمهدّئات، في تحسّن حالتها الصحّيّة، بخلاف هزار، التي تسكن معها في القمرة نفسها، والتي فقدت شهيّتها إلى الطعام، وظلّت تلازمها، إلى أن كان العصر، وأفاقت غيداء من نوم عميق، نافع، أزال بعض توعّكها، فأصبحت قادرة على الجلوس في سريرها، وتناول بعض الحساء الحارّ، وبعض الخضار المسلوقة، التي طلبتها هي وهزار، فأُحضرت لهما إلى القمرة، مع قهوة وحليب، ترشّفتاهما ممزوجين، وهما تضحكان على نفسيهما من الذعر الذي أصابهما.

سألت غيداء:

- سمعت، بين النائمة والصاحية، أصوات الذين كانوا متجمّعين في الممرّ، قرب القمرة، فماذا كانوا يقولون؟

ـ أشياء لا تضرّ ولا تنفع، لولا انفعال لويزا، وشتائمها وهي تصرخ، بشكل هستيريّ!

ـ شتائم لمن؟

ـ لرجل شبح، دار الكلام حوله، دون أن يعرفه أحد!

قالت غيداء باهتمام وخوف:

ـ أنا لا أصدّق! هذه هلْوَسة لويزا!

ـ وهلْوَستنا كلّنا! لم يفهم أحد على الآخر، كانوا يتكلّمون كلّهم، دفعة واحدة!

ـ ولماذا تجمّعوا هنا، في الممرّ؟

ـ لأنّ بعضهم يسكن هنا، في الطابق الثاني، والآخرون تجمّعوا ليعرفوا ما الخبر!

ـ وعرفوا!؟

ـ ما يدريني؟ خرجت من القمرة على أصواتهم، ولم أفهم سوى أنّ هناك رجلاً لبنانيًا، يدّعي أنّه يفهم بالفَلَك، وبالأرصاد الجوِّيَّة، وقد تمنّى، أمس صباحًا، أن تحدث عاصفة، ليتفرّج عليها، لذلك نقمت عليه لويزا، بينما سخر هو منها، وهذا ما أهاجها، فزعمت أنّها رأته على البار، يشرب مع سيّدة أجنبيّة، بصورة فاجرة!

ـ كيف على البار وبصورة فاجرة؟ ما اسمه؟

ـ لا أحد يعرف، سوى فتى مراهق، قال إنّ هذا الرّجل قبطان سابق.. وكان متحمّسًا له، يدافع عنه، ويردّ على لويزا بمفرداتها السوقيّة نفسها، وقد اختلف الكلام حول هذا الرّجل المجهول، خاصّة وأنّه لبنانيّ، لذلك اقترحت سيّدة من الحاضرين، أن يكون هناك لقاء تعارف، بين المشتركين

بالرّحلة، ووافق على ذلك رجل محترم، متديّن، نسيت اسمه.

ـ متى سيتمّ هذا اللّقاء؟ وأين؟ وهل سيحضره ذلك الرّجل المجهول؟ أرغب، إذا ما تمّ مثل هذا اللّقاء، بحضوره، لرؤية هذا الذي يتحدّثون عنه، ويختلفون حوله.

قالت هزار:

ـ المحجوب مرغوب.. هل هذا سرّ اهتمامك به؟ اسمعي أيضًا! يدّعي ذلك الفتى ناصر، أنّ الذي تصدّى للإيطالي ألبرتو، وأسقط السكّين من يده، هو هذا الرّجل المجهول، الذي حسبناه إنكليزيًّا، وهو لبناني، منّا وفينا كما قال.

قالت غيداء:

ـ ولكنّه لم ينطق بكلمة عربيّة واحدة، ولم يلتفت إلينا، خلال وجودنا في الكافتيريا، أو بعد خروجنا منها إثر الحادث، فهل يعقل أن يكون لبنانيًّا، ولا يتكلّم معنا!؟ أستبعد!

ـ وأنا مثلك، لكنّني أقول ما سمعت.. يبدو أنّ ناصر يعرفه، ويعرفه أيضًا رجل آخر، بسطاوي، قال إنّ الرّجل المجهول، لمّ سكّيرًا معنا في الرّحلة، اسمه غريب، وأتى به بعد منتصف اللّيل إلى سريره في العنبر، ولولا ذلك لحدثت فضيحة!

ضحكت غيداء وقالت:

ـ خرافات! قصص بوليسيّة لا أكثر! ومع ذلك فإنّنا هنا كالأطرش في الزفّة، يجري كلّ هذا ولا نعرف به؟

قالت هزار وهي تغمز بعينها:

ـ وهل لديك وقت، يا ملكة الجمال السابقة، لتعرفي ما يجري، والمعجبون حولك كثر؟

ـ أنا ملكة جمال سابقة ولاحقة، وبرغمك، أمّا المعجبون فإنّهم مسلّون، يتمدّحون، يتملّقون، يقولون أشياء غبيّة، وأخرى طريفة، وقد عرفت، في حياتي، الكثير من أمثالهم، وضحكت عليهم في سرّي، لماذا ينفع أمثال هؤلاء المملّين؟

ـ للزواج!

ـ يفتح الله! تزوّجت مرّة، وأنجبت، وكفاها المولى!

ابتسمت هزار بخبث وقالت:

ـ عليّ أنا؟ أعرفك أكثر ممّا تعرفين نفسك! هذه الفَرَس لم تجد خيّالها بعد!

ـ لا خيّال بعد زوجي المرحوم.. جرّبت حظّي وانتهى الأمر.. من يستبدل غزاله بقرد؟ كلّ الذين عرفتهم، بعد زوجي، قرود!!

ـ لكنّ بعضهم ينفع لتسلية عابرة!

ـ فشرتِ!!

ـ إذن أنا ذاهبة.. تعرفينني مغامرة، وأحبّ المغامرين، وإذا صادفت ذلك الشبح لن أتأخّر عن معرفة سرّه.. وقد ينفتح له قلبي، وعندئذ تصبح رحلتي شكلاً آخر!

ـ وإذا كان من مصّاصي الدّماء؟

ـ يكون أفضل.. الدم يحتاج إلى فصد! بايْ!

قالت هزار ذلك وخرجت، أغلقت الباب وراءها، صعدت السلالم كقطّة، اتّجهت إلى البار فلم تجد الرّجل الذي تبحث

عنه، دخلت الكافتيريا فلم تعثر له على أثر، تنزّهت على السطح فلم تلمح من يشبهه، صورته لم تكن واضحة في ذهنها، كلّ ما بقي منه في ذاكرتها: وجهه الحنطيّ، الطولانيّ، قسماته القاسية، قامته الطويلة قليلاً، الضامرة بغير نحف، كأنّه رياضيّ، وشعره الرماديّ السبليّ، مع غرّة في مقدّمة الرّأس، فوق الجبين تمامًا.. وكلماته الإنكليزيّة بغير لكنة، وهذا ما جعل ألبرتو يحسبه إنكليزيًّا، لذلك لم تهتمّ به هزار، ولم ترجع إلى الكافتيريا لتراه، وتشكره على موقفه النبيل والشجاع.

قرب المسبح، صادفت هزار ناصر ومعه فتاة. اقتربت منهما، حيّتهما، قال ناصر معرّفًا:

ـ شقيقتي عفراء.

ـ تشرّفنا، أنا هزار.

ـ هل هناك من تبحثين عنه؟

ـ لا! أتنزّه فقط!

ـ الطقس جميل، بعد تلك الفرتونة، ما رأيك أن نتمشّى معًا على السطح، وأن نتسلّى؟

ـ ولماذا لا تسبح؟

ـ أبحث عن شخص.

ـ صديقك؟

ـ صديقي، ومن لبنان، ومعنا في الرّحلة.

قالت هزار، في محاولة استدراج:

ـ كنت على حقّ، وموفّقًا في الردّ على سفاهات لويزا!

ـ هذه القفّة من عظام وأعصاب؟ هدّدتها بإلقائها في البحر،

إذا استمرّت في التطاول على بدر الزرقا!

ـ ومن يكون لك بدر الزرقا هذا؟

ـ أحد المعارف!

ـ كنت تدافع عنه بحماسة أمام وقاحة لويزا!

قالت عفراء:

ـ ناصر لا يسكت على وحدة! بدر أصبح مَثَله الأعلى! حتّى مع فارق العمر! يقول إنّه، بعد الحصول على البكالوريا، القسم الثاني، سيلتحق بالكلِّيَّة البحريَّة في أثينا، ليتخرّج منها برتبة قبطان، مثل بدر!

ـ وما رأيك أنتِ؟

ـ الرأي رأي ناصر، لكنّني، أنا، غير موافقة، ناصر لا يصلح للبحر، ولشغلة قبطان.. إنّه عصبيّ جدًّا، والقبطان يحتاج إلى دم بارد.

نبر ناصر:

ـ وما أدراك أنتِ؟ الكلِّيَّة تعلّم أصول القيادة، والبحر يعلّم الصبر.. أعرف طريقي، وقد اخترت، وقرّرت!

ـ ورأي الوالدين؟

ـ على رأسي، لكنّ المصير، بالنتيجة، مصيري!

قالت هزار ضاحكة:

ـ هل هذا من تحريض بدر!؟

ـ قولي القبطان بدر!

ـ وما الفرق؟

ـ اللّقب العلميّ! القبطان ريّس، ومقام الريّس كبير! هناك

أصول!

قالت عفراء وهم يتقدّمون نحو جؤجؤ السفينة:

ـ ناصر هكذا دائمًا، يشتعل مثل القشّ، ومثله ينطفئ بسرعة! وما أعجبه ببدر هو غرابته!

قال ناصر:

ـ وأفكاره أيضًا! وكذلك شجاعته!

سألت هزار، كأنّها باحثة اجتماعيّة، أو صحفيّة تجمع معلومات:

ـ وكيف عرفت أفكاره؟ وأين رأيت شجاعته؟ على البار!؟

نبر ناصر:

ـ نعم على البار! أنت آخر من يحقّ له أن يسخر، عدم المؤاخذة! لولاه، أمس، في الكافتيريا..

قالت هزار مستفزّة:

ـ لا تصدّق يا ناصر كلّ ما تسمع؟

ـ كلّ ما أسمع!؟ ما شاء الله! كأنّ الحادث وقع مع لويزا وليس معك!

ـ الذي أوقف ألبرتو عند حدّه، هو ذلك الرّجل الإنكليزيّ!

ـ ومن كذب عليك هذه الكذبة!؟

ـ هذه ليست كذبة! الحادث جرى معي، إذن أنا أعرف أكثر من الجميع.

ـ وإذا قلت لك إنّ معرفتكِ لا تسوى قشّة، وأنّك كنتِ، من الخوف، لا ترين ما أمامك، ومن حولك؟

ـ أنت كنت هناك إذن، فلماذا لم تدافع عنّي!؟

– تركت هذه المهمّة للذين كانوا معكِ، كي أرى شجاعتهم! قبضاياتك، هؤلاء، بالوا في سراويلهم، مع الاعتذار عن هذا التعبير.. ثمّ من تلك الغندورة، المتصابية، التي كانت معك؟

صاحت عفراء:

– عيب! ناصر! تأدّب في الحديث مع الغير، خاصّة النساء!

قال بحدّة:

– وإذا لم أتأدّب!؟ تحكمين عليّ بسدّ بوزي!؟ نعم! صديقة هزار بعمر القبطان بدر، تقريبًا، والذين حولها «قرطة» غلمان، هذي هي الحقيقة! وبدر استهان بهم جميعًا، شلّة المتزلّفين هؤلاء.. ولكن على أيّ شيء؟ ولمن؟ لامرأة كانت جميلة، قبل ربع قرن!؟

انكمشت هزار أمام هذا الهجوم العنيف.. قالت:

– على فرض أنّ بدر هو الذي تصدّى لذلك الإيطاليّ، فإنّ ما فعله ليس لأجلنا، نحن اللبنانيّين مثله، بل لإظهار شجاعته أمام تلك الأجنبيّة التي كانت معه!

– وإذا قلت لك إنّ تلك السيّدة الأجنبيّة كانت قد ودّعته وانصرفت؟

– وهل كنت، أنت، تراقبهما حتّى تقدّم مثل هذه الشهادة المجروحة؟

أجاب ناصر بالحدّة نفسها:

– مثلما كنت أنتِ، يا آنستي الجميلة، تراقبين من حولك، وتقدّمين تحيّاتك الحارّة للسيّدة العزيزة التي كانت معك!

صاحت عفراء:

ـ كفى ناصر.. اعتذر للآنسة، أو أعتذر أنا نيابة عنك!

قالت هزار:

ـ لا داعي للاعتذار يا آنسة عفراء.. ناصر يلتهب، وهو معذور، لأنّ قبطانه ذاك، كان قبطانًا في يوم من الأيّام، وهو الآن يتسكّع على هذه الباخرة، كالغلمان الذين يعيّرنا بهم.. لكنّ قبطانك يا ناصر، ليس إلاّ متشرّدًا، كما قالت عنه لويزا!

أضافت هزار:

ـ على كلّ أنا سعيدة! تعارفنا، وتنزّهنا، وسنلتقي، فنحن في رحلة واحدة، والقبطان كلّف نفسه بحراستنا، فإذا رأيته بلّغه شكرنا.. وإعجابنا أيضًا!! إلى اللّقاء! حظّ طيّب يا عفراء!

قال ناصر:

ـ عفراء لا تبحث عن عريس!

قالت هزار:

ـ من يعلم!؟ البركة في قبطانك!

ـ قبطاني يحترم فارق السنّ!

ـ مثلك!؟

ـ ستعرفين الجواب عندما أتزوّج.

في الإياب، باتّجاه القمرة، لم تكن هزار مستاءة أو فرِحة. «لاذع في أجوبته هذا الناصر، وسليط اللّسان! أخته، عفراء، هادئة، دمثة، بخلافه تمامًا، ومن الصعب أن يعرف، من يكون معها، رأيها، تفكيرها، رغبتها، هوايتها، وهذا من المكر!

ناصر صفحة في دفتر حماسة، يقول كلّ ما في قلبه، دون تردّد، ودون احترام للآخر، للأخرى، ولكلّ من يكون معه، وله قدرة على السخرية، والاستغابة، وبكلمات مقذعة، وقحة، كأنّه ابن شارع وليس ابن مدرسة، ومن هذه الناحية، كفؤٌ للويزا، هذه الشتّامة، المهسترة، التي وصفها بأنّها «قفّة عظام وأعصاب!» وكان موفّقًا في هذا الوصف، لكنّه هاجم غيداء بغير حقّ، مع معرفته بأنّها صديقتي، صديقتي فقط، فأنا لست مثله، ذيلاً لها، كما هو ذيل لذلك القبطان السابق، المتشرّد، الشبح، الذي لا يعرف أحد أين يكون، ومع مَنْ، ولماذا جاء مع الرّحلة، ولماذا هو بعيد عن الجميع، مع أنّه لبنانيّ، يهوى الغرابة كما يبدو!؟»

كانت غيداء، في القمرة، تستريح، تطالع، تشرد، تتساءل: «أين ذهبت هذه المصروعة هزار؟ وكيف الوضع، فوق على السطح؟ ولماذا أنا تعبة، منزوية، على غير العادة؟ وذلك الرّجل المجهول، الشبح، هل هو لبنانيّ حقًّا؟ وهل هو قبطان سابق؟ ولماذا لا يختلط بنا؟ استعلاء؟ وعليّ أنا، غيداء؟ أمثاله يتمنّون ابتسامة منّي، كلمة، مجرّد تحيّة، ولو بهزّة رأس من بعيد، وهو يتقنزع، لمجرّد أنّه قبطان، ومن يعلم إذا كان صادقًا، وإذا كان مستقيمًا أم دجّالاً، أو مجرّد متشرّد، سكّير، ممّن يلعبون الكشاتبين، في خفّة نشّال!؟»

فُتح باب القمرة، أطلّت هزار، بدت ساكنة، متحفّظة، لم تسرع إلى غيداء، كما تفعل دائمًا، لم تحتضنها، لم تقبّلها، لم تجلس إلى جانبها، ولم تقل أيّ كلمة، كأنّ شيئًا ما بدّلها، أو كأنّها ليست هي، هزار التي تلمّ الأخبار، وتسرع بها إليها، وتندفع في سرد كلّ ما عندها، وهي، غيداء، تضحك، وتسرّ،

إذا ما كان الحديث عنها، وعن جمالها، وعن المعجبين بها! لذلك عادت إلى القراءة، كأنّما لا شيء يعنيها، أو يثير اهتمامها، ومسحة من عبوس على وجهها!

أخرجت هزار تفّاحة، قشّرتها، أكلتها على مهل، تناولت من جزدانها المرآة، راحت تتأمّل وجهها، تدعكه، تمسّد شعرها، ترتّب ياقة فستانها، وغيداء تراقبها خفية، متساءلة «ماذا جرى!» ممتنعةً عن مبادرتها بالكلام، في تجاهل زاد من حنق هزار التي قالت:

ـ الطقس حلو على السطح، يفرْفح القلب!

سألتها غيداء بعد أن أغلقت الكتاب:

ـ ولماذا لم يتفَرْفح قلبك إذن؟

ـ لأنّ بعض الناس لا يُعاشرون، والكلام معهم خسارة!

ـ ولماذا كلّمتهم إذن، وقضيت معهم كلّ هذا الوقت؟

ـ لأنّني لم أكن أعرف أنّهم سيستغيبونك أمامي!

سألت غيداء مستغربة:

ـ يستغيبونني أنا!؟ ولماذا؟

ـ لأنّك، كما قالوا، تتصابين مثل بنت العشرين، مع أنّك في الأربعين وزيادة!

ابتلعت غيداء صدمتها وقالت:

ـ ما همّ!؟ أنا في الأربعين أو أكثر، مع ذلك..

قاطعتها هزار:

ـ وحولك شلّة من الغلمان المتملّقين!

ـ وأيضًا؟

قصّت هزار عليها كلّ ما جرى، مزاودة بخبث، ودون مبرّر، فقالت غيداء:

- وهل جئت، وأنا مريضة، لإتحافي بمثل هذه الأخبار!؟
- ماذا!؟ أنا مخطئة!؟
- هناك أكثر من الخطأ!
- ناقل الكفر ليس بكافر!
- إذا لم يكن متقصّدًا.
- أنا لم أتقصّد.. قلت ما سمعت، وبماذا أجبت، وتحمّلت حتّى الاتّهام بأنّني ذيل لك!
- لا تكوني، بعد الآن، لا ذيلاً ولا رأسًا، أمّا ذلك الصعلوك ناصر، فإنّ نعلي لا يأبه له، أو لقبطانه المزعوم!

قالت غيداء ذلك، دون أن تخفي انفعالها، فهذه ليست المرّة التي يتقوّل عليها الآخرون، الحسّاد كما تسمّيهم، لكنّ ما آلمها، وحزّ في نفسها حتّى العظم، قيلة إنّها متصابية وهي في الأربعين، وإنّ المعجبين بها «شلّة من الغلمان!»، وإنّ ذلك الرّجل المجهول، الذي يتحمّس له «هذا الكلب ناصر!» استهان بها وبمن معها، وإنّه «شجاع!» وله هذا التأثير على فتى مراهق، علك جلدها، هي غيداء، وقال وقاحات، اعتذرت أخته عنها، وإنّ هزار، وبشكل مفاجئ، انقلبت عليها، لأنّ ولدًا أزعر، قال لها «إنّك ذيلها!»

سألت هزار:

- هل نبقى في هذا الوكر، والنّاس كلّهم على السطح!؟

ردّت غيداء:

ـ أنا سأبقى، وأنت حرّة!

«قرف! ومن أوّل الرحلة! وهزار هذه، صديقتي، تتأذّى من كلمة تافهة، قالها تافه، مهووس حتّى الجنون، برجل غير معروف الأصل والفصل! مسخرة! لكن لا بأس! «يا صخرة ما يهزّك ريح!» أنا غيداء!، سأجعل هذا القبطان الفشّار يقبّل حذائي، مقابل نظرة، نظرة واحدة! غدًا أراه، في اجتماع التعارف، وأكشف «طينته من عجينته!» و«أرقّصه على الحبال».

قُرع الباب، هذه امتثال ومعها عصام النحّات، هناك تعارف سابق مع غيداء وهزار، في أحد المعارض في بيروت، وعشرة، وصحبة، لكون الاثنين، امتثال وعصام، من الوسط الفنّيّ، فهي قاصّة، وهو نحّات، وغيداء لا تتخلّف عن معرض، أو أمسية أدبيّة، وحضورها دائم، في حفلات الكوكتيل، التي تقيمها، في المناسبات، السفارات والتجمّعات الأدبيّة والفنيَّة، ومعروف، بين كلّ الأصدقاء أنّ عصام معجب بامتثال، وأنّهما شبه مخطوبين، وعلى وشك الزواج، وقد جاءا للاطمئنان على غيداء، التي أصيبت بالدُّوار، رغم أنّها لم تغادر قمرتها، وقد ارتاحت غيداء لمجيئهما، كي تتسلّى، وتعرف أخبار جماعة الرّحلة، وتنسى ما سمعت من هزار، من كلام هزّ بدنها!

تحدّثوا، ضحكوا، اطمأنّوا على غيداء، شجّعها عصام على مغادرة الفراش، لأنّ دوخة البحر تحتاج إلى شمّ الهواء، على سطح الباخرة، في الطقس الجميل، بعد الفرتونة الصباحيّة. قالت غيداء:

ـ لا رغبة لي في الخروج.. لا أدري ماذا جرى معي، مع أنّني معتادة على السّفر! المهمّ، ماذا جرى لكما وللآخرين؟ مرّ الحادث على خير؟

قال عصام:

ـ على خير طبعًا! فرتونة صغيرة، مرّت بسرعة، لكنّ الجماعة، مع أنّهم لبنانيّون، ومعتادون على البحر، وعلى السفر، هرّوا من الدوخة، نصفهم على الأقلّ، وتقيّأوا أمعاءهم!

سألت غيداء:

ـ على السطح؟

قال عصام، المرح بطبعه:

ـ على السطح وتحت السطح، كانت فرجة!

قالت امتثال:

ـ أيّ فرجة هذه!؟ لعنة! أنا كنت على السطح.. شعرت، فجأة، أنّ الأرض تدور بي، وأنّني أكاد أقع، لولا أنّ رجلاً لطيفًا، تقدّم منّي بهدوء، أمسكني من ذراعي وقال لي: «لا تخافي، لا تنظري إلى وراء، استندي عليّ.. وهكذا صار، حتّى وصلت إلى السّرير، والباخرة تميل على الجنبين، وأنا أشعر بالحاجة إلى التقيّؤ، لكنّني، الحمد لله، لم أتقيّأ، نمت.. وعندما أفقت وجدت عصام إلى جانبي، وبيده ليمونة حامضة، ركّزت معدتي.

قال عصام:

ـ لم يبق ليمون معنا، الجماعة، من الخضّة الأولى،

استهلكوا ما معهم، وكان الرّجل الذي ساعد امتثال، يركض بلهفة لمساعدة غيرها وغيرها، وهو يقول: لا تخافوا، فرتونة صغيرة، لا تنظروا إلى وراء، بعكس الاتّجاه، ابتعدوا عن الحاجز! فرجة!

قالت هزار بامتعاض:

ـ أيّ فرجة هذه؟ نكبة! وذلك الرّجل «صاحب المعروف!» كان يتمنّى أن تكون عاصفة، كي يتفرّج عليها! اللّعنة عليه وعلى فرجته!

ردّ عصام:

ـ لا تكوني، يا هزار، مثل تلك السفيهة لويزا، لم تترك كلمة قبيحة إلاّ وقالتها بحقّ ذلك الرّجل! هذا جزاء المعروف؟

ـ لويزا على حقّ! هو الذي كان يتمنّى، صباح أمس، أن تحدث عاصفة ليتفرّج! هل هذا كلام إنسان عاقل!؟

ـ في رأيي إنّه عاقل ونصّ، ولويزا حرّفت كلامه، أما سمعت ذلك الفتى ناصر، وكيف ردّ عليها، بطريقتها نفسها؟

سألت غيداء:

ـ وأين جرى هذا كلّه؟

أجاب عصام:

ـ في الممرّ، هنا، أمام القمرة، وكانت هزار حاضرة.

قالت هزار:

ـ لم أكن حاضرة وأنت الصادق، خرجت، في الأخير، لأعرف ما الخبر، ولماذا هذه الضجّة؟

ـ فاتتك الفرجة، وخاصّة على لويزا العصبيّة، التي لم يعرف

الناس كيف يسكتونها، لولا ناصر، الذي هدّد بإلقائها في البحر.

قالت غيداء:

ـ كلّ هذا وأنا نائمة؟ من هو ناصر هذا؟

أجابها عصام:

ـ من الكورة، لكنّه يسكن مع عائلته، الآن، في بيروت، فتى في الثانوي، مراهق، دافع بحماسة عن ذلك الرّجل.

ـ ومن هو ذلك الرّجل؟

ـ من يعرف؟ بعد أن مرّت الفرتونة، اختفى وكأنّ الأرض ابتلعته.

ـ شبح؟

ـ تقريبًا! ولكن لا تخافوا!

احتدّت هزار:

ـ لا شبح ولا هواء.. اللّعنة عليه وعلى ناصر معه!

قالت امتثال:

ـ وعلى لويزا أيضًا! أنا لا أنسى المعروف، ذلك الرّجل ساعد الجميع، وبشهامة، ودون أن يقول مَنْ هو، هذا يدلّ على التواضع، وحتّى نكران الذات!

قالت غيداء:

ـ أنا من رأي امتثال!

قال عصام:

ـ لا بدّ أن نعرف من هو، وما اسمه، غدًا في لقاء التعارف!

ـ أين، ومتى؟

ـ إبراهيم الشفّاط سيحدّد الزمان والمكان.. الأرجح في المطعم، بعد الفطور! وسنبلّغ كلّ الذين معنا، في الرّحلة، حتّى يعرف بعضنا بعضًا، ولا نبقى مفرطعين!

ـ هذا ضروريّ!

وقف عصام، تبعته امتثال، سألت غيداء:

ـ إلى أين؟

ـ إلى السطح؟

ـ وماذا على السطح؟

ـ كلّ الناس! الغروب جميل جدًّا على البحر.. بخاطركم!

ـ مع السلامة!

ـ نلتقي غدًا بعد الفطور!

ـ إذا تبلّغنا الموعد!

ـ تبلّغيه من الآن.. اتّفقت مع إبراهيم الشفّاط، والسيّدة صبيحة الدعجاوي، على الدعوة، وسنكون كلّنا هناك.. لا تتأخّروا!

ـ أليست السيّدة صبيحة هذه، صاحبة الحركة الأدبيّة في بيتها؟

ـ هي بعينها!

ـ سيّدة طيّبة، لكنّني انقطعت عن لقاءاتها في السنوات الأخيرة.

ـ ستكون مسرورة برؤيتك من جديد.. وفي هذه الرحلة الممتعة..

ـ وأنا أيضًا!

قالت هزار:

ـ رحلة ممتعة؟ سلامات!!!

ـ ٧ ـ

عادت غيداء إلى القراءة، متجاهلة وجود هزار في القمرة، غاضبة على تصرّفها السيِّئ، كاشفة ما كانت تضمر، حين أخبرتها بما جرى معها، وما سمعت من ناصر، من كلام حولها، ساقته إليها هزار بنوع من التشفّي، لكونها صغيرة السنّ، بالنّسبة إليها، ولأنّها، هزار، لم تقل كلّ الحقيقة، فقد بحثت عن ذلك الرّجل، دون أن تصارحها بذلك، وعادت خائبة، متناسية من تكون غيداء، التي قدّمتها إلى المجتمع، وأحبّتها كابنتها، واصطحبتها في هذه الرحلة، لا لحاجتها إليها، بل لتيسّر لها الاطّلاع، والتعرّف إلى الدنيا والناس، باعتبارها صديقة صغيرة، لاذت بها، حين لم تكن في وضع تحسن فيه التصرّف، دون مساعدتها. «ماذا يدور في رأس هذه الغِرّة، ولماذا كبُرَ عليها أن تُوصف بما وصفت به، وهي ليست، في الحقيقة، ذيلاً لي، ولا أريدها كذلك!؟ ثمّة غيرها الكثيرات، اللّواتي يتمنّين نظرة رضى منّي، أنا التي أعرف قدر نفسي، ويخضع لإشارة منّي، رجال من ذوي الشخصيّة والمكانة، ليقينهم أنّني صعبة المنال، عصيّة على الإغراء، من كلّ نوع، وبأيّ شكل، وأنّ لي من الجمال، والمهابة، فوق ما

تتحلّى، أو تمتاز به، أيّ امرأة أخرى».

سألتها هزار:

ـ أنت مصرّة على عدم الخروج؟

ردّت غيداء بجفاء:

ـ نعم! وخاصّة معك.. أنت حرّة، وطول هذه الرّحلة، فتصرّفي كيف يحلو لك؟

ـ وماذا بدر منّي؟

ـ نسيانك من أكون!

ـ أنا التي دافعت عنك؟

رمتها بنظرة جارحة وقالت بنبرة حاسمة:

ـ أشكرك على هذا الدفاع الذي لم أكلّفك به، ولم أكلّف غيرك أيضًا! من هذا الولد الذي تحسبين أنّني أسأل عن تطاوله!؟ إنّه تفاهة! تصرّفه يدلّ على أنّه لا يعرفني جيّدًا، ولست في عجلة من أمري على هذه المعرفة! أعترف. صدمت، للوهلة الأولى، لكنّني تداركت نفسي، واستعدتُ رباطة جأشي، وضحكت، في سرّي، لا على أمثاله، وإنّما على من هم أكبر منه، وأعظم، وأرفع مكانة، وهم يسألون خاطري، ولا أبالي.. مع السلامة.

قالت غيداء ذلك، وعادت إلى قراءة الكتاب الذي لم تكن تقرأ به، وإنّما تقرأ ما في رأسها. قالت هزار:

ـ فهمت، كلّ ما وراء كلماتك مع امتثال وعصام.

قالت غيداء:

ـ وأنا قلتها لتفهميها، وأنتِ، طبعًا، لا ينقصك الفهم!

ـ كنتِ، نكايةً، ضدّ موقفي من ذلك الرّجل!

ـ تمامًا كما تقولين! الاهتمام بالرّجال، معروفين أو مجهولين، ليس واردًا عندي، وهؤلاء الذين يتملّقونني، ويتحلّقون حولي «شلّة من الغلمان!» كما قال ناصر.. نحن في رحلة، ولا بدّ من التسلية، وهم يسلّونني لا أكثر! لكنّني، بعد اليوم، سأغيّر سلوكي معك ومعهم، لأنّ أقدار الناس، خارج الوطن، لا تُعرف على وجهها الصحيح، وهذا ما يجب الانتباه إليه جيّدًا.. اِذهبي وابحثي عن ذلك الرّجل المجهول، لعلّه يشفق عليه.

ـ أنا لا أبحث عنه!

ـ بلى! تبحثين، وهذا ما أردتِ إخفاءه عنّي!

ـ أعتذر!

ـ لو كنّا في الوطن، لرفضت اعتذارك.. أمّا ونحن في رحلة فلا بأس! سنتعشّى معًا، وفي المطعم.. لا تتأخّري!

قفزت هزار إلى السرير، عانقتها، قبّلتها، لوّحت لها بيدها وهي خارجة، ولمّا أغلقت الباب وراءها، رمت غيداء الكتاب من يدها، تمطّت، أشعلت سيكارة وقالت:

ـ «أشكّ في أنّ ناصر يعبّر عن فكر ذلك الرّجل.. ربّما كان يعرفه، بقدرٍ ما، لكنّه لا يعرف شيئًا ممّا في داخله. حركات هذا الرّجل تدلّ على أنّه يسعى وراء هدف، غاية، أمنية، لا يفصح عنها. هذا الغموض، هذه اللاّمبالاة، رفضه الكشف عن نفسه، كلّ هذا يعزّز قناعتي في أنّه صاحب كرامة، وصاحب الكرامة يدفع عن كرامته، بغير كلام.. يتصرّف ويترك للآخرين أن يفسّروا تصرّفه.. إنّه قبطان، ابن بحر،

شجاع، صاحب نخوة، ويعبّر عن ذلك بصمت. . لماذا؟ ما وراء هذا التكتّم؟ ماذا تعني غرابة أطواره؟ كلّ ذلك صدفة!؟ لا! إنّه يفكّر بأمر ما، لا أدري الآن ما هو، لكنّني سأدري، ودونما تسرّع، غدًا، في الاجتماع، سألتقي به، سأزوره لأعرف من هو بين الرّجال، دون أن أجعله ينتبه، فإذا رآني، وتجاهلني، أدعه لشأنه. . عرفت، في حياتي، الكثيرين من أمثاله، ولكن هل يعقل ألاَّ يكون رآني، أو لم يسمع بي!؟ ومن تكون تلك الأجنبيّة التي معه؟ ما العلاقة بينهما؟ ومن أين التقطها؟ عن البار؟ أرجّح ذلك، إنّه ابن بحر، وحتّى قبطان كما يدّعي، وفي هذه الحال يكون من زبائن البارات، ومن الذين يعاشرون نساء البارات، على شاكلته. . أفّ! لماذا أفكّر فيه وهو لا يستحقّ!؟»

قبل العشاء تنزّهت غيداء وهزار على السطح. كان الطقس جميلاً، والجوّ لطيفًا، والمسبح عامرًا، وكذلك البار الصيفيّ، والناس في طمأنينة كاملة، بعد قلق الصباح، وما أثارت النويّة من فوضى، في كلّ مكان، وما أحدثت من رجّة، زالت آثارها مع الغروب، حيث التزاحم على الحاجز الغربيّ للسفينة، لرؤية الشمس وهي تغطس في البحر، مسافرة نحو المجهول. وعندما التقت غيداء وهزار بناصر وأخته، تقدّمت هذه وصافحتهما، بدماثتها، عذوبتها، صفائها، ونادت على أخيها، الذي ظلّ على مبعدة:

ـ ناصر! تعال، صديقتان من لبنان، مع الرّحلة!

ارتبك ناصر، لكنّه اقترب، وصافح غيداء وهزار بفتور، فقالت عفراء:

ـ أنا أعتذر عن ناصر، كان عصبيًّا، مثلنا كلّنا، قبل الظهر!
نظرت إليه غيداء مبتسمة ومدّت يدها له وهي تقول:
ـ أنت معنا، في الرّحلة، ولا تعرّفنا على أختك السُّكّرة؟
قالت عفراء:
ـ هذا من لطفك يا سيّدة غيداء، لكن ناصر.. كيف أقول؟
ـ لا تقولي شيئًا، الشباب، بارك الله، متحمّس دائمًا، ونحن لم نلتق بعد.
قال ناصر:
ـ التقينا أمس، في الكافتيريا.. كنّا هناك، أختي وأنا!
ـ في مكان واحد ولا نتعارف؟ يجوز هذا؟
ـ كنّا بعيدين قليلاً، في الزاوية، وكان معكم..
ضحكت غيداء ضحكتها الساحرة وقالت:
ـ .. بعض الغلمان!
قالت عفراء:
ـ ناصر له تعبيرات غريبة، ولم يكن يقصد..
قالت هزار:
ـ بلى! يقصد! عاملني اليوم كعدوّة، مع أنّني لم أقل ما يستحقّ العداء.
قالت غيداء:
ـ خلاص! سماح! المصالحة عليّ.. ما رأيكم أن نأخذ القهوة معًا في الكافتيريا؟
قالت عفراء:
ـ أنا لا مانع لديّ!

ـ وأنت يا ناصر!

ـ أقبل على شرط!

ـ شرطك مقبول، مهما يكن! ما هو!؟

ـ أنا الذي أتصرّف!

ـ تدعونا!

ـ نعم!

ـ ونحن نقبل الدعوة! وهزار موافقة. . تفضّلوا!

جلس الأربعة في ركن منعزل، وفق مزاج ناصر، الذي سأل:

ـ قالت غيداء ضاحكة:

ـ الويسكي!

أضافت بسرعة:

ـ القهوة طبعًا! وماذا يشرب اللّبنانيّون غير القهوة!؟

ـ هذا متوقّف على الرّغبة والمزاج.

ـ مزاجنا، بعد خضّة الصبح، لا يصلحه سوى القهوة!

طلب ناصر أربعة من القهوة. هذه أوّل مرّة يجلس فيها، وفي مكان عام، مع سيّدة بهذه الأناقة والحلاوة، لذلك تراخى توتّره، وقرّر أن يكون لطيفًا، حتّى مع هزار نفسها. إلاّ أنّ هذه لم توجّه أيّة كلمة، حتّى لا تستفزّه. تحدّثت مع عفراء كصديقتين، وقالت غيداء بتقصّد:

ـ المكان لطيف، هادئ، إلاّ إذا عكّر هدوءه أحد السكارى، مثلما جرى أمس.

قالت هزار:

ـ ما جرى أمس لن يتكرّر، قال لي ذلك أحد حرّاس الباخرة، مع الاعتذار.

ردّت غيداء:

ـ لا تصدّقي! الأجانب يشربون كثيرًا، رجالاً ونساء، وعندما يسكرون يعربدون.. لا بدّ من الانتباه، لو لم يكن ذلك الرّجل.. ما اسمه يا ناصر؟

ـ بدر الزرقا! لبناني من كسروان!

ـ سمعت بهذا الرّجل.. صاحب نخوة، حدّثوني عنه، قالوا إنّه ساعد الكثيرين، من الذين داخوا، على السطح اليوم، ماذا يشتغل؟

ـ قبطان سابق!

ـ صديقك؟

ـ تعارفنا في الباخرة!

ـ مجرّد معرفة، مع أنّه لبنانيّ، وكسروانيّ أيضًا؟

ـ أنا لم أره أمس، بعد الحادث، وأيضًا اليوم.. لا أدري أين اختفى!

ـ ولماذا يختفي؟ تراه على البار، أو في المطعم، أو على السطح..

ـ بحثت عنه في كلّ هذه الأماكن ولم أجده!

ـ هذا غريب! قد يكون مريضًا، بعد خضّة البحر اليوم!

ابتسم ناصر وقال بنبرة استغراب:

ـ خضّة البحر!؟ أيّ بحر وأيّ خضّة؟ هو البحر نفسه!

ـ ياه! لهذه الدرجة!؟

قالت عفراء:

ـ بدر من المتحمّسين له جدًّا جدًّا!

ـ صحيح يا ناصر؟

سألت غيداء، هزّ ناصر برأسه وأجاب:

ـ حماستي في محلّها تمامًا!

قالت هزار:

ـ ومن أجله مستعدّ أن يقاتل الرِّيح!

نبر ناصر:

ـ أنا لا أقاتل الرِّيح يا آنسة!

ـ تقاتل من إذن؟ لويزا؟

أجاب ناصر باستهزاء:

ـ قفّة العظام والأعصاب هذه!

ضحكت غيداء وقالت:

ـ لسانك يشلْفظ.. كان الله في عون لويزا!

ـ كان الله في عون الناس منها! هذه المهسترة!

سألت غيداء:

ـ لماذا لا تصالحين، يا عفراء، ناصر مع لويزا هذه، وينتهي ما بينهما؟

أجابت عفراء:

ـ الصلح، بينهما، غير ممكن.. يكرهها حتّى العمى!

ـ وكلّ هذا لأجل بدر؟

ردّ ناصر:

ـ لأجل بذاءتها! ماذا فعل لها بدر؟

قالت هزار:

ـ تمنّى، أمامها، أن تحدث عاصفة حتّى يتفرّج عليها..
العاصفة ليست فرجة، لويزا على حقّ!

ـ أيّ حقّ هذا أنت الأخرى!؟ بدر كان يسخر منها!

ـ والسخرية لا تجوز، خاصّة مع آنسة، ومثلنا من لبنان، ومعنا في هذه الرّحلة!

قال ناصر وقد اغتاظ:

ـ وبعد يا شاطرة!؟ تشتمه دون سبب ويسكت؟

ـ لا أحد يشتم غيره بلا سبب!

قالت غيداء:

ـ بدرك، يا ناصر، على العين والرّأس، لكنّه مثل الشبح، يظهر فجأة ويختفي فجأة! هكذا يقولون؟

ـ لا تصدّقي، هذا لأنّه لا يعطي وجهًا لأمثال لويزا السفيهة هذه!

ـ وأنت؟ ماذا تظنّ؟ أين هو الآن؟ ومع من؟

ـ تحقيق!؟

ـ طبعًا! لبنانيّ، ومعنا في الرّحلة، ولا نطمئنّ عليه؟

ـ اطمئنّي!

ضحكت غيداء وهي تنهض.. قالت:

ـ على مسؤوليّتك!؟

أجاب ناصر وهو ينهض بدوره:

ـ على مسؤوليّتي! وعذرًا على خشونتي في الكلام.

قالت غيداء وهي تودّعه:

ـ تعرف يا ناصر؟ أنت طريف، وعذب، حتّى مع هذه

الخشونة!

قالت عفراء ضاحكة وهي تودّع الضيفتين:

ـ . . . أو بسبب هذه الخشونة! طبْع! ماذا نفعل؟

دفع ناصر الحساب وغادر الكافتيريا مع عفراء. قال لها، وهما في طريقهما إلى المطعم:

ـ ماذا لاحظتِ؟

ـ غيداء هذه جميلة ولطيفة، وهزار تعاملها باحترام، كأمّ، وكانت لفتة طيّبة منهما، بالنّسبة إلينا، برغم الكلام القاسي الذي وجّهته إلى هزار، قبل ظهر اليوم، وظنّي أنّها نقلته كلّه إلى غيداء. . الناس، يا ناصر، يكونون لطفاء ومهذّبين، بمقدار ما نعاملهم، نحن، بلطف وتهذيب.

ـ وبعد هذا الدرس الجيّد؟

قالت عفراء وهما يجلسان إلى طاولة، لتناول العشاء:

ـ هذا ليس درسًا. . لا تكن استفزازيًّا أو عصبيًّا، هذا يضرّ ولا يأتي بنتيجة! ماذا لاحظت أنت؟ تكلّم بهدوء، نحن في مطعم، والناس من حولنا. . كن صريحًا واعترف. . أنّك أُعجبت بغيداء، لمجرّد أنّها ابتسمت لك!

قال ناصر:

ـ لا أنكر إعجابي بغيداء، وبارتياحي لتصرّفها كسيّدة راقية، وأنّها جاملتني لاكتسابي إلى جانبها. .

ـ اكتسابك أنت!؟ ولماذا؟ وما هي حاجتها إليك؟

ـ معرفة بعض الأشياء عن بدر!

ـ وإذا قلت لك إنّ ما قلته تعرفه، لأنّك قلته قبل ذلك لهزار؟

ـ أقول لك إنّها تريد معرفة المزيد، وفوق ذلك أن أمدحها أمام بدر عساه يلتفت إليها!

ـ أنت دائمًا هكذا! تغالي في أهمِّيَّة من تعجب به!

ـ لست أبله إلى الدرجة التي تتصوّرين!

ـ اِخفض صوتك، إنّهما قريبتان منّا.. لا تنظر نحوهما بتقصّد، حتّى لا تقولا إنّهما أدارتا رأسك بسرعة.

قال ناصر:

ـ ملاحظات!؟ نصائح!؟ متى تفهمين أنّني لست ذلك الصبيّ الذي كنته؟

ـ عندما تكفّ أن تكون ذلك الصبيّ نفسه! كفى كلامًا ولنأكل!

أكلا بغير مزيد من الكلام. فكّر كلّ منهما بما يشغله. جاء، بعد قليل، عصام البُرُم وأبلغهما أنّه سيكون هناك، في الساعة الحادية عشر، لقاء تعارف بين أفراد الرحلة، وفي هذا المطعم، ومن الضروريّ حضوره! وافقا على الحضور، فانتقل عصام إلى طاولة غيداء وهزار، أبلغهما بموعد اللّقاء ومكانه، سألته غيداء:

ـ هل وافق الجميع على الحضور؟

ـ وافقوا.

ـ إذن سنحضر، تعارفنا ضروريّ!

أشعلت سيكارة، شربتها باستمتاع وهي ترى إلى من في المطعم، وإلى الداخلين والخارجين، متمهّلة في النهوض، كأنّها تتوقّع، أو تنتظر، أحدًا ما، سألت هزار، بنبرة مازحة:

ـ ما رأيك بكأس على البار، فوق؟

ـ لا أرى ذلك مناسبًا دون أن يكون معنا رجل.
ـ وهل نستأجر رجلاً كي نشرب مثل هذا الكأس؟
قالت هزار:
ـ ها هو ناصر جاهز!
ـ هذا الولد!؟ لا!
ـ على السطح، وفي الكافتيريا، عاملتِه كشابّ ناضج!
ـ لكلّ وقت ضروراته!
ـ الضرورة، على البار، أشدّ.. لا تنسي..
ـ .. إنّنا امرأتان لبنانيّتان! أنت غير مخطئة.. يحقّ للأجنبيّة ما لا يحقّ للعربيّة أو الشرقيّة، لعنة «الحريم» تلاحقنا إلى خارج الوطن، في السفر، والقيام، والقعود، تنام معنا وتستيقظ معنا، وكذلك تأكل وتشرب.. ولكن إلى متى!؟ السفر مع الآخرين، ومن بلد واحد، مزعج! تورّطنا!
قالت هزار:
ـ لدينا ويسكي، في القمرة..
ـ أعرف.. لكنّني أريد أن أشرب خارج القمرة، أن أتحدّى.. قليلاً!
ـ ولماذا التحدّي إذا لم يكن له ضرورة؟
نظرت إليها غيداء نظرة استغباء وقالت:
ـ أنا مَنْ يقدّر هذه الضرورة! سأغيظ الجميع، وناصر قبل الجميع!
ـ لا أستطيع أن أفهمك أحيانًا.
ـ الفهم يأتي مع التجارب، ومع الأيّام، هذا الكلب أساء

إليّ! حسبني رخيصة، وأنّ كلّ «هؤلاء الغلمان!» حسب تعبيره، عشّاقي!

صمتت هزار «إنّها لا تنسى! لكم هي جبّارة، وقادرة على إخفاء مشاعرها الحقيقيّة عند اللّزوم! داهية!! ألف بدر، مثل بدر، تمرّرهم من تحت إبطها، دون أن يدروا.. لا أحد يستطيع أن ينال منها إلاّ ما تريده هي، ولا أحد يحزر ماذا تنوي، أو ماذا تخطّط! في رأسها مغارة موصَدَة، لا تُفتح إلاّ بمعرفة كلمة السرّ، ومن يتوصّل إلى معرفة كلمة السرّ هذه!؟ إنّني أخافها، أحبّها وأخافها، مع أنّني قويّة، وعنيدة أيضًا!»

أشعلت غيداء سيكارة أخرى، راحت تدخّنها بهدوء، تنفث الدخان وترى إليه وهو يتصاعد حلقات رماديّة، تدور دورات حلزونيّة، وتتلاشى في فضاء المطعم، إنّها تفكّر! حين تفكّر تستاء إذا سألها أحد «بماذا تفكّرين!؟» هذا شأنها الخاصّ، لذلك فهي متعبة، تتصرّف وكأنّها قائدة مجموعة كلمتها حازمة، حاسمة، آمرة! متسلّطة!! هزار ذاقت مرارة هذا التسلّط، عانت منه، لذلك تفكّر، جدِّيًّا هذه المرّة، أن تفترق عنها بعد العودة إلى بيروت، لتنجو بنفسها من ضغط كابوسيّ لا يحتمل، وقد يكون مشبوهًا، رغم أنّ غيداء غير شاذّة، ولم تتحرّش بها أبدًا، ولم تدعها تلاحظ شيئًا، حتّى لتبدو كمن لا علاقة لها مع أيّ رجل، مع أنّ امرأة مثلها، أرمل، لا بدّ أن تكون لها علاقة ما، مع أكثر من رجل، كما يُقال عنها استغابة!!!

أطفأت غيداء عقب سيكارتها، وضعت علبة السكائر في حقيبة يدها، نهضت وقالت لهزار:

ـ هيّا نشرب شيئًا في الكافتيريا.. أرغب في الشراب رغبة لا تُردّ، وسأفعل، تعالي!

مشت هزار معها دون أن تستفزّها بكلمة، أو تردّد، أو اعتراض. خرجتا من المطعم صامتتين، بخلاف العادة، قدّرت هزار أنّ هذا الطبع الحادّ سيتبدّل، ما إن يخمد الفوران الداخليّ، وعندئذ تعود غيداء إلى طبيعتها المرحة، البشوشة، وتعود إليها تلك الابتسامة الفاتنة، المغرية إلى حدّ لا يقاوم، إلاَّ من قِبَل من هو أقوى منها.

وجدتا في الكافتيريا شخصين لبنانيين. قدّمت السيّدة نفسها باسم جمانة، والرّجل الذي معها باسم رهيف عبد الصّمد المحامي، وقد دعا، هذا الأخير، غيداء وهزار إلى الجلوس معهما، لكنّ غيداء اعتذرت بلطف قائلة:

ـ ليأخذ كلّ منا حرّيّته!

قالت جمانة:

ـ ليس هناك ما هو خاصّ!

ردّت غيداء:

ـ مع ذلك لا بأس! شكرًا.

اختارت، بعد ذلك، طاولة صغيرة في الصدر، مواجهة للباب. جاء الكرسون فطلبت غيداء كأسين من «المارتيني» مع اللّيمون، أشعلت، فورًا، سيكارة، راحت تتأمّل الجالسين، بشكل لبق وغير مباشر، قالت لهزار بما يشبه الهمس:

ـ أعرف هذين الشخصين جيّدًا، لكنّني لم أكن أعرف أنّهما معنا في الرّحلة.. السيّدة هي جمانة، شاعرة، حضرتُ لها

أكثر من أمسية، وكان المعجبون حولها كثيرين، في المقدمة هذا الرّجل الذي هو أكبر منها، يلاحقها أينما تذهب، أملاً بلحسة عسل، في يوم من الأيّام، وأظنّ أنّه اشترك في الرحلة لأجلها.

قالت هزار:

ـ جمانة هذه شاعرة جيّدة، أم أنّها مثل الأخريات، من صاحبات قصيدة النثر!؟

ـ جمانة تنظم الشعر العموديّ، الغزليّ، وشعرها رقيق، فيه طلاوة، لكنّها تتدلّع في الإِلقاء، ولها مريدون يصفّقون لها بحماسة، وهي، كما ترين، بيضاء، شعرها كستنائيّ، وجهها جميل، جذّاب، لكنّها ضعيفة الشخصيّة، تزوّجت مرّتين، طلّقت في الأولى، وهي، كما سمعت، موفّقة مع زوجها الجديد، الثريّ، من تجّار بيروت.. أمّا الذي معها فهو، كما قدّم نفسه، محام وسط، متزوّج وله أولاد، لكنّه مغرم، أمله مثل أمل إبليس بالجنّة!

قالت غيداء ذلك وسألت هزار:

ـ كأس «مارتيني» آخر!؟

أجابت هزار:

ـ كأس واحد يكفي، إنّني مستمتعة، وأنت؟

ـ تحسّن مزاجي، لذلك سأجرّب الويسكي، ما رأيك؟

ـ كوني سعيدة وهذا هو المهمّ!

طلبت غيداء الويسكي وقالت بعد أن أشعلت سيكارة:

ـ السعادة نسبيّة يا هزار.. لا أحد سعيد سعادة كاملة.

ـ مع هذا الجمال وهؤلاء المعجبين، ولست سعيدة كما ينبغي!؟

ضحكت غيداء وقالت:

ـ تقصدين «هؤلاء الغلمان» على رأي ناصر؟

أضافت:

ـ إنّهم مسلّون قليلاً، لدفع الملل في هذه الرّحلة الطويلة!

ـ وهل أنت نادمة!؟

ـ قبل الظهر شعرت بالندم.. فكّرت: «لماذا جئت!؟» لكنّني الآن، ومع هذا الويسكي، فإنّني على ما يرام، بسبب شعور غريب، لا تفسير له حتّى الآن.. السفر لذيذ، وألذّ منه المغامرة خلاله.

ـ لا بدّ أنّك تتوقّعين مغامرة من نوع ما!

ـ المغامرة انتهت بسلام، وكانت، هذه المرّة، مع البحر!

فكّرت هزار:

ـ «هذه كهانة!»

قالت:

ـ ليس المهمّ المغامرة.. المهمّ من ينتصر فيها.. مع البحر أو غيره.

ضحكت غيداء وهتفت:

ـ أنا خسرت اليوم.. صرعني البحر، وبالضربة القاضية.. استسلمت!

ـ وتريدينني أن أصدّق!؟ أنت لا تستسلمين بسهولة، لا في الجولة الأولى ولا الخامسة!

أشعلت غيداء سيكارة، توارت وراء صمتها قليلاً، بعد ذلك قالت:

- اِسمعي يا هزار! غيداء لا تدخل معركة خاسرة، لكنّني، في هذه الرّحلة، أشكّ في الرّبح!

قالت هزار بتأكيد:

- سترىحين، هذه المرّة أيضًا، أعرفك جيّدًا!

قالت غيداء:

- من يدري!؟

— ٨ —

«خمس سنوات وتمضي، العمر كلّه يمضي، البحر وحده يبقى! بعد هذه السنوات أعود إلى البحر، قبطانًا كما كنت، أو معاون قبطان، ولكن على سفينة غير عربيّة. . سأبدأ من أثينا، حيث درست، وكأنّني أتخرّج من الكلّيّة البحريّة من جديد! هناك يعرفونني، لي في أثينا أصدقاء من القباطنة، ومن البحّارة، ومن المسؤولين في الشركات البحريّة، يعرفون من أنا، وما هي كفاءاتي، وهم يقدّرون الكفاءات، هناك، وليس كما الأمر في لبنان، أو أيّ بلد عربيّ، فالإنسان، هنا، محسود على نجاحه، مطالب بأن يُنافق، يَستزلم، أن يتخلّى عن كرامته، اعتداده، عنفوانه، أو يُهمّش، يُهدّم، يُحاصر، إلى أن يهرب، ولو بتسمية أخرى: الهجرة! يهاجر بحثًا عمّن يرى إلى شهادته، خبرته، بعين أخرى، لا حقد فيها. . إلاّ أنّ الأمر، في الهجرة، حتّى إلى بلد يعرفه المهاجر، ليس سهلاً، ليس ميسّرًا منذ الوصول، إلى من يريد أن يشقّ طريقه، أن يكافح، يصبر، يتحمّل، يثبت بالعمل، وبالعمل وحده، أنّه كفؤ، وأنّه متفوّق، وعندئذ فقط، يصعد أولى درجات النجاح، على سلّم طويل، صعب الارتقاء!»

استراح بدر الزرقا، لأنّه قال ما في قلبه، وبغير كلام، للبحر! هذا وحده، في يقينه المتشكّل من تجاربه، من يَفهم كلامه، ويستوعب همّه أو سرّه، دون تحفّظ، أو شكّ، أو شماتة من أيّ نوع. «الصحبة الطويلة تُعلّم، صَحِبْتُ البحر طويلاً وتعلّمت منه، أحسّ، أحيانًا، أنّ هذه الصحبة طبعتني بطابع غريب: العثور على نفسي في الماء! في زرقة البحر أجد، كما في المندل، عالمًا من الكائنات الغريبة، ومع الأيّام صارت أليفة، أستغرق في تأمّلها طويلاً، ولولا هذا التأمّل، الذي يصبح عادة مستحكمة عند البحّار، كان يموت من الضّجر، في أسفاره البعيدة، المقفرة، الخالية، غالبًا، من المرأة، والأنس، والمباهج التي على البرّ، وإذا كان كلّ شيء يهون، فإن افتقاد المرأة لا يهون، فهي، في الرّغبةِ، الشوقِ، اللّذّة المتخيّلةِ، عزيزةٌ كالبحر».

في الموعد المحدّد تمامًا، جاءت السيّدة جان توليب، اتّكأت على حاجز السفينة مثله، تأمّلت انعكاسات ضوء القمر على المياه المتكسّرة أمامها، هتفت:

ـ لكم هو رائع البحر في اللّيل، وخاصّة في ضوء القمر!

أضافت:

ـ في البحر تحسّ المرأة بالرّغبة، وبشكل ملحّ!

قال بدر:

ـ وكذلك الرّجل!

ـ ما تفسير هذا؟

ـ يود البحر!

ـ وماذا يفعل البحّار، إذا اهتاجت به الرّغبة ولم تكن معه امرأة؟

ـ هذا سؤال يجيبك عنه بحّار إنكليزيّ عتيق!

قالت جان:

ـ فهمت! إنّه اللّواط!

وبعد لحظة صمت:

ـ ولكنّ اللّواط قديم قِدَم التاريخ!

قال بدر:

ـ والبحر كذلك!

ـ وأنت!؟

ضحك بدر وقال:

ـ لست لوطيًّا يا عزيزتي جان، صدّقيني!

ـ وهل هذه بدعة بحريَّة؟

ـ اِسألي البحر!

أخذت يده بين يديها وقالت:

ـ أسألك أنت! يا قبطاني العزيز، ومن المفروض أن تعرف!

ـ أرجّح أنّ هذه البدعة هي بحريَّة.

ـ ولكنّ لوط، كما في العهد القديم، لم يكن بحّارًا؟

ـ البدعة كالعدوى، تنتشر، وأفترض أنّها انتقلت مِن البحر إلى البرّ، ثمّ انتشرت! ولكن لماذا تسألين يا عزيزتي؟

ـ لأنّ مسائل الجنس تهمّني، وتاليًا، تستثيرني!

ـ قبل الشرب أو بعده؟

ـ بعد الشرب أكثر.. هيّا نشرب قليلاً، ثمّ..

غمزت وهي تضع يدها على ظهره.. مسّدته قليلاً، وسألت:

ـ نشرب في البار أم عندي في القمرة؟

ـ نفتتح الجلسة على البار، نمازح غابور قليلاً، وبعد ذلك نرى..

ـ نرى ماذا!؟ لا تقل لي إنّك تعب أو مرتبط! أقول لك: لديّ رغبة!

ـ أنا لا رغبة لي!

ـ أنت ماكر! ترغب ولا تتحدّث عن رغبتك، هذه حال استبداليّة، المرأة هي التي تلعب هذا الدور، لكنّني، أنا، صريحة، وكالطفلة أطلب ما أرغب فيه، لست ماكرة مثلك.. هالو غابور!

ـ هالو سيّدة توليب، أين أنتِ؟ وأنتَ، يا صديقي بدر، تمارس هوايتك في اصطياد الغيم؟ لماذا في هذا الوقت المتأخّر؟

قال بدر:

ـ لأنّنا كالعاجزين، نأتي متأخّرين دائمًا!

ـ نحتاج لمن نسألها عن عجزك!

ضحكت جان وقالت:

ـ ولماذا لا تسألني أنا!؟ جلد الثعلب هذا، لا يخفي ما تحته، إِخلعه عنه يا غابور ولا تكن بذيئًا.. لماذا أنت مغرم بالنظر من ثقب الباب؟

ضحك بدر وهو يجلس إلى جانب جان على البار، قال:

ـ النظر من ثقب الباب مثير، وغابور يحتاج إلى استثارة، كي يرضي الذي يدبّ إليه، في الظلمة!

ضحكت جان وسألت:

ـ وبعد أن يصل إليه!؟

ـ الجواب بعد الويسكي، في صحّتك يا عزيزتي، وأنت يا غابور، لماذا ترسل إلينا زجاجات الويسكي المغشوش!؟

ـ كي تسكر بسرعة، فلا تعود نافعًا لشيء!

ـ أنا لا أسكر، ولا أدبّ، ولا أغشّ.. ألعب على المكشوف.. واسأل السيّدة توليب!

قال غابور:

ـ وهل أغشّ أنا يا سيّدتي؟

ـ أبدًا! أنت رائع يا غابور، والقبطان يتجنّى عليك، وقد شربنا كثيرًا من الويسكي الذي ترسله لنا، وكان جيّدًا، ولكنّ العزيز بدر، كالزئبق، يأتي فجأة، يذهب بغتة، يختفي لا أدري أين، من الصعب القبض عليه، وهذا ما قلته له، منذ تعارفنا، وهنا على البار.. والآن بايْ بايْ! نحن ذاهبون، اِبعث لنا ما يؤكل مع الويسكي، كما تفعل دائمًا.

سأل غابور:

ـ بهذه السرعة؟ وهذا اللّيل الصيفيّ الجميل! لماذا لا تسبحان؟

ـ لديّ شغل يا غابور، تعرف أنّني أرسم في اللّيل.

قال بدر:

ـ وتعلّمني الرّسم أيضًا!

ـ هذا صحيح! بدر يتعلّم بسرعة، له ذوق فنّيّ جيّد، لكنّه، مع الأسف، يملّ بسرعة، يترك الرسم ويخرج دون أن يقول إلى أين، ولفترات طويلة.. هل تعرف أين يذهب يا غابور؟

ـ إلى مكان ما في السفينة، يصرّ على أن يبقى مجهولاً!

قالت جان وهي تنزل عن البار:

ـ وهل هذا جواب يا غابور؟ «مكان ما في السفينة!» طبعًا مكان ما في السفينة، ولكن أيّ مكان هذا؟.. لا تتأخّر علينا بأشيائك الطيّبة!

ـ فورًا يا سيّدة توليب، وليلة سعيدة.

كان في المقصورة الخاصّة، رغم أنّها على شكل قمرة، سرير وطاولة وكرسيّان، وفيها، أيضًا، متّسع لأدوات الرّسم، والسيّدة جان توليب، الفنّانة الأصيلة، ترسم لوحة عن البحر، كمشهد عام للسطح، عند حدوث الفرتونة، لكنّ لوحتها لا تكتمل، لأنّها تفضّل أن تتسلّى، بالشرب، والحديث، وممارسة الحبّ بنهم شيطانيّ! بدر يعرف نزواتها، وقد زارها منذ اليوم الثاني للرحلة، في قمرتها، زيارة مودّة، بعد تعارفهما على البار، ولم يكن يقدّر أنّها شبقة إلى حدّ السعار، وأنّها، منذ الزيارة الأولى، ستنتشي بسرعة، وتستسلم له دون مقدّمات، بادئة بالتهيئة، في عناق حارّ، وقُبَل ملتهبة، وهي عارية تقريبًا، إلاّ من المنهدة والكيلوت، لأنّ هذا، كما قالت، يلذّ لها، وهي تفعل ما يلذّ لها، وتلحّ على الآخر، الذي معها، أن يوفّر لها هذه اللّذّة، وبأكثر ما يكون من الجنون!

اللّيلة أيضًا، وبعد كؤوس من الويسكي، أفرطت في شربها إلى حدّ السكر الكامل، مارست ما ترغب به، دون ارتواء،

وبصعوبة استطاع بدر التخلّص منها، فغادرها إلى العنبر، حيث كان التحّ مع «الخبز والملح»، ومعه صطيف القمطي، لا يزالان ساهرين، يشربان بغير عربدة، وقد قالا لبدر إنّ هناك لقاء تعارف، بين جميع أفراد الرّحلة، في الساعة الحادية عشرة من صباح الغد، في المطعم، وسألاه:

ـ هل ستأتي؟

ـ وما رأيكما؟

ـ حضور الجميع ضروريّ.

قال بدر:

ـ طبعًا ضروريّ، ولكن ليس بحالة سكر، وأنت يا تحّ، بأيّ حالة ستحضر؟

ـ بحالة وعي كامل، دون أن أفتح فمي!

أضاف:

ـ من يوم الوقعة معك، لم أسكر على السطح أو غيره.. أشرب هنا، في العنبر، وشرفك يا معلّمي.

قال صطيف القمطي:

ـ وهذه بصمتي! تربّى التحّ على يديك، تاب عن السكر والعربدة!

قال التحّ:

ـ ما رأيك، يا معلّمي، أن تمالحنا؟

ـ أمالحك بالعرق!؟

ـ هذا هو الملح الذي لولاه لفسدت الأرض! روّق معلّمي!

قال صطيف:

ـ المعلّم قبطان، يا تحّ يا حيوان! يشرب مع الأوادم!

هرش التحّ برأسه وقال:

ـ في هذه معك حقّ يا مصطو، لكنّه جلس معي، تلك اللّيلة، على أرض الباخرة!

ـ وماذا يعني هذا يا فهيم؟

ـ المعنى في قلب الشاعر!

ـ لا! المعنى في قلب الفهيم، وليس في رأس التيس مثلك!

ـ وما هو هذا المعنى يا مصطو!؟

ـ التواضع! القبطان متواضع! يفعل العجايب ويختفي! بعد الفرتونة سمعت من الأوادم، رجالاً ونساء، أنّه بَطَحَ الإيطاليّ السكران، وخلّص السكّين، أبو الكبّاس، منه وداس بصرمايته على رقبته.. هذه قبضنة والاّ لا يا تحّ!؟

قال التحّ نصف السكران:

ـ قبضنة ونصّ!

ـ وسمعت أيضًا أنّه خلّص الركّاب من الغرق، في النويّة!

ضحك بدر وقال:

ـ وأين سمعت كلّ هذا يا صطيف؟

ـ في الممرّ.. كانوا هناك، أصحابنا في الرّحلة، وقالوا أشياء كثيرة، منها أنّك شبح!

ـ شبح!؟

ـ نعم! شبح! صدّقني، أنا لا أكذب والحمد لله.. لكن، عدم المؤاخذة، كانت بينهم بنت رفيعة مثل القصبة، قالت إنّك السبب في النويّة، وحياة شواربك!

نهض بدر وقال:

ـ كلّ هذا الكلام لا أساس له.. كفى شرب «الملح» يا تحّ!

قال التحّ وهو يتعتع ويضحك:

ـ بأيّ زقّوم نتملّح إذن؟ لا تشدّ علينا يا ريّس! أنا في مرفأ بيروت..

انتهره بدر:

ـ هذه النغمة سمعناها! غدًا لقاء، هل تسمع!؟ أم أجعلك تسمع بطريقتي؟ هات الزجاجة وإلى النوم.. الآن، قبل خروجي!

قال صطيف:

ـ خلص! إلى النوم! راح أطفئ الضوء، وغدًا نكون في اللّقاء، مع جنابك والأوادم، نقول كما تقول، والقبضاي يخالفك بكلمة.. فشر!

«عجائب! إذا أردت أن تعرف الناس سافر معهم، في الدرجة الثالثة أو في العنبر، في الدرجة الأولى أو على السطح، في القطار أو الباخرة.. اختلط، تعرّف، عاشر، ولكن اِصغِ أكثر ممّا تتكلّم، لتكن لك أذنان كبيرتان، كأذنيّ الحكيم البوذيّ، وصبر مثل صبر أيّوب، ودقّة ملاحظة، مثل الجاحظ، ونظرة نافذة، مثل زرقاء اليمامة، وعندئذ تستطيع القول: حقًّا! لقد عشت!» الرحلة في بدايتها، وكلّ هذا الهرف، وهذا التخريف، وهذه الثرثرة، حتّى قبل التعارف، فكيف إذا تعارفوا غدًا، وتزاوروا، وأخذوا، وأعطوا، وتطوّرت بينهم العلاقات، ووضعوا المقالي على النار، لقلي

سمك البحر الأبيض المتوسّط كلّه!؟ شبح! أيّ شبح أنا؟ كيف ولماذا؟ هل لأنّني أرغب في الابتعاد؟ في الانفراد بنفسي، للمطالعة أو التأمّل؟ في السهر متأخّرًا، والاستيقاظ متأخّرًا، وتناول طعامي متأخّرًا أيضًا!؟ وتلك المهسترة لويزا، والمخمور ألبرتو، والتحّ السكّير، وصطيف القبضاي.. والنمّامة، المستغيبة، نهّاشة اللّحم النيء، صالحة!؟ ثمّ هذه المغامرة، الشبقة، الجائعة أبدًا إلى الجنس، السيّدة جان توليب!؟»

كان بدر جالسًا على سريره يفكّر، في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل، وكانت عفراء قد فكّرت، بهدوئها بعذوبتها التصوّفيّة، وأغفت دون الحصول على ما تريد، من أمل أو يأس، في هذا الحلم الذي يعيش معها، وتتكتّم عليه بشدّة، وغيداء لم تجد أجوبة لأسئلتها، في ومض أشواقها التي استشعرتها حارّة، وحتّى حارقة، بعد أن شربت، وجمح خيالها، وراحت تتصوّر تهاويل ملوّنة، مزوّقة، للمغامرة المتوقّعة، لا تدري أين ومتى، وهل حدسها، الثابت والمتحوّل، في محلّه، أم أنّه وهم مراوغ، في رحلة تريدها ممتعة، فيأتي وغد مثل ناصر، يفسد عليها هذه المتعة، بكلام كذوب عن «شلّة الغلمان» التي يدّعي أنّها هي، غيداء، معجبة بهم!؟

بدر حسم الموقف: ابتعاد تدريجيّ عن جان، يقين راسخ أنّ غيداء التي «ستكون لي!» ستكون له مهما يطل الزمن. إنّه في كلّ مكان، وفي لا مكان، لا لأنّه يترصّد غيداء، يلاحقها، يتتبّع تحرّكاتها، بل لأنّه، كما اعتاد، لا يقحم نفسه عليها، مع

هزار كانت أم مع المعجبين، مكتفيًا بالنظر إليها من بعيد، وفي خاطره العبارة إيّاها، التي تكرّرت، دون تعب، دون ملل، منذ كان في كلّيّة الآداب، قبل زمن طويل، وهو، مع كلّ عام، وكلّ لقاء، وكلّ نظرة عابرة، وعلى مدى الأعوام، يردّد في ذاته، وبوثوق تامّ: «هذه المرأة ستكون لي!» دون أن تكون له، وليس، ثمّة، ما يعزّز وثوقه بأنّها ستكون له، حتّى في هذه الرّحلة البحريّة، التي قد تكون المصادفة لعبت دورًا فيها، ولو قليلاً، وسواء تعارفا، في أيّ مكان من هذه الباخرة، أو لم يتعارفا، لأنّه يراهن على وثوقه وليس على حبّه، ولو قال ذلك لأحد، أو علم به أحد، لعدّه من المجانين، كما يعدّه الذين، في غبائهم، أو غرابة أطوارهم، وأطواره كذلك، في الأشباح، مع أنّه بينهم ومعهم على باخرة واحدة.

«الرّجل، كما المرأة، يبحث عن الجنس، أنا لا أبحث عن الجنس، وأخطّط، بسببه، للهرب من السيّدة توليب، مع أنّها امرأة ذات ملاحة، وثقافة، وهي فنّانة، وأقضي معها أوقاتًا طيّبة، فهل أنا عاقل أم مجنون؟ وهل هناك، في الناس، الكثير من أمثالي، الذين يتراوحون بين العقل والجنون؟ ضحكتُ مع البارمان غابور، فقلت له إنّني أصطاد الغيم، فإذا المزاح ينقلب جَدًّا، وإذا بي أصطاد، في هذا الغيم، سيّدة ما كنت أحلم بها، وغدًا أو بعده، إذا غربلْتُ البحر، فقد تطلع، في غربالي، عروس البحر، وهذا ما يجلب السعادة، لأشدّ الناس تعاسة، لكنّه، بالنّسبة لي، أمر عاديّ، كأنّما القدر يداعبني، أو يتلاعب بي، فيرزقني ليرى ماذا أفعل برزقه، أحفظه أم أفرّط به؟ أنت، يا بدر، أَخْوَت، تفرّط بمنحة الغيم، وعطاء البحر، وكرم

السماء، لأنّك بَطِر، ومتى؟ في أنحس الأوقات، حين أنت عاطل عن العمل، مرفوض من المهنة، مرتكب خطأً فاحشًا، خطأ عمرك، كقبطان أوقعته، لغفلته، شعَب المرجان في منعرجاتها، مع أنّك تعرف هذه المنعرجات، وقد اجتزتها بسلام مرّات عديدة! وأنت، يا بدر، أشدّ خوتنة، لأنّك لا تعرف أن تستفيد من نعمة المصادفة عليك، فبدلاً من خروجك مع السيّدة توليب، والظهور معها في كلّ مكان، لشعلَلَة تلك التي تزعم أنّها ستكون لك، تفكّر بالتخلّي عن جان، كي تبدو إنسانًا خائبًا، منبوذًا، ليس من امرأة تكترث به!»

عفراء فكّرت، قبل أن تنام، على نحو مغاير. «هذا الحلم الجميل، الذي راودني منذ رأيت بدر، كان خلّبيًّا وسيبقى، لأنّه لا أمل! أنا لا أعرف، عمري كلّه، كيف أحقّق أحلامي، بسبب عَبَطي.. عبيطة أنا عندما أنسحب إلى قوقعتي، وأنتظر من يخرجني منها. عرفته من أوّل يوم، دافعت عنه، عاديت لويزا لأجله، وعرف ذلك كلّ من ناصر، دونما مبادرة منّي للفت نظره إليّ، للقاء به، في الكافتيريا، أو على السطح، وعندما جمعتنا المصادفة مرّتين: الأولى على مقدّمة الباخرة، والثانية في الكافتيريا، ورفع يده محيّيًا ناصر، وناظرًا إليّ، لم أبتسم له، ردًّا على التحيّة، كما تفعل أيّ فتاة، وهذا من السذاجة، من الشعور بالنقص، حيال إنسان مبهر، في أقواله وتصرّفاته، وفي تلك السخرية الذكيّة التي ردّ بها على لويزا، ثمّ أدار لها ظهره وهو ينظر إليّ.. بعد ذلك وقعتُ في مصيدة الخيبة، ما إن علمت أنّه يشرب مع سيّدة أجنبيّة على البار، وازدادت خيبتي، حين رأيته معها في مكان واحد، ضمّنا كلّنا، ومعنا غيداء

ومجموعتها. خجل! ارتباك! فقدان ثقة! كلّ هذه العوامل أحملها وراثة.. الزمن تغيّر وأنا كما كنت، تلك الفتاة التي من الكورة، والتي تبدو كأنّها لم تتعلّم، لم تدرس، لم تدخل الجامعة وتتخرّج وتعمل. روحي صافية كالسماء في تمّوز هذا، وقلبي طاهر كما قلب الطفل، فماذا ينفعني كلّ هذا!؟ أن أصلّي لأجله، كي يحفظه الله، ولكن لغيري، مع أنّني، وحدي، القادرة على إسعاده!؟ لا بأس! غدًا، سأكون جريئة، سأتكلّم، أناقش، أخاطبه مباشرة، ومن يدري، فقد يبتسم لي، وأبتسم له! آه! ما أروع ذلك لو صار!»

غيداء كانت تفكّر على نحو ثالث: «أكون على الباخرة، وقد سمع بي الجميع، واشتهى أن يراني الكثيرون، وتحلّق حولي من يتمنّى كلمة، ابتسامة، إشارة منّي، وهذا الحيوان، الذي كان قبطانًا لا أدري متى، لا يكترث بي، لا يقترب منّي، لا يجعلني أراه ولو من بعيد!؟ في الطائرة يكون الكابتن هو القائد، وهو موضع الثقة والطمأنينة في سلامة الوصول، من أجل ذلك له الرأي المسموع من قبل طاقمه، وفي الباخرة يكون القبطان هو القائد، وله مثل ما للكابتن، من الاحترام، المهابة، قوّة الشخصيّة، والسيطرة الكاملة، لأنّ أرواح الناس بين يديه، وهو المسؤول عن الكبيرة والصغيرة، وعن كلّ ما يجري على باخرته، لكنّ بدر هذا، على فرض أنّه قبطان، لا يهمّ على أيّ باخرة، من هو الآن؟ مجرّد راكب من الركّاب، إنسان عاديّ لا قيمة له ولا وزن، سكّير، التقط أوّل امرأة أجنبيّة ضحكت له، أو ضحكت عليه، التقاها على البار، وهي، غالبًا، فاحشة، مصابة لا أحد يعلم بأيّ مرض، أخضعته بشكل معيب، لا

يخضع لمثله المراهق، المحروم، عديم الشخصيّة، القبيح أو المشوّه، وجعلته يركض وراءها، يلازمها، يتباهى بها في الأماكن العامّة، أو يقوّد لها، هذا النذل الذي جلب العار لنفسه، كلبنانيّ يقوم برحلة مع مجموعة لبنانيّة، من اللّياقة أن يراعي مشاعرها، ألاّ يعامل فتاة طيّبة من أفرادها، مثل لويزا، معاملة ساخرة، ماجنة مثله!»

«هزار تنام بعد أن أعياها فهم التفكير الذي يدور في رأسي في الظهر، بعد الفرتونة، تعرّفت بناصر وأخته عفراء، وكلبنانيّين، كان من الطبيعيّ جدًّا أن يتعارفوا، أن يتصادقوا، أن يتحابّوا، وهذا ما جرى، لكن ناصر، خلال النزهة على السطح، وبشكل وقح، راح يتهجّم على لويزا، يتمدّح قبطانه، يستفزّ هزار، يردّ عليها بكلمات سوقيّة، حتّى اضطرّت أخته المهذّبة عفراء، أن تطلب منه الاعتذار، أو تعتذر نيابة عنه، لكنّه، بدلاً من ذلك، تمادى، وصل إلى حدّ التخرّس، بقول كلمات نابية عنّي، متشدّقًا أنّ الذين حولي، هم «شلّة من الغلمان»، وأنّني معجبة بهم، لأنّهم يتملّقونني، يخدعونني بالثناء على جمالي، مع أنّه لا جمال ولا جمّيز، وأنّني أتصابى، بعد أن تجاوزت الأربعين!»

«هزار، بقلّة تجربتها، وعفويّتها، وطيبتها، ولكونها بغوة بعد، حسبت أنّني سأنقضّ على ناصر، هذا الرّقيع، ما إن أراه! استغربت، نامت وهي مستغربة، كيف يسيء إليّ ناصر، وأرحّب به وبأخته، عندما التقينا على السطح، وكيف ألاطفه، أبتسم له، أجالسه في الكافتيريا، وأطري حتّى خشونته، ثمّ أقول عنه إنّه كلب، ونحن في المطعم! فاتها أنّ ملاطفتي لناصر

كانت دهاء، وأنّ قوّة الشخصيّة، إذا كان ينقصها الدهاء لا قوّة، وأنّ تصفية الحساب تضرّ بها العجلة، وأنّ الردّ على المسيء، لا تكون، غالبًا، بالساعد أو اللّسان أو شرر النظر، هذه لها دورها، وكذلك وقتها، إلاّ أنّ الدهاء له كلّ الدور وكلّ الوقت! وقد تكون هزار حزرت شيئًا ما، أو خمّنت بعض ما أنوي، وبعض ما أضمر، إلاّ أنّها لم تتوصّل إلى شيء مؤكّد، ولهذا عجبت من روح التحدّي التي تلبّستني، ومن إصراري على الشرب علنًا، وفي مكان عام مثل الكافتيريا، ومن تصرّفي الودود مع جمانة ومحاميها عبد الصمد، وإخفاء ما بي تحت قناع من الابتسام، ومن التظاهر بأنّ الأمور طبيعيّة، وليس هناك ما يشغلني أو يغضبني، وهذا يعني النجاح، كالعادة، في لعب دوري بإتقان، والتحكّم بأعصابي كما ينبغي».

«لم أفلح، طبعًا، في معرفة كلّ شيء عن هذا القبطان الزائف، من ناصر أو عفراء، ولم يفدني في شيء أن أعرف أنّ بدر استفزّ لويزا بقوله إنّه يتمنّى حدوث عاصفة ليتفرّج عليها، وأنّ ملاسنة جرت بينهما، وأنّه سخر منها بحديثه المتعمّد عن الجنون، لأنّنا «عقلاء كلّنا، وهذه بليّتنا!» أو أنّ قبطان ناصر انتزع السكّين من ألبرتو الإيطالي، وهزمه بهدوء من غير ضجّة، وأنّ هذا الشهم بدر ساعد الناس، خلال الفرتونة، على سطح الباخرة، وأنّ امتثال معجبة به، وأنّ عصام، صديقها، شهد له بالمروءة، وكلّ هذا العلاك الذي يُقال، بين جماعة الرحلة، بقصد إضفاء بطولة ما، على رجل لم يُظهر، حتّى الآن، أيّ بطولة حقيقيّة ومقنعة، وأنّه كالشبح، يظهر ويختفي، وأنّ شبحيّته هذه أثارت فضولي، بين الرّجال والنّساء، والكلّ يرغب

في رؤيته، معرفته، والدوران في فلكه، مثل هذا الأهبل ناصر، الذي اتّهم هزار بأنّها ذيل لي، متناسيًا أنّه ذنب، هو الآخر، وبشكل مهووس، لحصان هذا الفارس الذي أوهم الناس، وخدعهم، بفروسيّته المختلقة، وهو لا يبدو أن يكون بهلوانًا، يلعب على حبال خياليّة، تنسجها عقول مخبّلة، لم تتبيّن، بصورة متأنّية، غاية هذا البهلوان، وسبب زوغانه، وتهرّبه، من المواجهة الضروريّة، كي يبقى مجهولاً، ويلقّبه الذين افتتنوا ببهلوانيّته، بالرّجل المجهول!»

هكذا بقيت غيداء، مستثارة بفعل الويسكي، وفعل الدوران على محور ذاتها، تجترّ أفكارًا لا يخالجها فيها شكّ، مئة في المئة. وبعد أن استلقت على سريرها، تساءلت «ولكن ما النفع، إذا لم تبلّغ الآخرين بما تفكّر به، قبل أن يجري الماء من تحتهم!؟» أضافت بعد قليل: «لويزا ستكون هناك، وهذا جيّد، جيّد جدًّا!» ثمّ أغفت وهي مسرورة، ومطمئنّة كذلك!

ـ ٩ ـ

في الساعة العاشرة والنصف، كانت صالحة جمجوم في المطعم، في الزاوية المخصّصة للقاء. سبقت غيرها على أمل أن تجد بدر الزرقا، الذي لم يلبّ دعوتها إلى قهوة الصباح، ولا في أيّ يوم، ولم تره بعد ذلك الاجتماع الذي رغبت فيه، وبدر يستمع إليها، مندهشًا، مشمئزًّا، من وجود امرأة كهلة تقريبًا، تدّعي الكتابة الأدبيّة، وتغتاب الناس، كلّ الناس، دون حياء، أو رادع من ضمير. كان ذهن صالحة، يتفتّق عن افتراءات رهيبة، تنسجها نسجًا حكائيًّا، وتخرجها بإتقان، حتّى ليصدّق من تفاتحه بما في صدرها من حقد، وكره، أنّ ما تقوله، أو بعض ما تقوله، واقع، وليس من فبركة مخيّلة خبيثة، شبه مريضة بداء الاستغابة الشرّيرة، وأنّ همّ هذه المرأة، التي تراقب الآخرين، من الصباح إلى المساء، هو معرفة تحرّكاتهم، ومع من يتحرّكون، وخاصّة النّساء، وشيّ أعراضهم على نار فحميّة متأجّجة، بغير رحمة. أمّا سبب تقرّب صالحة من بدر، وبحثها عنه، فهو الحماية، لظنّها أنّه سينخدع بها، ويحميها، نتيجة معرفة قديمة، تعود إلى أيّام دراسته الأدب، وحضوره بعض الأمسيات الأدبيّة.. وقد

بكّرت اليوم، كي لا يفوتها شيء، وتتعرّف إلى الجميع، وتستسنح الفرصة كي تنفرد بهذا أو تلك، وتنفث، كأفعى رقطاء، سمّها، حيثما وسعها ذلك.

لم يكتمل الحضور، في الموعد المحدّد، رغم توافد أفراد مجموعة الرّحلة، بالتتالي، وبشكل متقطّع، فتقرّر التمديد ربع ساعة، بذريعة أنّ «الغائب حجّته معه» وكانت غيداء وهزار، من بين الذين وصلوا في اللّحظة الأخيرة، وكاد اللّقاء يبدأ، عندما دخل بدر الزرقا، ودار حول الحاضرين، ليجلس في آخر المكان، وراء غيداء ومن حولها، دون أن يلفت إليه الأنظار، بقدر ما استطاع، حتّى حسب الذين كانوا يتوقّعون حضوره، أنّه لن يحضر، وهذا ما أثار استغراب بعضهم، ومن ضمنهم غيداء وهزار، وصبيحة الدعجاوي، التي كانت ترغب أن تراه، وأن تذكّره بأيّام حلْقتها الأدبيّة، ومداومته على حضورها.

افتتح لقاء التعارف السيّد إبراهيم الشفّاط، بكلمة موجزة، أشاد فيها بلبنان، وباللبنانيّين، مقيمين ومرتحلين، وحيثما كانوا، في مغترباتهم، وما أنجزوا وقدّموا، وما أعطى الوطن الصغير، الأخضر، من إبداع، وما أصاب إبداعه من لظى الحرب الأهليّة، مرحّبًا بجميع المشتركين في الرحلة، سعيدًا بالتعرّف إليهم، فردًا فردًا، وسعيدًا بتعارفهم، بعضًا إلى بعض، لأهمِّيَّة ذلك وضرورته، حتّى لا يكون هناك سوء تفاهم، بل بالعكس، حسن تفاهم، وتحابب، وتعاون، وصيانة لسمعة لبنان، وكي يكونوا، جميعًا، يدًا واحدة، وقلبًا واحدًا، في هذه الرّحلة المحروسة بعناية الله، والممتعة بالنّسبة لجميع المشتركين فيها.

صفّق الحاضرون، شاعت البهجة، اقترح إبراهيم الشفّاط، الذي يدير جلسة اللّقاء مؤقّتًا، أن يقف كلّ واحد، كلّ واحدة، من الأخوة والأخوات الحاضرين، ويعرّف بنفسه، كما يرى ذلك مناسبًا، ولكن دون تطويل. وقفت صالحة جمجوم، قالت إنّها أشهر من أن تُعرَّف، باعتبارها أديبة معروفة من الجميع، الذين في لبنان أو على ظهر الباخرة، ومع ذلك فإنّها، نشدانًا للمساواة، وعدم الخروج عن الخطّ، فإنّها هي، صالحة جمجوم، من المتن، وإنّها تعتزم وضع كتاب عن هذه الرّحلة، سيكون له شأن كبير!

صفّق الحاضرون، فانحنت لهم وجلست، تدخّل السيد إبراهيم راجيًا من الجميع الاختصار، بذكر الاسم والمهنة، ومكان الإقامة، ومن أيّ ناحية في لبنان، وهذا يكفي، «هل أنتم موافقون؟» أجابوا «موافقون!» «إذن تفضّلوا!» تفضّل الجميع، الواحد بعد الآخر، باستثناء بدر الزرقا، الذي تغيّب قليلاً وعاد، فلم ينتبه إليه أحد، لأنّ الضجّة كانت قد علت، حول اختيار أحد الحاضرين، ليكون المرجع المسؤول، طول الرّحلة، فوقف راتب جمل، خجولاً، مرتكبًا، قائلاً:

- أقترح الأستاذ إبراهيم بك الشفّاط، هذا الرّجل الأعقل بيننا!

اعترض المحامي رهيف عبد الصمد قائلاً:

- لديّ بعض الملاحظات الشكليّة، لكنّني أجدها مهمّة.. أوّل هذه الملاحظات التخلّي عن الألقاب، مثل بك وأفندي وزعيم وغيرها، والاكتفاء بإحدى كلمتين: أستاذ أو سيّد،

والملاحظة الثانية، وهي شكليّة جدًّا، قول الذي رشّح السيّد إبراهيم أنّه «الأعقل بيننا!» وأرجّح أنّه يقصد الأكبر سنًّا بيننا، أمّا الملاحظة الثالثة فإنّ المرشّح لا يتقن أيّة لغة أجنبيّة، وهي ضروريّة جدًّا ونحن على باخرة أجنبيّة، ومعنا ركّاب أجانب أيضًا، والملاحظة الرابعة هي أنّ المرشّح من البقاع، بينما الأنسب أن يكون من بيروت، باعتبارها العاصمة!

تصدّت له السيّدة صالحة جمجوم قائلة:

ـ أوّلاً نحن من لبنان، وفي لبنان حرّيّة، ومساواة بين المرأة والرّجل، وأنا أديبة..

قاطعها صوت:

ـ مشهورة! وبعد؟

تابعت صالحة:

ـ نعم! مشهورة ونصّ، وأتقن الفرنسيّة والإنكليزيّة، ومن ناحية ثانية فإنّ علينا إبراز وجه لبنان الحضاريّ، وألاّ ندع أحدًا يسبقنا في هذا المضمار، بعد أن سبقنا الكثيرون، في الغرب والشرق، فعيّنوا تاتشر رئيسة وزراء في بريطانيا، وأنديرا غاندي في الهند، وتانسو شيلر في تركيا! نعم في تركيا! لذلك، وباختصار شديد أرشّح نفسي، لما ألمس فيها من جدارة، ولكوني من بيروت، عاصمتنا الجميلة!

وقف صطيف القمطي معترضًا:

ـ أنا بسطاوي ابن بسطاوي، لا تهمّني تاتشر أو غاندي أو ناطسو..

أصوات مقاطعة:

- تانسو..

- بطّيخ! أنا لا تهمّني ملكة الإنكليز نفسها، لذلك فإنّ ترئيس امرأة علينا باطل، وعيب على شواربي إذا حدث هذا وأنا على هذه الباخرة!

وقف التخّ صائحًا:

- هذا كلام من ذهب.. نحن من جماعة «البَمْ بَمْ!» عند اللّزوم، ولا نقبل حرمة على رأسنا، وبلا أدب وشهرة وتفشير.. مفهوم!؟

قالت الآنسة امتثال:

- نرفض التهديد، من أيّ جهة، ولا مكان للزعرنة بيننا! ثمّ نحن من أنصار اللاّمركزيّة، فبيروت مثل الكورة، مثل البقاع، مثل المتن.. أؤيّد ترشيح السيّد إبراهيم الشفّاط، وكفانا ملاحظات وتفشيرات.. زمن التشبيح ولّى، ومن لا يعجبه يشرب البحر!

قال عصام البرم:

- أنا نحّات! يعني فنّانًا متحضّرًا، وبهذه الصفة، ولكوني من البترون، وأجيد اللّغات، فإنّ لي الأفضليّة، وبانتخابي يتحقّق الحلّ الوسط، فلا من الشمال ولا من الجنوب، ولا من المتن أو الشوف، ثمّ إنّني من أنصار اللاّمركزيّة، وأحترم المرأة، وضدّ أيّ نوع من التهديد، أمّا قبضايات الانتخابات، وجماعات «البَمْ بَمْ!» ومن هم على شاكلتهم، فقد مضى زمنهم، ونحتاج، هنا، إلى الدماغ وليس إلى

الزند. .

قالت السيّدة صبيحة الدعجاوي:

- يا جماعة، يا هو! نحن لا نرشّح للنيابة أو الوزارة، المسألة كلّها لا تستاهل الأخذ والعَطي، نريد رجلاً، أو امرأة، يكون، أو تكون، مرجعًا مؤقّتًا لنا خلال الرّحلة. . فلماذا الضجيج والعجيج!؟ وعلى أيّ شيء!؟ ولماذا الاختلاف بدل الاتّفاق؟

قال خضر البرقوق:

- لأنّنا، يا ستّ صبيحة من لبنان، والذين من لبنان اتّفقوا على أن لا يتّفقوا، في الوطن وخارجه، وهذه مصيبة المصائب عندنا!

قال السيّد إبراهيم الشفّاط بهدوء ورصانة:

- يا إخوتي وأخواتي! الاجتماع طال، والمطعم أمهلنا ساعة واحدة، بسبب الإعداد للغداء. . واختصارًا للوقت، ولأنّني غير مؤهّل، فأنا غير مرشّح، وشاكر للجميع مودّتهم وحسن ظنّهم بي، وكي ننتهي بسرعة، فإنّ لديّ اقتراحًا طيّبًا، أحسب أنّه سيلقى القبول من الجميع، وهو ترشيح الأخ بدر الزرقا، الذي يعرف البحر وأحواله، ويتقن اللّغات، وهو، كما سمعت، قبطان سابق، فما رأيكم؟

صفّق أكثر الحاضرين، وبحماسة، وخاصّة ناصر وصطيف والتحّ، إلاّ أنّ الموجودين فوجئوا بالآنسة لويزا، تقف مكفهرّة، مرتجفة وهي تصرخ:

- أوباش! ما هذا التصفيق ولمن!؟ لإنسان يتمنّى هبوب

عاصفة كي يتفرّج ويرضي غروره؟ لواحد من لبنان، ولا يريد السلامة والخير للّبنانيّين؟ لسكّير مدمن، وعشير أجنبيّات سفيهات مثله؟

حاول إبراهيم الشفّاط مقاطعتها، صفّر لها صطيف والتحّ، حاولت السيّدة صبيحة تهدئتها، لكنّها استمرّت في هيجانها، وفي ترديد كلّ ما فكّرت به غيداء اللّيلة البارحة، وعندما انتهت، أو أُنهيت، وقف بدر الزرقا وقال:

ـ أعرف الآنسة لويزا، وأعرف سيّدة، موجودة هنا، كانت عندها صباح اليوم، وبإخلاص أقول لكم: كلّ ما قالته الآنسة المحترمة لويزا صحيح! شكرًا!

تلفّظ بدر بهذه الكلمات، أدار ظهره ومضى، خارجًا، كما دخل، من باب جانبيّ، دون أن يلتفت، أو يصغي للنداءات، أو يكترث بالضجّة التي ثارت بعده، أو بالذين رغبوا برؤيته، أو التعرّف عليه جيّدًا، وعن قرب، أو بسباب لويزا، والسباب المضادّ، من ناصر وصطيف والتحّ وغيرهم، وإبراهيم الشفّاط الذي وقف، كما الجميع، يتمتم: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله»، بينما وقفت عفراء أسيفة، شاحبة، وغيداء مرتبكة، تحاول أن تبتسم اغتصابًا، وأن تتماسك، لفهمها أنّ بدر كشفها، وأنّه عناها من غير أن يسمّيها، وأنّه رغب حتّى عن رؤيتها، فتعمّد أن يدخل من باب جانبيّ، وأن يجلس بعيدًا عنها، ووراءها تمامًا!

تفرّق جماعة الرّحلة دون أن يتّفقوا، لم يستغرب أكثرهم عدم الاتّفاق، فما قالته صبيحة الدعجاوي كان تعبيرًا علنيًّا، عن هذا الاختلاف المزمن، الممزّق للصفوف، والكائن

رسوخًا متجذّرًا في النفس والتربة، منذ قرون طويلة، لا ينفع فيه الوعظ والإرشاد. التعارف هو الحصيلة الوحيدة للقاء، هذا لا بأس به في رأي إبراهيم الشفّاط، وهذا مخزٍ في رأي المحامي رهيف المصمودي، وهو، الاختلاف، عادة تقليديّة سيّئة، ملازمة، والتعارف لم يتمّ كما ينبغي في رأي عصام البُرُم، النحّات، والسيّدة صالحة جمجوم، أسفت جدًّا لهذا الانحطاط في مستوى الأخلاق! وامتثال زوفا استهجنت حملة الآنسة لويزا على بدر الزرقا، والسيّدة صبيحة الدعجاوي، التي كانت تفكّر بإقامة أمسية أدبيّة، تخلّت، نهائيًّا عن فكرتها، وخضر البرقوق تنبّأ بما حدث، لأنّه مطّلع على مستوى رفيع، والباقون عبّروا، كلّ بطريقته، عن آرائهم، خلال اللّقاء، وبكلّ صراحة!! والجميع، خاصّة النّساء، تساءلوا عن السيّدة التي حرّضت لويزا، وأبى أن يذكر اسمها بدر الزرقا، تعفّفًا، لكنّهم، والسيّدة صالحة جمجوم تخصيصًا، لم ييأسوا من معرفتها «وهذا ضروريّ، وهامّ جدًّا، بالنّسبة للكتاب الذي سأضعه عن الرّحلة، وأنشر فيه الأعراض على البيارق!»

فائدة أخرى، أسفر عنها اللّقاء، هي اكتشاف الكافتيريا، التي توجّه إليها المتلاقون، الواحد إثر الآخر، لشرب القهوة، ومتابعة الكلام، تعليقًا على ما جرى! ولأنّ المكان مزدحم، فإنّ بعضهم اكتفى برؤيته، واستعراض الزبائن، ومعرفة ما يُقدّم لهم، والاطّلاع السريع، مع التعزّي، لأنّ التنزّه على السطح، ريثما يحين موعد الغداء، أفضل، فهم بحاجة إلى التنفّس، في الهواء الطلق، ومواصلة الحديث على الماشي.

بدر الزرقا، الذي حسبوه اختفى، كالعادة، كان في قمرته

يطالع كتابًا عن الحيوانات البحريّة، والأعماق التي تتواجد فيها، وغرائب خصائصها، متناسيًا «المهزلة التي حدثت، والتي اصطنعها بعض المهرّجين من الجنسين!» وغيداء عادت، مع «وصيفتها» هزار، بصداع شديد إلى القمرة، فتناولت حبّتين من الأسبرين، واستلقت على سريرها، بغير كلام «لأنّ الكلام لا ينفع!» كما قالت لهزار، بعد مغادرة المطعم، وهي متعبة، لإطالتها السهر ليلة أمس، ولموقف بدر غير المتوقّع، والضوضاء التي نشبت، من جرّاء البهْورة، والأخذ والردّ بين لويزا، و«بعض الرعاع» الذين حرّضهم مسبقًا عليها، والأهمّ الأهمّ! لأنّ بدر عرف، بشكل ما، أنّها ذهبت، قبل لقاء التعارف، إلى لويزا، مع أنّها، غيداء، كتمت خبر هذه الزيارة، حتّى عن هزار نفسها!

على مائدة الغداء، في المطعم، جلست السيّدة صبيحة الدعجاوي، مع جمانة وعبد الصمد، على طاولة واحدة. تعمّدت ذلك السيّدة صبيحة، التي قبّلت جمانة بشوق وحرارة، لأنّها لم تكن تعرف، كما قالت، أنّ جمانة في الرّحلة، وهذا مؤسف، ولولا لقاء التعارف، لما التقت بها، بشكل مفاجئ، أدخل البهجة إلى نفسها.. بعد تناول الحساء، وبانتظار «طبق اليوم» أشعلت جمانة سيكارة، وفعلت مثلها السيّدة صبيحة، ودون تمهيد، أبدت هذه استنكارها لموقف لويزا من بدر، قائلة:

ـ ما كان يصحّ أن تتلفّظ آنسة، بعبارات طائشة، ضدّ رجل محترم مثل بدر.

سأل عبد الصّمد:

ـ هل تعرفين بدر يا سيّدة صبيحة؟
ـ تمام المعرفة، ولكن من قديم، عندما كان يدرس في كلّيَّة الآداب، ولا تفوته أمسية أدبيّة عندي!
ـ عجيب!
ـ وما هو العجيب؟ أن يهتمّ شابّ بالأمسيات الأدبيّة، وهو يدرس الآداب؟
ـ لا! ولكن بدر الذي تعرفينه غير بدر هذا! هناك إشكال!
ـ أيّ إشكال هذا؟ رأيته، في لقاء اليوم، فابتسم لي، وحيّاني من بعيد!
ـ ولماذا لم يعرّف بنفسه كالآخرين؟
ـ لا أدري! ربّما كان خارج صالة المطعم!

جاءت الأطباق، شرعوا في تناول الطعام، ومواصلة الحديث.. قالت جمانة:

ـ هو الذي تعمّد أن يكون خارج الصالة، كيلا يُعرّف بنفسه كالآخرين!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ ما أظنّ!

قالت جمانة:

ـ بلى! ظنّي، تعمّد ذلك كيلا يعرفه الحاضرون!
ـ وما غايته من ذلك؟
ـ أن يبقى مجهولاً! ألم تسمعي أنّ بعض جماعة الرّحلة يسمّونه «الرّجل المجهول؟» هذا يلفت الأنظار إليه أكثر.
ـ وما حاجته لذلك؟

قالت جمانة:

ـ الانحراف الخُلُقي!

لم ترتح السيّدة صبيحة. ردّت:

ـ قول كهذا لا يجوز!

شاركها عبد الصّمد الرّأي:

ـ نعم! لا يجوز!

أضافت جمانة متسائلة:

ـ ولكن لماذا يقولون إنّه قبطان سابق، إذا كان قد درس الآداب؟ هناك التباس في الأمر يا سيّدة صبيحة.. بدر هذا غير الذي تعرفينه!

بدت الحيرة على السيّدة صبيحة، قالت:

ـ أكذّب عينيّ!؟ سمعت أنّه قبطان، بغير تفاصيل، من المحتمل أن يكون، بعد تخرّجه من الجامعة، قد التحق بالبحر.. إنّه يعرفني جيّدًا يا عزيزتي جمانة.

ـ هو يعرفك!؟ أين؟

ـ والأمسيات الأدبيّة، وحفلات الكوكتيل، التي كُنت أنظّمها، وكنتِ تحضرينها دائمًا؟

ـ وأين كان هو إذن!؟ لو كان موجودًا لعرفته.

ـ كان موجودًا ولكن من بعيد، ربّما!

ـ ولماذا من بعيد؟

ـ مسألة مزاج!

ـ أو عجرفة!!

ـ أعرفه خلوقًا، مهذّبًا، لمّاحًا، قويّ الشخصيّة..

ـ وحادّ الطبع أيضًا! هو الذي بلّش العداء مع لويزا.. يتقوّى على فتاة!؟

قالت السيّدة صبيحة وهي تنهض:

ـ هذه فتاة!؟ الفتاة لا تُقذع في الكلام هكذا!

ـ مهما يكن، يا ستّ صبيحة، تبقى فتاة، ومعنا في الرّحلة!

ـ وماذا فعل لها؟ وبماذا أجاب على سبابها؟ قال، أمام الجميع، «كلّ ما قالته لويزا صحيح!» وبذلك حسم الشرّ، تقبّل شتائمها لأنّها بنت! لكنّ الحقّ ليس عليها، على السيّدة التي كانت عندها وحرّضتها، ولا بدّ أن نعرف هذه السيّدة الموتورة.. بخاطرك يا عزيزتي، ولكن يا جمانة، يا صديقتي، لا تتسرّعي بالحكم على الناس، بدر غير منحرف خلقيًّا، صدّقيني، إنّه، كما أعرفه، صاحب كرامة وشهامة.. إلى اللّقاء!

قالت جمانة بعد أن افترقوا:

ـ صبيحة هذه خرفانة، بدر منحرف ومنحرف! لماذا الدفاع عنه؟

كذلك كان رأي هزار ببدر، قالت لغيداء بعد الغداء، وهما في الطريق إلى القمرة:

ـ أفسد علينا الرّحلة، أفسد الله عمره.

ـ بماذا أفسد عليك الرّحلة؟

ـ بتفاهاته! وبكذبه،، من أين اختلق مسألة السيّدة التي حرّضت لويزا؟

ـ وأيضًا!؟

دخلتا القمرة، جلستا، أشعلت غيداء سيكارة، قالت هزار:

ـ «أيضًا» هذه سخرية! تسخرين منّي؟

ـ العفو!

ـ وهذه سخرية!

ـ من غير عفو!

ـ وهذه سخرية!

ـ ما رأيك أن تنامي، أو تذهبي كي أنام؟

ـ أذهب!

قالت ذلك هزار بغضب، خرجت، أغلقت الباب وراءها بعنف، تركتها غيداء تذهب، كانت في الحالة التي تلجأ فيها، غيداء، إلى السكوت، لأنّها راغبة عن الكلام، وعن التفكير، وعن النوم، وبحاجة إلى التركيز، بعد أن تشتّت ذهنها، بسبب كلّ ما جرى، وكلّ ما سمعت هذا اليوم، وبعد أن استعادت، ما إن رأت صبيحة الدعجاوي، ذكريات قديمة، تعود إلى أيّام الجامعة، وما تلاها، وإلى زواجها، ووفاة هذا الزوج، في ذلك الحادث المشؤوم، حادث السيّارة الذي كان فيه الخطأ على الغير، وبقائها أرملة، تصدّ عنها غلاظات الذين ظنّوا، أنّها سهلة المنال، بسبب الترمّل، والذين يتملّقونها، ويلاحقونها بأشخاصهم وهواتفهم، عارضين عليها الزواج، هذا الذي رفضته، وبإصرار، كي تتفرّغ لتربية طفليها، نادر وسهى، إلى أن كبرا، وتقدّم بها العمر، ولم تجد الرّجل الملائم، الذي يعوّضها عن زوجها الرّاحل. «ما أشقّ الحياة، عندما تترمّل المرأة، وتصبح عرضة للطمع، للاستغابة، للشائعات الكاذبة، في مجتمع ظالم، لا يرى في المرأة سوى

جسدها، فيروح كلّ من حولها يحصي عليها أنفاسها، أو يفتري عليها، إذا خاب شرهه إليها، أو إذا دفعته، بلين أو قسوة، عنها، مع أنّها إنسانة، ولها عواطفها، وغرائزها، وتحتاج إلى من يقف إلى جانبها، يردّ عنها الأذى، الكيد، الحقارات، وبكلّ أنواعها! وتحتاج إلى من يرى إلى روحها لا إلى جسدها فقط! إلى من يبادلها الحبّ، بصدق وشرف.. جمالي جنى عليّ، ليتني لم أكن جميلة، مع أنّني قويّة بما يكفي، لأحمي نفسي وجمالي، لو كان هذا المجتمع، كالمجتمعات الأخرى، المتقدّمة، يعرف قدر المرأة، ويترك لها هامشًا للتصرّف، للتصادق، مع من هو جدير بالصداقة، ولأنّني افتقدت هذا كلّه، وتألّمت لفقدانه، فقد تحدّيت، ولا أزال أتحدّى، وسأبقى، دون مبالاة بأحد، ودون تهالك على أحد، وبشكل رصين، أحترم فيه الآخر، بقدر ما يحترمني الآخر، وبقدر ما هو جدير، ومؤتمن، وصادق، وبعيد عن الرّخص والابتذال.. أعترف. أخطأت، على مدى عمري، بعض الأخطاء، لكن أين هو الكائن الذي لا يخطئ؟ وأين المخلوق الذي تموت فيه الرغبات، عندما تكون رغباته تتناسب وسنّه؟ إنّني في الخامسة والأربعين، في سنّ اليأس كما يقولون، أو على مشارفه، لكنّني، أنا، لم أيأس، ولن أيأس، حتّى لو تجاوزت الستّين، فما لهؤلاء الأوباش وما لي؟ ولماذا تلاحقني النظرات النهمة؟ وهذا الذي اسمه بدر، هل يعرفني حقيقة كما تقول الستّ صبيحة؟ يعرفني من بعيد! ما شاء الله! ولماذا؟ هل يفكّر بي، إذا كان يعرفني، بالخير أم بالشرّ؟ هل يراقبني أيضًا؟ كيف عرف بذهابي إلى لويزا؟ وهل كنت، أنا، مصيبة في هذا الذهاب؟

وهل ما فكّرت فيه، إلى وقت متأخّر من ليلة أمس، كان صحيحًا، لائقًا، مناسبًا لامرأة مثلي؟ الجواب: لا! إذا كان ما قالته صبيحة عنه جدّيًّا، وعن معرفة، وعن معزّة لي، كما تؤكّد!»

قبيل الغروب كان إبراهيم الشفّاط في مجلسه المعتاد، على مقدّمة السفينة، وكان الحرّ شديدًا، والجوّ لم يتبرّد، والرّطوبة مرتفعة جدًّا، والذين على السطح، تحت الشمس، ينتظرون فرج اللّيل، كي تتوقّف وجوههم وأبدانهم عن التعرّق. في هذا الوقت، كان المسبح غاصًّا، وأغلب السابحين والسابحات من الأجانب، سوى قلّة من الشباب اللبنانيّين، وجدوا في المسبح وسيلتهم للابتراد، والتسلّي، والتمتّع برؤية من يسبح من النساء، وكلّهنّ أجنبيّات، لأنّ أيّما امرأة عربيّة أو شرقيّة، لم تغامر بسمعتها وتسبح، مع أنّ النساء يسبحن في لبنان، وربّما في بلدان أخرى، حتّى الشرقيّة منها، وقد تجرّأت هزار وحدها وسبحت، وتردّدت غيداء، ومثلها النساء المشتركات في الرحلة، والوحيدة التي لم تقترب من المسبح، كانت لويزا، التي تخاف الماء، حتّى في بركة.

كان مجلس إبراهيم الشفّاط، عند جؤجؤ السفينة، معروفًا في مثل هذا الوقت، والحلقة، في هذا المجلس، تتّسع، وتعود بعد العشاء، للسمر والتمتّع بضوء القمر، وكانت لويزا لا تتخلّف، رغم أنّ حضورها غير مرحّب به، عن المجيء، والمشاركة في أيّ حديث، بطريقتها العصبيّة، الاستفزازيّة، التي ينصحها العمّ إبراهيم بالإقلاع عنها، لأنّها لا تليق بها، هي خرّيجة قسم التاريخ من الكسليك، وقد استعاذ بالله اليوم،

وهو يراها مقبلة، قائلاً في سرّه «اللّهمّ نجّنا من الشرّ، ومن صفرة لويزا التي بلا مرض، واحفظ علينا ديننا، وجمّلنا بالصبر، حتّى لا ننساق إلى ما لا يرضيك، من قول فيه إساءة إلى أحد». أخرج، بعد هذه التعويذة، مسبحته، فراحت حبّاتها تطقطق بين أصابعه، وهو يتحدّث عن بعض أسفاره، حديثًا عذبًا، يأنس له من حوله، لأنّه ممتع، ولأنّ حديثه كان يتناول الجوانب الممتعة من هذه الأسفار.

في البدء أصغت لويزا، لكن عندما قال أحد الموجودين:

ـ السفر ممتع والله!

نبرت:

ـ طبعًا ممتع، إذا لم يكن فيه من يخيف المسافرين، ومن ينصب شراكه لهم!

قالت أمّ أسامة، وابنها قربها:

ـ أنت، والله، من نصب الشراك، في لقاء التعارف اليوم!

قالت بنزق:

ـ أيّ شراك نصبت أنا؟ أم أنّ من يقول الحقّ يُرجم؟

قال التحّ:

ـ ترجمين بلدًا بكاملها، وتفتحين للشرّ ألف طاقة!

ـ اِخرس أنت يا ذنب الكلب!

ـ أنا ذنب الكلب!؟ اِسمع يا عمّ إبراهيم.

قال العمّ إبراهيم:

ـ دعونا نفهم! ما هو مأخذك على بدر؟

ـ أوّلاً لم يعرّف بنفسه مثلنا جميعًا، وثانيًا دخل وخرج من

باب جانبيّ، وثالثًا يتحرّك بالخفاء، ليصنع لنفسه هالة من البطولة الزائفة، ورابعًا. .

قاطعها إبراهيم الشفّاط:

ـ بسّ! بسّ يا لويزا، رابعًا هذه اعفنا منها. . أنت يا لويزا، يا بنتي، من فتح بوّابة السيل علينا!

قال خضر البرقوق:

ـ هذه هي الحقيقة، عدم المؤاخذة، من يطرق الباب يسمع الجواب!

ردّت لويزا:

ـ جوابك وصل، يا صاحب الحلول الوسط، البايخة!

سألتها امتثال:

ـ قولي لنا، ما الذي يزعجك في بدر؟

ـ حركاته! لماذا لا يكون كالآخرين!؟ القبطان الحقيقيّ يكون متواضعًا، ما مثل هذا المتعجرف!

قال عصام البُرُم:

ـ وماذا رأيتِ، أو رأينا، من عجرفته؟ قولي يا أمّ أسامة، كيف ساعدك أنت وابنك عندما هبّت الفرتونة على الباخرة؟

ـ كما يعامل الأخ أخته وزيادة! بحّار بحقّ وحقيق، وكلّه نخوة وشهامة!

قال التحّ:

ـ وماذا كان جزاؤه؟ سطل من مائك العكر يا لويزا! قليل من الحياء فقط!

قالت لويزا:

ـ سامع يا عمّ إبراهيم؟ يرضيك هذا؟

قال العمّ إبراهيم:

ـ طبعًا لا يرضيني! لا تؤاخذوني، حلّ موعد صلاة المغرب، سنعود بعد العشاء.

وقال في سرّه وهو يغادر الحلقة:

ـ «خذ الحكمة من أفواه المجانين! لويزا هذه ليست مجنونة، إنّها عقربة، إلاّ أنّ ملاحظاتها في محلّها.. حركات بدر، غير مستقيمة أحيانًا! لماذا لم يعرّف عن نفسه مثل غيره؟ ولماذا الدخول والخروج من باب جانبيّ؟ وما الداعي للتخفّي؟ بدر كيّس، شهم، شجاع، لكنّه مغرور قليلاً!»

أضاف إبراهيم الشقّاط وهو يسير مبتعدًا عن المسبح:

ـ «الغرور صناعة بشريّة.. المغرور يصنع الناسُ غرورَه، يجعلونه، بمدائحهم، مغرورًا، وغيره كذلك.. البالون يكبر حجمه إذا نفختَ فيه، وإذا زدت في النفخ انفجر، وهناك دائمًا من ينفخ، كما هناك، دائمًا، من يستمرئ النفخ حتّى ينفجر، دون أن يحسّ.. طبعًا بدر ليس على هذه الشاكلة، ابن بحر عن صحيح، قبطان وأكثر، لكنّ عيبه ثقته الزائدة بنفسه! أنا هكذا أفسّر حادثته في البحر الأحمر، إذا كانت واقعة فعلاً. وثق بنفسه فأفرط! الإفراط في الشي يؤدّي إلى عكسه! لا ألومه على تصرّفاته الأخرى، لأنّها من خصوصيّاته، إلاّ أنّ عليه، مهما كان فرديًا، أن يراعي مشاعر الجماعة، أن يكون بينهم، كواحد منهم، لا أن يغالي في فرديّته، فالمغالاة فيها تؤدّي، أعوذ بالله، إلى

التشوّف، وهذا، بدوره، يؤدّي إلى النرجسيّة! عند بدر بعض النرجسيّة، والله أعلم.. لكنّ ترشيحي له في محلّه، فنحن في البحر، وفي البحر يبقى بدر أنسب من الجميع!»

ـ ١٠ ـ

ملّ بدر المطالعة في قمرته، بعد انسحابه من لقاء التعارف. كان يستشعر سأمًا تغلّب على إغراء القراءة. وضع الكتاب مفتوحًا، مقلوبًا، على السرير، أخذ رأسه بين كفّيه، احتار في اختياره بين أمرين: الذهاب إلى السيّدة توليب، أو الشرب في قمرته وحيدًا، لحاجته إلى الاختلاء بنفسه، ومعالجة السأم بالويسكي، حتى يستعيد صفاءه، ويصبح على مزاج حسن، يحرص على الظهور به بين الناس. صحّ لديه الأمر الثاني، لعزوفه عن الجنس، في هذا الوقت من النهار، ولأنّ السيّدة توليب باتت تثقل عليه، بشبقها الذي تستثيره الخمرة، فتتهالك على اللّذة، في طلب ملحاح، تفقد معه قدرتها على التوازن، وعلى الحديث حول الفن أو غيره.

مرّ على البارمان غابور، طلب إرسال سطل من الثلج، وبعض ما يؤكل مع الويسكي، بجدّيّة لم يستجب معها لمزاح غابور، ولم يردّ على سؤاله حول السيّدة توليب، ولماذا ليست معه، ولماذا يفضّل الشرب في قمرته، مع أنّ جان سألته عنه، وهي تنتظره.

قال بدر باختصار:

ـ لا تتأخّر، يا عزيزي غابور، في إرسال ما طلبت، ولا تقل لأحد إنّني في قمرتي!

قال غابور:

ـ كأنّك لست أنت، ماذا هناك؟

أشار له بدر بيده أن لا شيء، عاد إلى القمرة، أخرج زجاجة الويسكي، تذوّقها صرفًا، رتّب ما على الطاولة، صبّ كأسًا، شرب جرعة، ثمّ أخرى، تحرّك نافد الصّبر، قال «كم هو مريح هذا الشابّ الذي يساكنني!؟ يخرج صباحًا، ولا يعود إلاّ ليلاً، يمضي وقته كلّه في السباحة، أو الاسترخاء على كرسيّ حول المسبح، كما يفعل غيره من الأجانب، وهكذا أستريح، أتصرّف وكأنّ القمرة لي وحدي!» حمد بدر ربّه، لأنّ أحدًا من جماعة الرحلة لا يعرف سكَنَه، ولمّا جاء الثلج، أغلق الباب من الداخل، مزج الويسكي، كرع من كأسه ليطفئ ما به من ظمأ، جلس إلى طاولته مستعيضًا عن الغداء برقائق البطاطا المقليّة، وبعض المقبّلات التي أرسلها «غابور العزيز» مع سطل الثلج، راغبًا عن رؤية أيّما مخلوق، وحتّى عن رؤية البحر، أو الاستجابة للسيّدة توليب التي تنتظره، والتي تتبدّى عذبة، ذكيّة، سائغة الحديث قبل أن تشرب، لأنّه، هو، يؤثر الصمت، في حالات السأم التي تنتابه، حين يكون بغير عمل، مثله الآن، وحين يكون ساخطًا، مثله الآن أيضًا!

أن يشرب ويدخّن، تلك هي السعادة، سعادته المفتقدة وهو في هذه الرحلة، سعادته التي تحطّمت، مع مقدّمة سفينته، على شعَب المرجان.. فراغ! كلّ ما حوله فراغ، الفراغ يغزوه، من الخارج والداخل، ينفذ إليه من فمه، أنفه، عينيه، يأكله،

يشربه، يهبط عليه من فوق، يصعد إليه من تحت، ينسرب من مسامّه إلى أحشائه، يدخل إلى شرايينه، يمتزج بدمه، يخرّب هذا الدم، يلفّه من كلّ جهة، يسدّ عليه الجهات، يسجنه في قمقم سأمه، هذا السديم الأدكن، هذا التمساح الكريه، المفترس كالقلق، المُسْهر كالأرق، المشتّت كالتناذر، المُعْيي كالاكتئاب الأسود.

تعلّم بدر من تجاربه، أن يشرب الكأس الأوّل على مهل، هذا يجنّبه السكر، نصحه بحّار عجوز أن يشرب قليلاً من زيت الزيتون، قبل أن يشرب أيّ نوع من الكحول، إذا ما كانت هناك مناسبة، شكره على نصيحته ولم يعمل بها، إنّه لا يسكر، لجسمه قدرة على امتصاص ما يشرب، لذلك يصمد، كأحسن ما يكون، إذا طال السهر وطال الشرب، وقد رغب اليوم، حقًّا، في التعرّف على الذين معه في الرحلة، لذلك حضر اللّقاء، إلاّ أنّه ندم على ذلك، أصيب بنوع من الغثيان، بسبب المماحكات، حول أمر تافه: انتخاب مرجع للرحلة!! لم يعرّف بنفسه اجتنابًا للإزعاجات، قدّر، منذ البدء، أنّ هناك افتراقًا، بين عقليّته كبحّار ممارس، وعقليّة أناس لم يعرفوا البحر إلاّ كنزهة، بين عادته التي تشكّلت من معاناة السفر، وما فيه من وحدة، ومن بعد عن اللّغو، وبين عاداتهم التي شكّلتها المخالطة، والرّغاء الزبديّ، حول تصرّفات بعضهم البعض، واستغابة كلّ منهم للآخر، بين نظرته إلى البحر، ككائن غير مستقرّ، هادئ تارة، عاصف طورًا، ونظرتهم إلى هذا البحر كبركة ماء راكض، وقد فهم، منذ الصباح الأوّل للرحلة، أنّ اختلاطه بالآخرين، سيجعله يصطدم بمُهَسْتِرة مثل لويزا، أو

نمّامة مثل صالحة، أو متحذلق مثل المحامي عبد الصمد، وحَذَرًا من الغرق في مستنقع كهذا، آثر الابتعاد إلاً عند الضرورة، فابتعد، غير أنّ ابتعاده أهاج بعضهم، فكثُرَ الكلام حوله، وانتشرت الإشاعات عنه، وكذلك الافتراءات، وقد تفضّلت «الآنسة المبجّلة» لويزا، فأتحفته بنماذج منها، سخر عند سماعها، وقال «إنّها صحيحة!» ثمّ غادر من باب جانبيّ، اختاره للانسحاب بهدوء، عند اللّزوم، وكان مصيبًا في اختياره!

«أفّ! مراضاة الناس مرض! هذا قول حصيلة تجربة شعبيّة طويلة، عبّرت عنها الأمثال، ولن أُغضب، إذا استطعت، أحدًا، لكنّني لن أسترضي أحدًا أيضًا، وقد أزعجني، الأصحّ أغضبني، أن تكون غيداء، دونما إساءة إليها، هي التي حرّضت لويزا عليّ! أين الدراسة الجامعيّة!؟ أين الوسط الأدبيّ الذي كانت تختال، بكلّ جمالها وأناقتها، بين أفراده!؟ ماذا أبقت لصالحة النهّاشة!؟ هل تظنّ هذه الغيداء، أنّها بفعلة حمقاء كهذه، تؤثّر على أعصابي فتخرجني عن طوري!؟ تشهّر بي!؟ تخيفني!؟ تقهرني!؟ تجعلني من بعض متملّقيها؟ وإذا كان غيري أساء إليها، فما ذنبي أنا!؟ تحسب أنّني وراء مثل هذه الإساءات!؟ هل انحطّت، هي المثقّفة، الناضجة عقلاً بحكم السنّ، إلى هذا المستوى!؟ إلى مثل هذا الكيد!؟ لا بأس! لن أقول إنّها امرأة، أحترم المرأة، لأنّني أحترم نفسي، سأظلّ، كلبنانيّ، مع أخواني وأخواتي اللبنانيّين هؤلاء، لأنّني أحبّهم، وأحبّ وطني، لبناني».

قبل أن يملأ بدر كأسه من جديد، أكل رقائق البطاطا المقليّة

والمقبّلات. اكتفى بها لأنّه اعتاد ذلك. عندما يشرب لا يأكل، أو يأكل قليلاً فقط. الشرب مع وجبات الطعام لا يلذّ له، يشرب قبل الطعام أو بعده، أمّا خلاله فلا، ذلك يفسّر مذاق الويسكي، النكهة الخاصّة تضيع، وهو، بمزاجه الخاصّ، يفضّل أن يستمتع بنكهة ما يشرب، ونكهة ما يأكل، كلّ منهما على حدة، ويؤجّل، دائمًا، ترتيب أفكاره، إلى الوقت الذي يشرب فيه الكأس، ويتحدّث إليه صامتًا، كأنّما حديث الكأس، أعذب من حديث أيّما نديم، رجلاً كان أم امرأة.

تناول كأسه وفتله بين أصابعه. النظر حاسّة، ورؤية ما في الكأس، يشرك حاسّة النظر بحاسّة التذوّق، وهذا يزيد في إمتاعه، وفي قدرته على تركيز خواطره، في حالتي الانبساط والابتئاس، وهو، الآن، في حال وسط بينهما، لأنّه كان شهمًا، في رأيه، عندما اكتشف مكر غيداء، وآثر عدم فضحها، إرضاء لأريحيّة الرّجولة وشرفها، هذين اللذين لا يفرّط فيهما، مهما يكن جرحه عميقًا ومؤلمًا، وقد أدركت غيداء أنّها المقصودة، وأنّها المسكوت عن فعلتها، ولا يهمّ، بعدُ، ردّ فعلها النفسيّ على الأمرين، لأنّهما اليوم، كما قبل عقدين وأكثر من الأعوام، منذورة، ثقةً، أن تكون له، وليس بمستعجل للبرهنة، لنفسه على الأقلّ، أنّ هذه الثقة ستكون في محلّها، وأنّها ستتحقّق من غير شكّ، ما دام يقرن الوثوق بالعمل، وحبل صبره طويلاً جدًّا، وليس ثمّة شهوة تستعبده، أو تكويه، فالمسألة، بالنسبة إليه، لا يتعلّق شأنها بأيّ نازعة للحبّ، وإنّما برغبة أكيدة، صارمة، في جعل وثوقه إلى انتصاره، وفي هذا نقطة مبدأ، تستحقّ الجهد، التعب، وكبرياء الصبر.

«لطالما فكّرت، ومقود السفينة بين يديّ أمانة، أنّ ما ينقص الناس، هو هذا «الوثوق بالذات.. الوعي يأتي مع الثقافة، وهذه تأتي مع المعرفة، والشعب، وكذلك طليعته، لا يكفي وعيهما وحده، هناك، دائمًا، أناس واعون، ولا يهمّ العدد، لكنّهم غير واثقين بتحقّق ما يَعُون، لهذا يصابون بالإحباط، ينعطبون بسرعة، لا تفيدهم ثقافتهم أو معرفتهم، لا يقرنون وعيهم بعملهم بوثوقهم، لهذا يفشلون.. حدّثني بحّار يونانيّ عن رجل وكنز، قال: «كان هناك رجل، في أرضه كنز، حفر عليه يومًا، يومين، ثلاثة، وبعد ذلك يئس وترك البحث، لافتقاره إلى الوثوق أنّ في أرضه كنزًا، مع أنّ الكنز كان حقيقة، وقد بحث عنه رجل آخر، واثق من وجوده، فعثر عليه وأخرجه وغنمه لنفسه» هذه حكاية بسيطة، وقد تكون أسطورة، لكنّها ذات مغزى: من يثق بالشيء، ويعمل له، يحقّقه.. نريد، في لبنان، التغيير دون وثوق، دون عمل مقرون به، لهذا لا نتوصّل إليه، مع وعينا بضرورته، نقف في منتصف الطريق إليه.. جسد غيداء ليس كنزًا، وأنا لا أبحث عن كنزها الجسديّ، أبحث عن انتصار وثوقي في أنّها ستكون لي، هذه هي كلّ المسألة!»

وقف بدر لا يدري لماذا، ذهب في القمرة وجاء، قعد، نهض، قعد من جديد، نهض من جديد والكأس في يده، أخذ يشرب، مرّة، مرّتين، نظر في المرآة، مسّد شعره، روّق مزاجه، هزّ برأسه ساخرًا من اهتياجه، من أفكاره، من ولْدَنَتِه بعد هذا العمر! كان، الآن، بدرَ المثقّف لا بدرَ القبطان، هذا لا يفعل ما فعل، لا يفقد رباطة جأشه لمجرّد أنّ فتاة شتمته، لو

كان الشاتم رجلاً لاختلف الوضع «أنت يا بدر مضحك! مضحك في تصوّراتك حول اصطياد الغيم، حول غربلة البحر، حول فَوَرانك الكلاميّ الصامت، بينما غيداء نائمة، متنزّهة على السطح، جالسة في الكافتيريا، سالية عن كلّ هذا الذي أهاجك، تتمتّع بالقهوة، بالتدخين، وبكلمات المعجبين بجمالها، وأنت تجترّ أفكارك كجملٍ بارك قرب معلفه، تاركًا السيّدة توليب، مع أنّ جمالها ليس بأقلّ من جمال غيدائك، هذه التي فتنتك ملاحتها، في الوجه فقط، لأنّك لم تر جسمها، الذي قد يكون فيه تشوّهات، حين أنّك رأيت جمال وجه وجسم السيّدة توليب».

لبس المايّو وفوقه الرّوب، صعد إلى المسبح، غطس ليترد، ليغتسل من كلّ ما علق بجسده أو روحه، من أوضار الأيّام التي مرّت عليه وهو على هذه السفينة، في هذه الرّحلة التي لوّثته، لوّثت أفكاره، سمّمتها، جعلته مضغة في الأفواه، لا فرق بين مدحه أو شتمه، بين من اقترب منه أو ابتعد عنه، فالحياة في وسط الذين على البرّ، غير الحياة في وسط الذين في البحر، هنا كلّ بحّار يعرف شغله، واجبه، ينصرف إليه، وفي أوقات الفراغ يقرأ، يكتب رسائل، يتحدّث، إذا ما تحدّث، عن ذكرياته، أشواقه، أمنيته في الوصول إلى أيّ مرفأ، وفي أسرع ما يمكن، والقبطان يعيش في ما يشبه العزلة، بين القيادة والنوم والمطالعة، ونادرًا ما يتوفّر له الوقت للحديث مع بحّارته، إلاّ في شؤون البحر، والطقس، وآخر ما تلقّى من إشارات مرسلة من سفن أخرى، أو من المرافئ التي تمرّ بها السفينة.

استرخى بدر، بعد سباحة قام خلالها بأكثر ما تعلّم من

حركات، في الكلّيّة البحريّة والمسابح، متنفّسًا بعمق، لطول ما غطس تحت الماء، متجدّدًا كما لو أنّه ارتدى ثيابًا جديدة كلّها، كأنّ ما كان اليوم، وأمس، والذي قبله، لم يكن أبدًا، وكأنّه يعيش حياة أخرى، في عالم آخر، بهيج، مفرح، لأنّ السباحة فرحة في ذاتها، وفرحة للتشارك الذي فيها مع الغير، من بلدان وجنسيّات مختلفة، ولتلك الضحكات العفويّة، والأصوات المختلطة، الصادرة عن الذين في الحوض، والذين على أطرافه، ورذاذ الماء المتطاير من القفزات القويّة، وما في القفز من لَعِب جميل ومسلٍّ، وما في استعراض الأجسام القافزة، ذات الرشاقة أو البدانة، من لذّة الرؤية، خاصّة الانسياب الذي يتقنه الماهرون، من السابحين والسابحات.

لام نفسه، وهو يتدوّش، لأنّه لم يسبح، منذ اليوم الأوّل للرحلة، قبل الظهر وبعده، ارتدى ثيابه الخفيفة، صعد إلى الكافتيريا ليشرب القهوة، التقى، على غير احتمال، بالسيّدة صبيحة الدعجاوي، هتفت:

ـ بدر! أنت معنا ولا أراك، تعال!

جلس إلى طاولتها الصغيرة، وكلّ منهما مغتبط برؤية الآخر، تأمّلته وهي تبتسم، تغيّر بدر الذي تعرفه شابًّا، إلاّ أنّ الملامح هي ذاتها، حتّى مع استواء الرّجولة، قالت له، وهو يترشّف قهوته باستمتاع ويدخّن:

ـ تذكُر!؟

ـ وكيف أنسى!؟

ـ كانت تلك أيّامًا جميلة.

ـ ورائعة أيضًا! الجامعة، اللقاءات الأدبيّة، الحماسة، وأنتِ! كيف أنتِ؟ كيف الحال؟

ـ أنا لا بأس! الحديث يطول، توقّف النشاط الأدبيّ مع الحرب، إلاً في حالات نادرة، لبنان ذاق الويلات كما تعرف..

ضحك وقال:

ـ لكنّك لا تزالين كما كنتِ، رغم هذه الويلات، جميلة، لبقة، مفتوحة القلب، طيّبة مع الجميع!

ـ ماذا نفعل يا بدر؟ حكم الزمن! تقدّم بنا العمر، أنت وأنا، لكنّ الكهولة لا ترحم، النشاط القديم مضى وانقضى، الفارق، بين عمرينا، ليس بالقليل.

ـ وليس بالكثير أيضًا! الملاحة ذاتها، هل يخفى القمر؟

ـ لا تكن شقيًّا! حدّثني عنك.. درست الأدب، وها أنت في البحر، كما سمعت!

حدّث بدر السيّدة صبيحة عن حياته مرحلة مرحلة.. قال، في النهاية:

ـ ها أنا قبطان سابق، عاطل عن العمل في البحر، ومع ذلك في البحر، تأمّلي جنوني الذي تعرفينه!

ـ لولاه لم تكن بدر الذي أعرفه! غرابة أطوارك هي ذاتها.. هل صحيح كلّ ما سمعته عنك؟

ـ في هذه الرّحلة؟ نعم!

ـ لا أصدّق! افتراءات لويزا لم يصدّقها أكثر الحاضرين! سخرتَ منها بقولك إنّها صحيحة! هذه إحدى شيطناتك.. أعرفك كما أعرف أصابعي!

ـ الاعتراف بالخطأ فضيلة!

ـ أنت لست من أصحاب الفضيلة، كما يعرفها النّاس. . لو قلت، في الردّ على لويزا، غير الذي قلته، لكنت أخطأت. . أفهمك جيّدًا!

ـ لا أحد معصوم عن الخطأ.

ـ صحيح، لكنّ استمرارك في هذه الديباجة لا يقنعني، قل لي بصراحة: لماذا أنت، حتّى بعد كلّ هذه الأعوام، تكتفي بالنظر إلى غيداء من بعيد فقط؟

ـ من هي غيداء هذه؟

ـ لا تكن ابن كلب يا بدر! صبيحة الدعجاوي تعرف ماضيك، والآن تعرف حاضرك أيضًا.

ـ هذه نصف الحقيقة!

ـ ونصفها الآخر؟

ـ أنّني ابن كلب فعلاً!

ـ زعلت يا بدر؟

ـ لو كان غيرك قالها، كنت زعلت! أمّا أنتِ، والماضي، والمودّات! بدر لا ينسى، ولأنّه لا ينسى، فإنّكِ كنتِ، وستبقين، العزيزة عليه. . نعم! أعرف غيداء، وأعرف كلّ شيء عنها، وقد رأيتها، في بعض المناسبات، كما كنت أراها دائمًا. . من بعيد! الحرب غيّرت أشياء كثيرة، ومنها طبائع الناس، لكنّ طبع بدر الذي تعرفينه، لم يتغيّر بالنّسبة لغيداء، ملكة جمال الجامعة، نجمة المجتمع، سيّدة المناسبات، الزوجة، الأرملة، مثيرة الإعجاب في كلّ مكان، وكذلك على هذه الباخرة، لكن ماذا يعني هذا كلّه؟

وما شأني وشأنها؟ ولماذا إقحام الإنسان نفسه في ما لا يعنيه؟ طريق غيداء غير طريقي!

كانت السيّدة صبيحة تسمع وتبتسم «هذا هو بدر وهذا طبعه! لا ينسى المودّات، إلاّ أنّه لا ينسى، اعتزازه بنفسه، ينتظر من الغير أن يخطو الخطوة الأولى نحوه، ودائمًا! هذه مغالاة! البحر زاد من اعتداده بقدرته، فهل هذا لأنّه قبطان؟ وما نفع قدرات القبطان كلّها، إذا استخدمها في غير محلّها؟ نحن في رحلة، وهو فيها كالآخرين، فلماذا الإصرار على التميّز!؟»

قالت له:

ـ البحر غيّرك يا بدر! زادك عنادًا!

قال بدر:

ـ لكنّه لم ينقص من وفائي! أنت لا تعلمين مدى سعادتي بلقياك، بعد هذا الزمن الطويل!

ـ لكنّك لم تحتمل مزحة!

ـ لأنّه لم يسبق أن مزحنا!

ـ والآن؟

ـ لن أفارقك ما دمنا على هذه الباخرة، إلاّ للضرورات!

ـ أفهمك، وأفهم ضروراتك، لكنّك، كما يقولون، تظهر فجأة وتختفي فجأة! ما وراء هذا!؟

ـ تجنّب المشاكل والأقاويل.. لويزا ليست الوحيدة التي لا تُطاق.. ما رأيك بنزهة على السطح، في وقت الغروب هذا؟

ـ وصديقتك الأجنبيّة؟

ـ السيّدة جان توليب؟ لا! أنتم كلّكم أقرب إليّ منها! وبالمناسبة، ما رأيك أن نتعشّى معًا؟
ـ مع السيّدة توليب!؟
قالت ذلك ونهضت، نهض بدر أيضًا، قال وهو يضحك:
ـ مع السيّدة توليب العربيّة فقط!
ـ ولماذا فقط هذه؟
ـ إذا كان هناك من ترغبين أن يشاركنا العشاء فإنّني أرحّب به.
ـ وإذا كانت التي أرغبها لويزا!؟
ـ فلتكن لويزا، إذا كانت هذه رغبتك.
وضعت ذراعها في ذراعه وقالت:
ـ لا تنقصك اللّباقة، رغم كلّ شيء!
ـ رغم أنّني عاقّ!
ـ أحيانًا! عندما تعاند، وتنسى الذين تعرفهم من زمان!
ـ وكيف أكفّر عن عقوقي وعنادي؟
ـ بترك القسوة، إذا لم تكن مبرّرة.
قال وهما يتنزّهان على السطح:
ـ وكيف أعرف المبرّر من غير المبرّر؟ أذهب إلى لويزا وأسترضيها؟
ـ لا تكن مكّارًا أو ساخرًا!
قال بجدِّيَّة:
ـ يا عزيزتي صبيحة! بعض المكر، وبعض السخرية، لا بدّ منهما في المواقف التي تستدعيهما! الحياة هي القاسية ولست أنا، الجامعة علّمتني بعض الأشياء، لكنّ البحر

علّمني كلّ الأشياء.. لا أقول إنّني ختمت كتاب التجارب، أو إنّني، بعد كلّ تجاربي، لا أخطئ، هذا محال! على الإنسان، في هذه الدنيا، أن يتعلّم حتّى من الذين يعادونه، إلاّ أنّ التعلّم، في هذه الحال، لا يكون على حساب نسيان أنّ العدوّ هو العدوّ، والصديق هو الصديق، أو الخلط بينهما، ولا يكون التعلّم، أيضًا، بالميوعة أو الغفلة! على المرء، كما قال أحد الفلاسفة، ألاَّ يكون مرنًا إلى درجة فقدان المبدأ، أو قاسيًا إلى درجة الانقصاف، التوازن، هنا، ضرورة، والطيبة المطلقة لاطيبة، كلّ مطلق ينقلب إلى ضدّه، حتّى لو افترضنا أنّ هناك مطلقات.. الطيبة نعم، لكن مع الحزم! وهذا من باب التذكير ليس إلاًّ، تذكير نفسي، لا تذكيرك أنت، فتجاربك، وانتفاعك بها، أكثر من تجاربي، وأوفر من انتفاعي بها.. إنّني بحاجة إلى رأيك!

قالت السيّدة صبيحة:

- الانتفاع من التجارب أمر في غاية الأهمّيّة، لكنّ أكثرنا لا ينتفع بتجاربه كلّها، حتّى أنت وأنا! لا تسألني لماذا؟ الجواب صعب، والحياة قاسية، وأفضل ما نفعله، في رحلة كهذه، أن نستمتع، إلاّ أنّ بعض الناس لا يستمتعون، ولا يتركون غيرهم يستمتع، هذا أيضًا ينطبق على الذين يعملون، والذين يسوؤهم من الغير أن يعمل، وإذا كان البحر قد علّمك الكثير، فإنّ الحرب الأهليّة علّمتني، أنا أيضًا، الكثير.. رأيي ألاّ يتدخّل الإنسان في خصوصيّات الغير، ولا يدع الغير يتدخّل في خصوصيّاته، لكن مع مراعاة مشاعر من حوله، بقدر المستطاع، هناك دائمًا من

نحبّهم، ومن يحبّوننا، ومن نكرههم، ومن يكرهوننا، ولقاء التعارف الذي لم ينجح، برهن على هذه الحقيقة.. هناك من يحبّك يا بدر، وهناك من يكرهك، ما بلغني عنك بلبلني.. صوّروك على أنّك سكّير، عشير ساقطات، وأنّك قبطان مزيّف، وغير ذلك، ممّا سمعته بأذنك من لويزا.. أنا سعيدة لكونك لا تزال بدر الذي أعرفه، من ناحية الطيبة والشهامة، غير أنّ البحر طَبَعك بطابعه، فصرت أكثر حدّة وعِندًا! في أيّ ساعة نلتقي على العشاء؟

- التاسعة والنصف مثلاً.. يكون الازدحام قد خفّ، وأكون بانتظارك في المطعم.
- موافقة.. اِذهب أنت، وسأجلس أنا على هذا المقعد، أستريح وأستَرْوِح.. إلى اللّقاء.

كانت سكائر بدر قد نفدت، قصد القمرة لإحضار باكيت من «الجيتان» الفرنسيّ، الذي أدمن عليه ولا يطيب له سواه، وفي طريقه صادف غيداء وهزار، مرّ بهما دونما التفات، لكنّه سمع هزار تقول لغيداء:

- هذا هو!

قالت غيداء:

- هل يعقل أن يكون هو ويتجاهلنا؟
- أقول لك إنّه هو.. لمحته في اللّقاء صباحًا، ورأيته في المسبح!
- لم تتعارفا؟
- لا طبعًا!
- قليل الأدب إذن! رآك وأنت تعرّفين بنفسك في اللّقاء، وكان

عليه أن يحيّيك في المسبح.. من كان معه؟

ـ لا أدري، كان في المسبح الكثير من الأجانب، وكان يتحادث معهم.. لكن لماذا أشاح بوجهه عنك أيضًا، مع أنّه رآك تعرّفين بنفسك كما فعلت أنا؟

ـ قالت غيداء:

ـ هذا لا يهمّ!

ـ بلى! يهمّ.. هذه عجرفة وقلّة حياء!

ـ وماذا تفعلين لقليل الحياء؟

ـ أبصق عليه!

ـ وعندئذ يضعك في صفّ لويزا.

ـ لويزا كانت على حقّ، فضحته!

ـ وماذا كان ردّ فعله؟ سخر منها!

ـ لكنّه لا يستطيع أن يسخر منّي أنا.

ـ أنت لن يكترث بك، تعقّلي.

ـ وأنتِ!؟

ـ أنا تعقّلت! دعينا من ذكره.. أكثر جماعة الرّحلة هنا، على السطح، حاذري أن يسمعونا، اِبلعي لسانك قليلاً!

ـ تخافين منه؟

نظرت غيداء إلى هزار بعدم ارتياح وقالت:

ـ أنا لا أخاف إلاّ من ربّي.. لكنّني لا أريد تصديع رأسي، ولا أريد أن يقترب منّي أحد..

في هذه اللّحظة التقيا ناصر وعفراء، ابتسمت عفراء وتقدّمت تصافحهما، قالت:

ـ أمتع ما في هذه الرّحلة اكتساب الأصدقاء، والنزهة على

السطح.

قالت غيداء:

ـ النزهة على ظهر الباخرة ممتعة فعلاً، ولكنّ اكتساب الأصدقاء مسألة أخرى، ماذا تفعلان؟

ـ كنّا نتحدّث مع السيّدة صبيحة، إنّها سيّدة مثقّفة جدًّا.. ها هي هناك، على المقعد!

التفتت غيداء إلى حيث أشارت عفراء، التقت عيناها بعيني السيّدة صبيحة، أصبح الموقف محرجًا، ابتسمت غيداء، وقفت السيّدة صبيحة وهي تقول:

ـ ربّ صدفة خير من ميعاد! أين أنت يا غيداء؟ أم أنّك نسيتني كغيرك؟

مدّت غيداء يدها، إلاّ أنّ السيّدة صبيحة عانقتها بحرارة وقبّلتها، قالت لها:

ـ كنت أتوقّع صباح اليوم، في لقاء التعارف، وبعد أن عرفتِ أنّني مع الرّحلة، أن تسرعي إليّ، أن تتذكّري الأيّام الجميلة، أيّام الجامعة والأمسيات الأدبيّة، أنت كما عرفتك، جميلة جميلة، ما هي أخبارك؟

ـ على ما يرام!

ـ لا! ليست على ما يرام، لم تكوني في اللّقاء غيداء التي أعرفها، أزعجتك لويزا؟

ـ ولماذا تزعجني لويزا؟

شبكتها السيّدة صبيحة سائرة معها:

ـ كيف لماذا تزعجك لويزا؟ تشتم صديقنا بدر الزرقا ولا

ننزعج؟

ـ ومن هو بدر الزرقا هذا؟

ـ زميلك في الجامعة، في كلّيّة الآداب، وكان يحضر كلّ الأمسيات الأدبيّة، وكلّ المناسبات التي تحضرينها، ألا تذكرين؟

ـ لا أذكر!

كانت غيداء والسيّدة صبيحة تسيران معًا، ووراءهما كانت تسير هزار وعفراء، أمّا ناصر فقد تركهما وانصرف، مستاء من هذه المصادفة غير السعيدة بالنّسبة إليه. فكّرت السيّدة صبيحة قليلاً وقالت:

ـ بدر، يا غيداء، يعرفك من أيّام الجامعة، لكن من بعيد..

سألت غيداء مستغربة:

ـ لماذا من بعيد، وكيف!؟

ـ لأنّكِ كنتِ دائمًا محاطة بالمعجبين، وبدر، مع إعجابه، كان يفضّل أن يراكِ من بعيد، إنّه شديد الاعتداد بنفسه! لا يتهالك على امرأة، يكتفي برؤية حتّى المعجب بها من بعيد، هذا طبعه!

ـ طبع سيّئ، على فرض أنّه طبع، لكنّ بدر أخبث ممّا تتصوّرين!

عضّت السيّدة صبيحة على شفتها السفلى وقالت:

ـ أخبث هذه لا أحبّها منك! بدر لا يوصف بالخبيث، إلاّ إذا برهنت لي على أنّه خبيث فعلاً! ماذا فعل!؟ أساء إليك!؟

ـ أحد أذنابه أساء إليّ!

ـ بدر، كما أعرفه، لا يلجأ إلى طريقة كهذه، أسلوبه مباشر دائمًا، ولسانه دافئ.

ـ وحركاته الغريبة؟

ـ مثل ماذا!؟

ـ كنتِ في لقاء لتعارف، فلماذا تسألينني؟

ـ لأنّني، على الغداء، كنت مع جمانة وصديقها المحامي عبد الصمد، ومن المستغرب أنّ جمانة، هذه التي لم يعِرْها بدر التفاتة واحدة، ناقمة عليه أيضًا، دون حقّ، بحجّة أنّه لم يعرّف بنفسه، وأنّه سخر من لويزا.. ماذا تنتظر منه؟ أن يشتم لويزا؟ بدر يترفّع عن أمور كهذه.. كنت اليوم، عصرًا، معه في الكافتيريا، لم يقل كلمة واحدة بحقّ أحد، حتّى لويزا هذه نسيها، ما رأيك؟

قالت غيداء وهي مستاءة من ذكر لويزا:

ـ أمثال بدر لا يكشفون عن وجوههم بسهولة!

ـ أنتِ في صفّ لويزا إذن؟

نقزت غيداء:

ـ من قال هذا!؟

ـ لا أحد.. مجرّد استنتاج! يذكُرك بالخير وتذكرينه بغيره!؟ إِسمعي يا غيداء، يا عزيزتي، بدر ظلّ معجبًا بك طوال الأعوام التي انقضت على تخرّجكما من الجامعة، وكان يراك، في المناسبات، خلال كلّ هذه الأعوام، وهو صامت، لا يقترب منك، لا يزعجك بكلمة، لا يقول لك حتّى «إنّني معجب بك!» فما قولك في «أيّوب» هذا!؟

ـ هذا شأنه!

ـ إذا كان هذا شأنه، فكيف يسيء إليك الآن، وعن طريق غيره؟ المهمّ.. بدر زميل دراسة، وهو معنا في رحلة واحدة، وأنت حرّة في معاداته أو مصادقته! لكن لا حقّ لك في أن تقفي منه موقف لويزا أو جمانة!

ـ أنا لا أكترث به أو بغيره!

ـ هذا طبيعيّ، لكن ليس في رحلة كهذه، نحن فيها جماعة واحدة، من بلد واحد.. مع ذلك لا بأس! معزّتك هي هي، كما أيّام زمان، إلى اللّقاء! سأكون مع بدر على العشاء.. دعاني فلم أرفض دعوته، إنّه يذكّرني بالماضي الجميل، الماضي الذي كان جميلاً، بالنّسبة لنا نحن الثلاثة!

ـ ١١ ـ

«الماضي الذي كان جميلاً، بالنّسبة لنا نحن الثلاثة!» قالت غيداء في نفسها.

«حقًّا كان ذلك الماضي جميلاً! لماذا لم يدم؟ لا شيء يدوم! نعم! لا شيء يدوم، واأسفاه! لامارتين تساءل: «لماذا سفينة العمر لا تلقي مراسيها؟» صدى الجواب كان ناقوسًا، قُرع عندما ووري لامارتين الثرى! كلّ شيء ممكن إلاّ هذا: أن يقف العمر بالإنسان في اللّحظة التي يريدها، وهل ثمّة، في حياتنا، لحظة أجمل من الشباب؟ لا! كم هي أسيفة هذه الـ: لا؟ أسيفة وحقيقيّة معًا! إنّما لا بدّ من تقبّلها، لا بدّ أن يقرع ناقوس كلّ منّا، في يوم من الأيّام، بيد الزمن الذي لا يهادن، لأنّه يمشي على أشلائنا دون توقّف، ودون إرادة!»

كانت غيداء على حاجز السفينة، تحدّق في الماء، باستغراق كامل، فلم تنتبه إلى مجيء هزار ووقوفها إلى جانبها. الماء لا يعكس صورتنا فقط، يعكس عالمنا كلّه، في ماضيه وراهنه، حينما يصبح، بالنّسبة للرائي، شاشة فضِّيَّة، تأخذ، كما الفيلم السينمائيّ الآسر، هذا الرأي في رحلة ممتعة مؤلمة، إلى أجواء نسيها، لكنّها، هي، لا تنساه، تسكنه، كما الضيف في سكن

استراحة، بين مرحلتي وجود ولا وجود! «الماضي الذي كان جميلاً، بالنّسبة لنا نحن الثلاثة!» هذا الثالث، في هذه الرحلة، حرّك الراكد في أعماق الكثيرين، أثار فيها الخوف، الفضول، العداء، والحبّ، اقتحمها على غير دراية، انسلّ إليها مثلما الطيف بالنّسبة للمخيّلة، ومع كلّ ما قيل عنه، بقيت أشياء تقال عنه، والسيّدة صبيحة الدعجاوي، قالت بعض هذه الأشياء التي لا تصدّق «عشرون عاماً وأكثر، وهو معجب بك يا غيداء، يراك في كلّ المناسبات، من بعيد!» لماذا من بعيد، إذا لم يكن خجولاً، شاذًّا في خجله، أو لم يكن تافهًا، جبانًا في تفاهته، أو أنّه مريض في غموضه!؟ زمن أيّوب ولّى وراح، أيّوب نفسه كان أسطورة ربّما، وهذا الـ «أيّوب!» حيّ، على الباخرة، في الرحلة مع الجماعة، وخارج الجماعة، وهو ليس خرافة، ولا أسطورة، لكنّ المعتوهين، الذين صنعوا منه شبحًا، يكادون يصنعون منه أسطورة شبحيّة!!

سألت هزار، بعد أن طال تحديق غيداء في البحر، أمامها:

ـ إلى أين وصلت؟

قالت غيداء دون أن تلتفت:

ـ إلى كلّ مكان، وإلى لا مكان!

ـ إذا طالت الرّحلة، وبقيت على ما أنت عليه، جننتِ!

ـ أو تعقّدت نفسيًّا!

ـ وماذا بشأن صبيحة هذه؟ تعرفينها من قديم؟

ـ منذ كنت في الجامعة!

ـ ذكريات مشتركة إذن!

ـ مشتركة وعذبة، وكذلك مثيرة ومؤلمة!
ـ ماذا قالت لك؟
ـ قالت إنّ بدر كان زميلي في كلِّيَّة الآداب، لكنّني لا أذكره، لا أعرفه، ربّما كان في سنة في عام التخرّج، حين كنت أنا في السنة الأولى أو الثانية.
ـ صبيحة هذه دسّها بدر عليك.. إنّها قوّادة!
ـ اِخرسي!
ـ خرسي لا يغيّر شيئًا ممّا قلت!
قالت غيداء بحدّة:
ـ بل يغيّر! السيّدة صبيحة مثقّفة، محترمة، صديقة الطرفين.
ـ معنى هذا أنّ الطرفين سيلتقيان قريبًا!
ـ إذا حدث اللّقاء سيكون عاديًّا جدًّا، مثل لقائنا بالآخرين.
قالت هزار:
ـ وقلّة أدبه!؟
ـ بدر ليس قليل الأدب.. اِسكتي! أنت لا تعرفين!
ـ الذي أعرفه يكفي!
نظرت إليها غيداء في عينيها وقالت:
ـ أنت، يا هزار، تحبّين بدر هذا!
ـ أنا!؟ ليس على الباخرة من يكرهه مثلي، حتّى ولا لويزا نفسها.
ـ الكره هو الوجه الآخر للحبّ! وإلاّ ما سبب اهتمامك به إلى هذا الحدّ؟
ـ مثل اهتمام الآخرين، لا أكثر ولا أقلّ.

ـ بل أكثر! خرجت من عقلك لأنّه مرّ بنا ولم يحيّنا!
ـ هذا لأجلك!
ـ لأجلي!؟ ما علاقتي بالموضوع؟
ـ تجاهَلَكَ! أنت لا تحتملين أن يتجاهلك أحد!
ـ لست أنا التي خلّصها من ألبرتو!
ـ فعل هذا كي يلفتك إليه، وكي يُقال إنّه شجاع!
ـ لماذا أنا وليس غيري؟ عفراء مثلاً!
ـ عفراء فتاة هادئة وطيّبة!
ـ الهدوء يخفي ما وراءه.. ألم تلاحظي شحوبها عندما تكلّمتْ لويزا ضدّه؟
ـ لم ألحظ شيئًا!
ـ هذا لأنّك غبيّة يا هزار.. هيّا إلى المطعم.. ألست جائعة؟
ـ جائعة ومستثارة!

ضحكت غيداء وقالت:

ـ هذا لأنّ ناصر أدار لك ظهره!
ـ ناصر غرّ.. أشحطه ورائي بابتسامة، بكلمة حلوة!

ربّتت غيداء على كتف هزار وهما تسيران إلى المطعم، قالت لها ساخرة:

ـ إذا كان لك مثل هذا الإغراء، دعيني أر من تشحطين وراءك! أم أنّك تلعبين بذيلك في السرّ!؟

قالت هزار بلؤم:

ـ لكلّ أنثى جمالها الخاصّ، وإغراؤها الخاصّ!
ـ وجمال لويزا!؟ وكذلك إغراؤها!؟

ـ يكفي أنّها غير مغرورة، وربّما كان لها حبيبها هي الأخرى!

أحسّت غيداء بالإهانة، لكنّها بلعتها مؤقّتًا، ولكي تمتصّ نزق هزار، وتبدوان طبيعيّتين وهما تدخلان المطعم، شدّت على يدها وقالت:

ـ أنت على حقّ يا هزار، كنت أمازحك!

قالت هزار:

ـ وأنا كنت أعرف هذا!

في المطعم نهض ثلاثة شبّان، من معارف غيداء وهزار، ومن المشتركين في الرّحلة، ودعوهما إلى طاولتهم، إلاّ أنّ غيداء التي ابتسمت لهم، شكرتهم قائلة:

ـ طاولتنا محجوزة! وإذا كان الحجز غير ثابت في مطعم الباخرة هذا، سنجلس هناك، قرب النافذة!

قالت هزار وهما تجلسان:

ـ ها هما، أمامنا، صبيحة وبدر!

قالت غيداء:

ـ المطعم يتّسع للجميع!

ـ لكنّ رأيي في محلّه!

ـ تمامًا! ما قولك أن نشرب كأسًا من البيرة المبرّدة مع العشاء؟

ـ هذا ما أرغب فيه، بعد السباحة خاصّة.. انظري! صبيحة تبتسم لنا، أمّا هو فإنّ وجهه مثل وجه الجلاّد!

ابتسمت غيداء بدورها وقالت:

ـ دعينا منه يا هزار، أرجوك!

ـ كان من واجبه أن يلتفت، هو أيضًا، ويحيّي!
ـ وإذا كنّا لم نتعارف بعد يا هزار؟
ـ لا بدّ أنّ صبيحة حدّثته عنك. . ثمّ أين زمالة الدراسة؟
ـ أعوذ بالله!

سكتت هزار على مضض، جاءت البيرة والمقبّلات، شربت نصف كأس دفعة واحدة، ابتسمت لها غيداء وقالت:

ـ بعد السباحة، البيرة هي المشروب المفضّل. . أعرف هذا!
ـ ولماذا لا تسبحين؟
ـ ومن قال لك إنّني لن أفعل؟
ـ والذين معنا في الرّحلة؟
ـ آخر من أفكّر فيهم! تعرفين كم أنا قادرة على التحدّي!
ـ تشربين على البار أيضًا!؟
ـ عندما نجد الأصدقاء، سنشرب على البار أيضًا! قرّرت أن أتمتّع في هذه الرّحلة، وبأكثر ما أستطيع!
ـ وبدر هذا؟ وصديقته الأجنبيّة؟
ـ أفّ يا هزار! ما الذي يعنينا من بدر وصديقته!؟
ـ إنّهما دائمًا على البار!
ـ البار، كما المطعم، يتّسع لبدر ولي ولك وللجميع! اِشربي! دعي بدر بحاله!
ـ هو الذي يجب عليه أن يتركنا بحالنا!
ـ ومتى تحرّش بنا!؟ أم أنّه غازلك من وراء ظهري؟
ـ فشر! لكنّه، عند العصر، أدار وجهه عنّا، بحركة لا أعرف كيف أسمّيها!
ـ قلّة أدب!

ـ لا! جلافة، كأنّه جاء من وراء البقر، ولا علاقة له بالمدنيّة، مؤسف أن يكون من لبنان، اللّبنانيّون متحضّرون، يعترف لهم العالم كلّه بالمدنيّة، بالذوق، بالثقافة، واللّياقة.

قالت غيداء:

ـ إِسحبي الجنسيّة اللبنانيّة منه!

ـ لو أستطيع لا أقصّر!

ـ وبعد!؟

ـ أشرب ولا على بالي!

ـ هذا أحسن ما تفعلينه.

ـ سأطلب علبة بيرة أخرى!

ـ إِطلبي علبتين.. أنا أيضًا سأشرب!

ـ أنظري! نهضا!

ـ مع ألف سلامة! إِستريحي إذن!

ـ لكنّهما يتطلّعان إلينا.

ـ لا تتطلّعي أنت.. حطّي رأسك في الصحن.

جاء صوت السيّدة صبيحة يسبقها، قالت:

ـ مناسبة سعيدة! من غير المعقول أن لا يعرف بعضنا البعض! ماذا جرى!؟

وقفت غيداء، بقيت هزار في كرسيها، قالت السيّدة صبيحة:

ـ لا تحتاجان إلى من يعرّف أحدكما بالآخر.. جميلتنا غيداء وبدر، المعرفة قديمة، من أيّام الدراسة، أم أنا مخطئة؟

مدّ بدر يده مصافحًا، قال:

ـ أنا المحقوق! لكن عن غير قصد.. شهيّة طيّبة!

أضاف وهو يبتسم:

- كيف الآنسة هزار؟ أم لا تريدين التعرّف عليّ؟

قالت غيداء:

- وهل يعقل هذا؟

وقالت السيّدة صبيحة:

- جميلتنا الصغيرة عاتبة! ولكن السّلام لله.

أُحرجت هزار، وقفت مرتبكة، قالت:

- بالنّسبة لي، من يتجاهلني أتجاهله!

قال بدر:

- ومن يعتذر عن تجاهله غير المقصود يُقبل اعتذاره، كيف أنت يا هزار؟

صافحته وقالت:

- تجاهلك كان متعمّدًا!

قال وهو يضع يده على رأسها:

- لذلك اعتذرت!

قالت هزار:

- اعتذارك غير مقبول!

ضحك بدر وقال:

- عندما نشرب القهوة معًا، في الكافتيريا، يصبح مقبولاً، أو نعتذر مرّة أخرى.. تفضّلوا!

قالت السيّدة صبيحة:

- نحن في الكافتيريا! لا بدّ من القهوة بعد الطعام.. ننتظر

على مهل. . وماذا وراءنا؟ السهر يحلو في السفر. . أم أنّني مخطئة؟

قالت هزار:

ـ شكرًا! أنا أعتذر!

قال بدر:

ـ جاء دورنا لرفض اعتذارك. . إلى اللّقاء قريبًا!

قالت هزار بعد أن ابتعدا:

ـ هذا هو بدر، بطوله وعرضه!

قالت غيداء:

ـ وبطولِ بالهِ أيضًا! ما كنت أتوقّع. . حسبت أنّه حادّ الطبع، وبشكل لا يطاق! ما رأيك يا هزار؟

ـ تعرفين رأيي! هذه البيرة لذيذة جدًّا!

ـ وأنا أجدها كذلك. .

ـ نطلب المزيد؟

ـ لا! يكفي! مع أنّني أريد أن أشرب وأشرب!

ـ بعد هذا التعارف ستشربين كثيرًا.

ـ ولماذا بعده؟ وأنت؟ ماذا جرى لك يا هزار؟ كلّ هذه الملاطفة! «وجميلتنا الصغيرة!» أين الكياسة اللبنانيّة التي كنت تتحدّثين عنها؟ داعب رأسك كطفلة مدلّلة، وأنت تنفرين في وجهه، يجوز؟

ـ نعم! يجوز!

ـ أنا أقول لا يجوز! وأنت، في أعماقك مسرورة، لماذا علينا أن نزيّف أنفسنا؟ جاء إلينا، بادر وحيّانا، صافحنا بمودّة،

صبر على أجوبتك غير اللآئقة، فأين الجلافة؟

ـ جاء لأجلك!

ـ وعلى فرض أنّه جاء لأجلي، تغارين منّي؟ لا أظنّ.. أنت هزاري الطيّبة، هزار التي أحبّها وتحبّني، أم ماذا!؟

ـ لا أدري! أحتاج بعض الوقت للتفكير.. أعترف. لم يكن سيّئًا! ثمّ إنّه..

شربت هزار ما تبقّى في كأسها وقالت:

ـ دافع عنّي!

ـ ومن غير أن يقول عن ذلك كلمة واحدة، لا في ذلك اليوم، ولا في غيره.. هذا من التواضع، ومن الشهامة، بصرف النظر عن تعارفنا الآن!

سألت هزار:

ـ هل كان التعارف، بالنّسبة إليك، مفاجأة؟

ـ بعض المفاجأة! كنت على يقين أنّنا سنلتقي خلال هذه الرّحلة، لكن بشكل آخر، رسميّ جدًّا.

ـ صبيحة هذه لعبت دورًا في هذا اللّقاء، كما كنت أتوقّع!

قالت غيداء:

ـ صبيحة هذه خدمت الحركة الأدبيّة في زمانها بإخلاص ونكران ذات.

ـ تعرفينها جيّدًا؟

ـ جدًّا، لكنّني لم أكن أعرف معزّتها لبدر.. كان، على ما يبدو، من روّاد حركتها الأدبيّة، ومن المقرّبين إليها.. كانت، أيّام الجامعة تلك، من أحلى أيّام الحياة، كنّا

شبابًا، وكان الماضي جميلاً.. نمضي؟

قالت هزار:

ـ ما يدفعني إلى المجيء معكم هو الفضول وحده! نمضي..

قال بدر مرحّبًا بهما:

ـ هذا لقاء تعارف حقيقيّ، لكنّه تمّ بفضل ذلك اللّقاء غير الحقيقيّ.. لنشرب القهوة دون تعجّل، لدينا وقت كي لا ننظر إلى ساعاتنا.

قالت هزار:

ـ أنت معتاد على السهر.. لكن نحن..

ـ سنعتاد كلّنا.. أمتع أوقات السفر في البحر هو اللّيل، وفي وقت متأخّر منه!

ـ وما أدراك؟

ضحك وقال:

ـ صحيح! ما أدراني!

قالت غيداء:

ـ كنت تدرس الأدب، فما الذي أوصلك إلى البحر؟

ـ جنوني!

ـ لهذا تكره العقلاء كما نُقل عنك؟

ـ العقلاء من نوع معيّن!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ العقلاء أكثر من اللاّزم!

قالت هزار:

ـ مع ذلك، يظلّ العقل زينة الإنسان.

قال بدر:

ـ هذه حكمة!

ـ ألا تحبّ الحكمة أنت؟

ـ الحكمة لا تتوقّف على حبّنا، كما أنّ القدر لا يخضع لمشيئتنا!

ـ وأين نضع إرادة الإنسان من هذا؟

ـ في قدرته على التحدّي، والانتصار فيه..

قالت غيداء:

ـ هذا صحيح!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ هذه أنتِ يا غيداء! التحدّي إحدى هواياتك!

ـ نعم! لكن بغير انتصار!

سأل بدر:

ـ الانتصار على ماذا، وفي ماذا؟

ـ في الممكن طبعًا!

ـ أنت، واعذريني على هذا، لا ترضين بالممكن، لأنّه بين يديك، قبل الجامعة وبعدها، قبل الزواج وبعده، مع أنّك كنت سعيدة في حياتك الزوجيّة، والدنيا كرة بين يديك!

ـ كان ذلك سابقًا، يوم كان زوجي حيًّا! لكنّني، رغم ذلك، لا أزال أحتفظ بهذه الكرة بين يديّ!

ـ هذا واضح!

ـ ما هو الواضح؟

ـ عنفوانك!

قالت هزار:

ـ تستحقّ جائزة على هذا الاكتشاف!

ردّ بدر:

ـ أنا أطلب السِّتْر لا الجوائز!

ـ وإذا قلت لك إنّ هذا إحدى ألاعيبك!

ـ أكون على غباء شديد!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ أنت لست بالغبيّ يا بدر!

وقالت غيداء:

ـ هزار لا تقصد!

أشعل سيكارة وقال:

ـ ليست هزار وحدها من يقول إنّ لي ألاعيب، هناك الكثيرون أيضًا، على الباخرة وغير الباخرة! صنعوا منّي شبحًا! مع أنّني موجود في كلّ مكان، مع الذين في هذه الرّحلة. . ذنبي كلّه أنّني لا أعلك جلود الموتى، وأنأى بنفسي عن وحل المهاترات، كيلا أتدخّل في ما لا يعنيني، لإيماني، واحترامي، وكذلك رفضي، في وقت واحد، لأشياء كثيرة، يتقبّلها، يحترمها، أو يرفضها، غيري. . إنّني، على هذه الباخرة، مجرّد مسافر، فرد من أفراد المجموعة، إلاّ أنّ التجارب علّمتني الحذر من التورّط في اختلافات سواي، وكذلك الابتعاد حتّى لا أصاب بعدوى أخلاقيّات السفر والغربة، والبحث اللاّمجدي في صحّة هذا الأمر أو خطأ ذاك، وفي التهالك على من لا يرغب في الاقتراب منّي. .

قبطان؟ قبطان زائف؟ سكّير؟ عشيق عاهرات أجنبيّات؟ كلّ هذا شأني، ولن أناقش في موضوعه أيّ متجنٍّ عليّ، لذلك لم أعرّف بنفسي، ولذلك خرجت عندما سُلقت، كالقمح على النار، ولم تُترك فريّة إلاّ وأُلصقت بي، لكنّني لم ألبس طاقيّة الإخفاء، ذهبت، ببساطة، إلى قمرتي، أطالع وأفكّر، وهذه كلّ ألاعيبي، أو بعضها، ولست بالعاتب على أحد من أجلها، ولست بالمعاتب أيضًا، رغم أنّ العتاب، كما يقولون عندنا في لبنان، صابون القلوب! والآن أنا هنا، وهذا ليس دفاعًا عن نفسي، فلكلّ نفس معايبها، إنّما هو كشف حساب، أمام من قصّرت في المبادرة إلى التعرّف بهنّ، مع أنّ هذا كان واجبي!

قالت هزار:

ـ اِعذرنا إذا لم نصفّق لك في مكان عام، مع أنّ بلاغتك تستحقّ!

ضحك بدر وقال:

ـ أعدك بأن أصفّق لنفسي، عندما أخلو بها!

قالت غيداء:

ـ كنّا نعرف هذا كلّه!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ أنا لم أكن أعرف!

قال بدر:

ـ لذلك كنتِ كلّ جمهور الخطيب المصقع الذي هو أنا!

قالت هزار:

ـ ولماذا هذه الخطبة إذا كنت تعرف أن لا جمهور لها؟
ـ إحدى ألاعيبي!
ـ هذا صحيح! كما اعتدتَ أن تقول!
قالت غيداء:
ـ هذه ليست لعبة!
قال بدر:
ـ تسميع درس مخطئ!
ـ ولا هذا!
ـ أنا أعرف ما هو، لكنّني أتجاهل، كعادتي!
ـ أنت تتقصّد!
ـ إلاّ في مسألة واحدة: أن أكون نذلاً!
قالت هزار:
ـ نحن لم نقل هذا!
ردّ بدر بجدِّيَّة:
ـ بلى! قلتِ! ومن اللّقاء الأوّل! وإلاّ ماذا وراء تذكيري بألاعيبي؟
ـ استفزازك!
ـ وكذلك الغمز منّي!
أضاف بدر:
ـ سكوتي، يا هزار، كان يعني إدانتي! أنا غير مُدان، ويكفي ما تحدّثنا بهذا!
ـ لا تراوغ! أنت أكثر من مُدان!
ـ وما هو الحكم!؟

ـ الأسف وحده!

ـ تأسفين لأنّنا تعارفنا؟

ـ بالتأكيد!

ـ مع ذلك أنا غير آسف.. بل إنّني سعيد، رغم هجومك هذا عليّ، والذي هو غير مبرّر، إلاّ من ناحية واحدة، تخصّك أنت، وهي رغبتك في ألاّ نكون أصدقاء، غيداء وأنا! مع ذلك فإنّني أمدّ يدي لك، لها وللسيّدة صبيحة، وأقترح أن نصعد إلى السّطح، وأن نمتّع أنفسنا قليلاً.

قالت السيّدة صبيحة:

ـ أنا موافقة.. ما رأيك يا عزيزتي غيداء؟

ـ لا مانع لديّ!

نبرت هزار وهي تنهض:

ـ أنا لديّ مانع! سأدعكم وأذهب!

وذهبت!

خرج بدر من اللّقاء بانطباع غير مريح. غيداء كانت واضحة، كدمعة على خدّ طفل، لكن هذا، وحده، لا يكفي! هناك، دائمًا، الشرّ والسخف! هزار كانت شرِّيرة، بدر كان سخيفًا، استفزّته فوقع في مطبّ الاستفزاز، قال بتطويل مملّ، ما كان يجب السكوت عنه، فهل سخرت غيداء بقولها «أنا أعرفه!؟» هذا الابتسار طعنة سكّين في الكبد، وقد حاول بدر تدارك ما فات، أراد لَأْم جرح السكّين، فتعمّق الجرح أكثر، تنمّرت هزار، ردّ عليها، ردّهُ جرّه إلى ردّ آخر، ثمّ آخر، ثمّ آخر، ضاعت هيبة القبطان، قوله «هذا صحيح!» انقلبت عليه، كان يسخر بها، صارت سخرية به، التراجع لم يعد ممكنًا، التقدّم زاد الطّين بلّة، زعم أنّه لا يدافع عن نفسه، كلامه كلّه كان دفاعًا عن نفسه، تناقُض! فَرَحُهُ بلقاء غيداء، الذي أراده مستترًا، استعلن بسرعة، ازدهاه فبالغ بالحفاوة، بالتواضع، بالضحك، بمجاملة هزار، التي لا تستحقّ، إلاّ العادة طبيعة ثانية، عادته، في السّرور كما في الحزن، الاهتياج، يتكلّم بإفراط، يصمت بإفراط، يضيع رصيده كما المقامر الأحمق!

بعد ذلك حاول، وهو مع غيداء والسيّدة صبيحة، على سطح

الباخرة، أن يكون بدر الذي يريد أن يكونه، نجح إلى حدّ ما، شرح، كبحّار، ما كان يُسأل عنه، بتركيز وإجادة، لم يمتدح غيداء، لم يأت على ذكر الماضي، ترك الأمور على رسلها، النزهة كانت جميلة، زاد في جمالها ضوء القمر، هدوء البحر، انسياب السفينة، لطف السيّدة صبيحة، الضحك لنكتة ما، الصمت، أحيانًا، احتفاء بالسكينة، الابتهاج برؤية بعض العشّاق، على مقاعد خلفيّة، يتخاصرون، يقبّل أحدهما الآخر، مشاعر الدفء، بين الثلاثة، وهم ينعمون ببرودة الجوّ، طراوة نسمات اللّيل المُودّع، الاكتفاء، العودة، حرْص بدر على توصيل غيداء، وكذلك السيّدة صبيحة، إلى قمرتيهما.

لكنّ لقاء التعارف لم ينته بالإخفاق وحده، جرّ أيضًا ذيولاً معه، ففي المطعم، وقت الإفطار من اليوم التالي، كانت هزار ولويزا ومعهما شابّان من جماعة الرّحلة، يجلسون إلى طاولة قريبة، بالمصادفة، من طاولة يجلس إليها ناصر والتحّ وعفراء. كلّ من الجانبين، كان قد تحزّب أمس، بعد كلام لويزا وجواب بدر عليها، تحزّبوا إلى هذه الجهة أو تلك، والملاسنة التي أعقبت ذلك لم تؤدّ إلى عراك، لوجود إبراهيم الشفّاط وعبد الصّمد وعصام وغيرهم، الذين هدّأوا الشرّ، وفصلوا بين الطرفين، وخرج الجميع من المطعم، متفرّقين في جهات مختلفة، وكلّ منهم له رأي مختلف في ما جرى.

كانت لويزا وهزار والشابّان، يضغنون على ناصر والتحّ وصطيف القمطيّ، هؤلاء بالمقابل، حملوا الضغينة نفسها، إلاّ أنّ كلام إبراهيم الشفّاط المتّزن، العاقل، الذي ذكّر الجميع بأنّهم لبنانيّون، وأنّهم أخوة، أو يجب أن يكونوا مثل الإخوة،

حتّى لا يُساء إلى لبنان وسمعته، إلى أن تنتهي الرّحلة بسلام، هذا الكلام الطيّب لطّف الخواطر، فظنّ الآخرون أنّ المشادّة قد انتهت على خير، وأنّ القلوب صفت، وأنّ سمعة لبنان فوق هذه الصغائر، وأنّ عبرة الحرب الأهليّة، بكلّ ويلاتها، منقوشة في ذاكرة الكلّ، والدرس المستفاد قد ترك أثره الإيجابيّ، إلاّ أنّ هذا الظنّ كان خاطئًا، وكلام إبراهيم الشفّاط لم يجد قبولاً عند لويزا، فاضطرابها العصبيّ دفعها إلى الاحتداد، وإلى الرّغبة في الثأر من ناصر ومن معه، لذلك كان لا بدّ لفورانها من متنفّس، وجدته في مجاورتها، عند الإفطار، لخصومها المفترضين، وفي المقدّمة ناصر، الذي كان «أزعر!» في نظرها، ولا شفاء لغليلها إلاّ بتأديبه، ما دام الشابّان، اللّذان من أنصارها، معها على طاولة واحدة.

كان التحّ، الذي يأخذ «بلعة» على الرّيق، من «الخبز والملح» الذي في زجاجته، صاحب نكتة، وكان يضحك بصوت عالٍ، كأنّه في «مطعم البور» في بيروت، وليس في باخرة ركّاب فخمة كهذه، إضافة إلى أنّه كان ينظر، كما أكّدت لويزا، إليها وهو يضحك، وقد قال لصطيف القمطي، الذي انضمّ مؤخّرًا إلى طاولته:

ـ أنا محسوبك أبو الصطف! قبطاننا على الرّأس والعين، ومن يضربه بوردة..

قاطعه صطيف:

ـ لا حاجة، يا تحّ، إلى هذا الكلام..

نبرت لويزا:

ـ على من تَتَفَشْوَر أنت، يا سفيه؟ قبطانك ونعلي سواء!
دهش الآخرون، سارعت عفراء إلى القول:
ـ لا يا لويزا! أرجوكِ! الكلام غير موجّه إليك!
ـ موجّه لمن إذن، يا عائبة أنت!؟
أجابت عفراء:
ـ سامحك الله يا لويزا، اِخزي الشرّ، نحن أخوة!
ردّت لويزا بحدّة:
ـ أخوة!؟ ومن قال إنّنا أخوة، مع هؤلاء الزعران؟
ـ وماذا نحن إذن؟ أعداء!؟
ـ أنتم عصابة! زعيمها قبطانك المدّعي يا عفراء.
ـ ادّعى بماذا؟
قالت هزار:
ـ هو! هو! كلّه غرور وادّعاء، ولكن ما دخلك أنت يا عفراء!؟
ـ الرّغبة في حسم الشرّ، حتّى لا يتدخّل الرّجال! أرجوكِ! ساعديني.
ردّت هزار:
ـ الشرّ تحت أصابعكم، والمسألة مبيّتة كما يبدو!
وقالت لويزا:
ـ تخوّفيننا بتدخّل الرّجال؟ تشرّفنا! المسألة، كما قالت هزار، مبيّتة!! ولكن على مَنْ؟
وصل بدر في هذه اللّحظة، بعد أن بلغه خبر أنّ ثمّة شغبًا في المطعم، قال بهدوء وكياسة.

ـ حقّك علينا يا لويزا! ولن يكون إلاَّ ما يرضيك!
ـ ترضيني بماذا وأنت السبب؟
ـ بالذي تريدونه، أنتم جميعًا!
قالت هزار:
ـ أرسلتهم وجئت وراءهم؟
قال بدر:
ـ أنا لا أرسل غيري، أجيء بنفسي! مؤسف! هيّا يا جماعة!
نهض ناصر وعفراء ومن معهما، حاول التحّ أن يتكلّم، صاح به بدر بغضب:
ـ ولا كلمة واحدة!
قالت لويزا:
ـ سنلتقي، وسترون!
توقّف ناصر، تردّد صطيف في الخروج، قال التحّ:
ـ تهديد أيضًا يا لويزا؟
ردّت لويزا:
ـ نعم! ونعم! ونعم!
كان بدر قد سيطر على الموقف. دفع ناصر ومن معه إلى الباب، قال لعفراء:
ـ لا لزوم للأخذ والردّ مع هذه المهسترة!
ـ وهزار؟
ـ محتقنة من الأمس!
قال صطيف:
ـ نُهانُ ونسكت؟

قال التخّ:

ـ وتهديد فوق ذلك!؟

قال بدر:

ـ إِمسحوها بذقني! هيّا، بغير كلام.

سكتوا وذهبوا، أمّا في المطعم المزدحم فقد تلفّت الذين يفطرون ليعرفوا ما هناك: بعضهم وقف، بعضهم ظلّ جالسًا، السيّدة صبيحة الدعجاوي كانت هناك، وكان بعض جماعة الرّحلة أيضًا، حرس الباخرة لم يتدخّل، قال خضر البرقوق لمن حوله:

ـ لن تنتهي على خير!

قال راتب جمل:

ـ إذا لم تكبر لا تصغر!

قالت أمّ أسامة، السيّدة نورا:

ـ لويزا هذه محراك تنّور!

قال الأستاذ رهيف عبد الصمد المحامي:

ـ هذا سلوك معيب من الناحية الاجتماعيّة، ويعاقب عليه من الناحية القانونيّة، لو تطوّر أكثر!

قالت امتثال:

ـ لولا وصول بدر، لتطوّر الخلاف أكثر!

قالت السيّدة نورا:

ـ الله ستر!

أضافت:

ـ لكن ما كلّ مرّة تسلم الجرّة! لويزا هذه..

قالت امتثال:

ـ ومعها، هذه المرّة، هزار أيضًا!

قالت صالحة التي وجدت فرصتها:

ـ الحفلة كان ينقصها بعض الشباب، ومعهم غيداء أيضًا، ملكة جمال الباخرة!

صاحت بها السيّدة صبيحة:

ـ صبّحي ربّك يا مخلوقة! أديبة، ومشهورة، وكلام بحقّ النّاس؟ اِتركي كلّ واحد بحاله، ماذا فعلتْ لك غيداء؟

قالت جمانة:

ـ السيّدة صالحة مثل أمّنا، لكنّها لا تنزلنا عن زيقها!

قالت صالحة وهي تركّز نظّارتها:

ـ الكلام عليّ أنا؟

قال خضر البرقوق:

ـ لا! على مارلين مونرو!

نظرت إليه نظرة مواربة وقالت:

ـ وقح!

هزّ برأسه من عجب واستخفاف، خرج من المطعم وهو يلعنها، خرج آخرون، دخل غيرهم، ظلّت لويزا وهزار والشابّان جالسين إلى طاولتهم، مسترخين، مستخفّين، حاسبين أنّهم انتصروا، وأنّ تهديد لويزا قد أخاف ناصر ومن معه. فجأة دخل بدر، كان عِرْق الغضب ينبض في جبينه، جلس، مكفهرّ الوجه، قبالة لويزا وهزار ومن معهما، حدّق في الشابّين،

رازهما، زورهما، تمنّى أن يسمع منهما كلمة، قال في نفسه «لا علاقة لي مع لويزا، كتلة العظام هذه، هزار ستندم على لؤمها، والشابّان اللّذان معهما، من «شلّة الغلمان» التي تحوم حول غيداء وهزار وهذا أعرفه، لكن ناصر كان محقًّا في ما قاله عن مثل هؤلاء المتخنّثين، أمّا أنا، بدر الزرقا، فلي حساب آخر، في مكان آخر، وعندئذ سيعرف هذان الرقيعان، ومن تقوّى بهما، أن الله حقّ». قالت هزار:

ـ دعونا نذهب، لا أحتمل هذه النظرات الحقودة.

وافقت لويزا:

ـ الأفضل أن نذهب، إنّه مجنون!

نهض الشابّان بغير كلام. سأل أحدهما:

ـ أين نذهب؟

ـ قال الآخر:

ـ إلى السطح.

قالت لويزا:

ـ أُفضّل مكانًا آخر.

ـ إذن إلى الكافتيريا!

قالت هزار:

ـ لا! أيّ مكان إلاّ الكافتيريا!

ـ لماذا؟

ـ هكذا!

أضافت:

ـ أنا سأذهب إلى القمرة، وأنتم أحرار.

قالت لويزا:

ـ وأنا أيضًا إلى القمرة!

خرجوا، بدر لاحقهم بنظراته إلى أن تواروا، لم يفطر، لم يشرب قهوة، كان مرتاحًا لأنّه، صرف ناصر والآخرين، ليبقى وحيدًا، وقد قالت له عفراء، قبل الانصراف:

ـ أرجوك! أتوسّل إليك! اِنس ما حدث!

مضغ حقده ولم يجب، قرّر الرجوع إلى المطعم، رجع، لم يجرؤ أحد على الكلام معه، قدّر من تبقّى، من جماعة الرّحلة، في المطعم، أنّ «الشبح» ـ حسب تسميتهم ـ تخلّى عن دوره السابق، في عدم الظهور، وأنّه، بعد الذي جرى وقت الإفطار، تخلّى، أيضًا، عن قناع التعقّل، وأنّه عاد إلى المطعم كي يضع حدًّا للويزا، ليست هي بالذّات، ولا هزار، بل من كان معهما، وعندما غادر المطعم هؤلاء، أطرق بدر برأسه مفكّرًا، وظلّ مطرقًا إلى أن جاء أحد حرّاس السفينة، فابتسم له، وصافحه، ونظر كلّ منهما في ساعته، وعقب ذلك سأل بدر:

ـ أين السيّد إبراهيم الشفّاط؟

قال راتب جمل:

ـ في قمرته غالبًا!

ـ في أيّ طابق؟

ـ الثالث!

ـ ما هو رقم القمرة؟

ـ ٧ على ما أرجّح.

ـ شكرًا!

قال ذلك بدر وخرج مسرعًا، نزل السلالم قفزًا، قرع باب القمرة رقم ٧، لكنّ أسامة الصغير، الذي فتح له الباب، قال له:

ـ تفضّل! الماما موجودة!

ـ في أيّ قمرة العمّ إبراهيم؟

ـ في القمرة ٤.

هرعت أمّ أسامة إلى الباب، إلاّ أنّ بدر كان قد دخل القمرة رقم ٤، أغلق الباب وراءه، صافح السيّد إبراهيم الشفّاط، جلس وقال:

ـ معاون قبطان الباخرة طلبني!

ـ خير! ماذا هناك!؟

ـ لا أدري بالضبط، إلاّ أنّ ملاسنة حدثت في المطعم وقت الإفطار، بين لويزا وآخرين!

ـ لويزا!؟ والله قلبي حدّثني منذ رأيتها هائجة في اللّقاء أمس، هي السبب في كلّ ما جرى!

ـ وهي السبب في كلّ ما سيجري! لولا وصولي في الوقت المناسب، لتطوّرت الملاسنة إلى معركة.

أخبر بدر، بتفصيل، السيّد إبراهيم الشفّاط بما حدث، رجاه أن يذهب معه إلى معاون القبطان، لأنّه هو، العمّ إبراهيم، من ينوب عن الجميع، ولا أحد يتجاسر أن يخالفه. قال السيّد إبراهيم:

ـ سيتجاسرون يا بدر، يا ابني، هناك، في الرّحلة، الكثير من أمثال لويزا هذه.

ـ هذا صحيح! هزار انضمّت أيضًا إلى لويزا، كما أخبرتُك، لكنّني لا أكون بدر الزرقا، على هذه الباخرة، إذا تجاسر

عليك أحد. . الموعد الساعة ١٢، نلتقي على باب المطعم! ومن هناك نذهب إلى الموعد.

رحّب معاون القبطان بهما عندما دخلا، قدّم لهما الشاي، استفسر عن أخبار تصل إلى قبطان الباخرة، عن حزازات وملاسنات وأشياء أخرى مماثلة، تَحْدثُ بين أفراد مجموعة الرّحلة، يُحسن معالجتها، قبل أن تستفحل. سأل المعاون، بعد ذلك، عن المسؤول عن الرّحلة، فقال بدر، وهو يشير إلى إبراهيم الشفّاط:

ـ السيّد إبراهيم هو المسؤول.

كان بدر يترجم، فلم يوافق السيّد إبراهيم، لكن بدر رجاه أن «يترك الطابق مستورًا» وأن يقبل، ولو مؤقّتًا، بالتسمية، وأن يردّ على الملاحظات «بما عرفناه عنك من حكمة وطيبة، يا عمّ إبراهيم».

شرح هذا، بهدوء وفهم، أنّ الذي نُقل إلى قبطان الباخرة مبالغ فيه، وأنّ مع الرحلة بعض الشباب والشابّات، ولا بدّ أن يقع بينهم خلاف في وجهات النظر، حول بعض المسائل، وهذا طبيعيّ، بين المشاركين في أيّ رحلة بحريَّة أو بريَّة.

أصغى معاون القبطان إلى ترجمة بدر، ضحك وقال:

ـ هذا طبيعيّ، لكنّني آمل، وأنا على ثقة، أنّ الأمور لن تتكرّر، ولن تتطوّر.

ترجم بدر، فضرب العمّ إبراهيم على صدره قائلاً:

ـ أتعهّد بهذا!

بعد ذلك سأل معاون القبطان بدر:

ـ هل حقًّا أنت قبطان سابق!؟

قال بدر:

ـ وماذا يعني هذا؟ لا شيء، إنّني، الآن، بغير عمل، وأنا مسافر كغيري.

قال معاون القبطان:

ـ لا! هذا يهمّ، لماذا أنت بغير عمل؟

ـ لأنّني ارتكبت خطأ أثناء القيادة، خطأ فاحشًا، عُوقبت عليه.

ـ أين؟

ـ في البحر الأحمر!

ـ حادث!؟

ـ ومؤسف! اصطدمت مقدّمة سفينتي بالشعَب المرجانيَّة!

ـ وأين درست؟

ـ في الكلِّيَّة البحريَّة في أثينا!

ـ أوه! أنا أيضًا درست فيها.. تجيد لعب الشطرنج؟

ـ طبعًا!! والآن شكرًا على الاستقبال، تحيّاتي للسيّد القبطان!

على الباب، قال فيليب، معاون القبطان:

ـ تصرّفت بحكمة مع ذلك المخمور ألبرتو، واليوم تصرّفت بحكمة في المطعم، هذا لفت نظرنا، قدّرنا أنّك قبطان مُجرّب.. إلى اللّقاء!

ـ إلى اللّقاء، ودَعْ جماعة الرّحلة لي، أعرف كيف أتفاهم معهم!

ـ هذا جيّد، ومع كلّ الثقة.

الحياة غالية ورخيصة في آن، عزيزة وبغيضة أيضًا. المقهور يتنفّس من خاصرته، الرئة يضيق بها الضلع، لكنّها حبيسته، في هذه الحال، يحسّ المرء بوخزة في الجانب الأيمن، وتتوحّد، في القهر، الرئة والروح، تصبح الطعنة داخليّة، من صنع الفعل اللاّفعل، لأنّه، فعل غير متحقّق، لاعتبارات مانعة، في ظروف غير مؤاتية، فيكون اللّجوء إلى الإرادة، القبض عليها بشدّة، اعتصارها، مَعْصمًا من التهوّر، لمن يعرف كيف يسيطر على أعصابه المتوفّزة، مُغلّبًا عقله على عاطفته، بانتظار الذي لا يأتي، إلى أن يأتي، في مسيل الزمن القُلّب، الحامل جديدًا، في سُنّة التبديل التي وحدها حقيقيّة.

بدر الزرقا، المباشر كالطلقة، لا يكون مباشرًا عندما يتفحّص الواقع، من جوانبه كلّها. الوحدة في أسفاره البعيدة، وفّرت له فسحة لا محدودة للتفكير، جعلته يتروّى، حتّى وهو يتنفّس القهر من خاصرته، متحمّلاً وخز الألم، مع إدراكه بواعثه، ففي الحياة، مع كلّ تناقضاتها، متّسع لبلوغ ما يراد، منها وفيها، ولاحتمال الأذى إلى أن يحين وقت الوثوب عليه. وعد فيليب، معاون القبطان، أن يتفاهم مع جماعة الرّحلة،

وضع هذا «كلّ الثقة» فيه، إذن لا بدّ من تبريرها، بشكل يليق به، هو القبطان المجرّب كما قال عنه معاون القبطان.

خبر المشادّة في المطعم انتشر، كذلك انتشر خبر استدعاء معاون القبطان لبدر، وذهابه مع إبراهيم الشفّاط إليه.. صار معروفًا أنّ الانضباط مطلوب، وأنّ لركّاب الباخرة كلّ الحرِّيَّة بالتمتع في الرّحلة، شريطة ألاَّ يكون هناك إخلال بالأمن، من قبل أيّ راكب، وأنّ قبطان الباخرة على علم بكلّ ما جرى، وأنّ ثمة مراقبة، وحرّاسًا، وأنّ إزعاج الآخرين، في أيّ مكان من الباخرة، غير مسموح به، وأنّ السيّد إبراهيم الشفّاط تعهّد، باعتباره المسؤول عن جماعة الرّحلة، ألاَّ يتكرّر حادث المطعم، إلاَّ أنّ الأستاذ المحامي، رهيف عبد الصّمد، طعن في تنصيب السيّد الشفّاط، مسؤولاً عن جماعة الرّحلة، من الناحية القانونية(!) وآزرته في ذلك السيّدة صالحة، وكذلك لويزا وهزار وبعض الشباب، وطالبوا بعقد اجتماع، لانتخاب هذا المسؤول، حتّى يوضع كلّ أمر في نصابه، وأعلنوا أنّهم في مقدّمة الباخرة، ومعهم السيّد الشفّاط، الذي فشل في إقناعهم أنّه لا يريد تسمية كهذه، إلاَّ أنّ «ستر الطابق» أمام معاون القبطان، هو الذي اضطره إلى قبول ما لا يريد.

كان بدر في الكافتيريا، يشرب القهوة، عندما بلغه نبأ هذه الشوشرة، وبعض القائمين بها.. فكّر في ما يجب، حتّى لا تتكرّر مهزلة لقاء التعارف، وقال إنّ الذين افتعلوا حادث المطعم، وقت الإفطار، لم يرتدعوا، وإنّهم يتمادون، وإنّ هذا «القانونيّ» التافه عبد الصمد، المتهالك على جمانة الموتورة، طعم الصنّارة، وإنّه لا بدّ من حسم الموقف، وتأديب

المشاغبين، لأنّ قهره، من هذه اللّتْلَتَة كان قد طفا على وجهه، فعاوده الغضب.. مع ذلك قرّر أن يتفاهم معهم، كما وعد معاون القبطان، فإذا لم يتوصّل عن طريق التفاهم إلى ما يريد، يتصرّف بالشكل المناسب!

غادر بدر الكافتيريا إلى ظهر السفينة، مشى بهدوء إلى مقدّمتها، وقف مستندًا إلى دعامة، ظلّ صامتًا وهو يتأمّل وجوه الذين في الحلقة، كان آخرون قد سمعوا بالخبر، جاء عصام البُرُم وامتثال وخضر البرقوق وراتب جمل وناصر وعفراء وصطيف والتحّ وغيرهم، قال خضر:

ـ تفضّل أخ بدر.

ـ . . .

قال عبد الصمد:

ـ ألا تشاركنا في الحديث؟

ـ . . .

قال راتب:

ـ أنت قبطان وتعرف الأصول.

ـ . . .

قال التحّ:

ـ ماذا يجري هنا؟

ردّت لويزا:

ـ وما حشرك أنت؟

صاح التحّ:

ـ إخرسي!

أمسكه بدر من صدره وصنعه بقوّة، جرّه إلى الحاجز وقال:

ـ كلمة أخرى وأرميك في البحر!

قال التحّ:

ـ ولا كلمة! أنا بعرضك!

رجع بدر إلى مكانه، بقي صامتًا، ذهل الحاضرون، قال إبراهيم الشفّاط:

ـ لماذا لا تتكلّم يا أخ بدر؟

قال بدر بصوت قويّ يمور بالغضب:

ـ ما قلته أنت، يا كبيرنا، يكفي!

قال شابّ يجلس قرب هزار:

ـ نحن نتشاور! لماذا لا تشاركنا؟

ردّ بدر بصوت قويّ أجشّ:

ـ شاركتكم، وشبعنا مشاورات!

أضاف:

ـ تسمح يا أستاذ عبد الصمد بكلمة على انفراد؟

ردّت جمانة:

ـ لا! قل ما تريده هنا!

زورها بدر وقال:

ـ بلى! سيسمح! هل أنت زوجته؟ إذا كنت زوجته تفضّلي نيابة عنه.

ـ وقح!

ـ . . .

قال الأستاذ عبد الصمد:

ـ ماذا تريد يا سيّد بدر؟

ـ أن أتكلّم مع رجل لا مع امرأة! تفضّل! سنتفاهم بهدوء، وعلى انفراد!

ـ قل ماذا تريد!

ـ أريد الاطّلاع على الكتاب القانونيّ الذي ينظّم أصول الرحلات!

ـ لا يوجد كتاب كهذا!

ـ بلى! يوجد.. إنّه معي، وسنطّلع عليه معًا، بهدوء وعلى انفراد، كما قلت لك.

ـ إِخز الشيطان يا أخ بدر!

كزّ بدر على أسنانه وقال:

ـ أنا هو الشيطان الذي سيُنخزى على يديك، تفضّل!

قالت هزار:

ـ لا تكن مثل ألبرتو!

ـ لماذا لا؟ ألبرتو استلطفك، وأنا أيضًا! قال في التحقيق معه كلامًا ليس في صالحك، كلامًا لا يقال أمام الحاضرين، ما رأيك أن أقوله لك في أذنك، أو ينوب عنك في سماعه صديقك الذي إلى جانبك؟

حاول الشاب، صديقها، أن ينهض، تمسّكت به وهي تصرخ:

ـ لا! ليس مع هذا الوحش!

ابتسم بدر ساخرًا، هزّ برأسه استخفافًا وقال:

ـ يا آنسة هزار! يا زينة المطعم صباح اليوم، الوحش الذي تقصدينه قادر أن يفعل بك، ما عجز عنه ألبرتو، لو أراد هذا الوحش، لكنّه لا يريد تعفّفًا.. ولأنّه، هنا، للحماية، لا للانتهاك، وآمل أن أفهم جيّدًا، بغير أدنى خطأ!

أضاف بعد وقفة:

ـ يا أخوة! دعونا نسدّ طاقة الرّيح ونستريح! يدي ممدودة للجميع، وأنا أحترم الجميع، وقد سمعتم ما قاله السيّد إبراهيم، وفيه الكفاية، نحن من بلد واحد، وسمعتنا واحدة، لا من ناحية خصوصيّات كلّ أخت أو أخ فيكم، بل من ناحية ما هو خارجها، أي الملاسنة أو العراك، أو إثارة أيّ فضيحة، بحقّ أيّ واحدة أو واحد منّا، والعمّ إبراهيم، بحكم الضرورة وحدها، وبرجاء حارّ منّي، قَبِل أن يكون ممثّلنا أمام معاون قبطان السفينة، لأنّ هذا سأل عن الشخص المُسمّى مسؤولاً عن الرحلة، فارتبكنا، هو وأنا، وكي لا نسيء إلى سمعة بلدنا، قلت إنّه السيّد إبراهيم، أي أنّ الذي لم يتمّ عليه الاتفاق في لقائنا، فرضته الضرورة، وكان معاون القبطان لطيفًا، مهذّبًا، أشار إلى ما حدث في المطعم صباح اليوم، إشارة عابرة، وقد أثنى على لبنان، وعلينا جميعًا، فماذا نريد غير ذلك؟

ارتفعت عدّة أصوات دفعة واحدة:

ـ لا شيء!

ـ إذن لا خلاف، وكلّ من يصيبه ضيم مهما يكن، وخارج المهاترات، يُراجع العمّ إبراهيم، وسيتأكّد بنفسه أنّ الضيم سيرفع عنه.. استمتعوا برحلتكم، وآسف لبعض الخشونة،

أفوتكم بعافية!

قال بدر ذلك ومضى، واثقًا أنّ الشوشرة انتهت، وأنّ الذي في قلبه غلّ، سيظلّ غلّه في قلبه، أو يُجازف فيُردع، وبعد أن مضى بدر، خيّم صمت لبعض الوقت، أعقبه تعليق من هذا أو تلك، وبنهوض إبراهيم الشفّاط، تفرّق الحاضرون، الواحد بعد الآخر، وقال التحّ لصطيف:

ـ آخ لو كان غير بدر فعلها معي!

ضحك صطيف وقال:

ـ أنت أهبل يا تحّ! بدر لم يقصدك بالذات، كان يريد تأديب الآخرين بواحد، فجئت أنت في طريقه!

ـ تقول هذا!؟

ـ طبعًا هذا! بدر قبطان! ماذا يعني القبطان؟ الريّس! هذا يكون شجاعًا، مدبّرًا، يعرف كيف يجرح وكيف يداوي، أنا اشتغلت في البحر وأعرف.

من يعرف البحر؟ القرش سيّد الكائنات البحريّة، إلاّ أنّ القرش، حتّى في سيادته هذه، يعرف محيطه فقط. للقاع عالمه، للسطح عالمه، وما بين العالمين، في البحر الواحد، فروق كثيرة، لا يدّعي أحد، صادقًا، أنّه يعرفها. السماء، بكلّ أفلاكها، تنعكس في صحراء الماء، وهذه قد تنعكس، بشكل ما، على صفحة السماء، ويظلّ أحدهما يجهل الآخر، لأنّ المعرفة، في العمق، نتاج معاناة، ومن يعاني الفضاء غير الذي يعاني اللّجّة، وبدر، مع كلّ معاناته، كبحّار وقبطان، لا يعرف عمق اللّجّة، كما أنّ الإنسان، حتّى بعد صعوده إلى القمر، لا يعرف كلّ عمق الفضاء. تبقى، ثمّة، فراغات، محيطات من

الفراغات، في البحر والسماء، وتبقى، ثمّة، فراغات أكبر، في مجاهل النفس البشريّة، لا يسبر غورها، أو يكتشف أسرارها، كلّ أساطين علم النفس، وكلّ أساتذة التجارب، الذين تخرّجوا من مدرسة الألم! «يا بدر، أنت في هذه الرّحلة، منذور للاكتشافات النفسيّة، التي لم تكن تخطر لك على بال. اِنس! لا تفكّر في الحياة إلاَّ قليلاً، لأنّ على الإنسان، ألاَّ يفكّر في الحياة كثيرًا، فمثل هذا التفكير يودي به إلى الهلاك!»

السؤال، يبقى، كيف السبيل إلى النسيان!؟ الخمرة ومض شوق، ومع الومض الشوقيّ يكون الاهتياج النفسيّ، وهذا يفتح الذاكرة على المطلاّت الأربع، في الجهات الأربع، وكذلك يفتحها، الذاكرة، أفقيًّا وعموديًّا، ويصبح شريط العمر الذي يكرّ، بانوراما لا حدّ لاتّساعها، لا حدّ لطولها، ويقع، هكذا، طالب النسيان، في مصيدة التذكّر!

بدر الذي اعتاد الوحدة، وجد نفسه، في هذه الرّحلة، خارج الوحدة. تقحّمته الأحداث، تداولته الأفكار، لاكته الألسن، بالخير أو بالشرّ، أدخلته جحيم معاناة من نوع آخر، هو جحيم الثرثرة الصادرة عن أناس لا عمل لهم، لسبب بسيط هو: أنّهم في عطالة، ما داموا في رحلة بحريّة، محدودة في المكان والزمان، ولملئهما تتحرّك الأقدام كأنّما في رمل، وتتحرّك النزوات كأنّما في ملهاة بشرية «المجد للعمل، لأنّه المنقذ الوحيد من الفراغ، والسأم، وحركة اللّسان المكّوكيّة!»

أضاف بدر «لا أريد غيداء كامرأة، ولا أريدها برهانًا على الثقة، هذه التي قضيت نصف عمري على الأقلّ، في محاولة

لإثباتها! لا! لا أرغب، الآن، أن تكون هذه المرأة لي، لتكن لغيري، ولأعلن فشلي وأستريح! أعترف. ضاعت الفرصة، ومن اللّقاء الأوّل. لم أكن، في حضورها، ذلك الذي يسكت لسانه وتتكلّم عينه. سخف! كنت سخيفًا، ولكلّ إنسان، في موقف ما، سخفه، وأنا من الناس، ومن العبث إثبات تفرّدي عنهم، أو تميّزي من بينهم، في مكابرة لا جدوى منها. الدرس الوحيد الذي تعلّمته اليوم، ألاّ يدع المرء غيره يظنّ أنّ طيبته ضعف. كنت طيّبًا فحسبوني ضعيفًا. سأظلّ طيّبًا، وأظلّ، في الوقت نفسه، حازمًا، وهذه هي الحكمة الحياتيّة، أوّلاً وأخيرًا!»

ـ ١٤ ـ

غادر بدر حاجز الباخرة الذي يتّكئ عليه. تأمّلُ البحر، كما تأمّل السماء، وتأمّل الطبيعة، كما تأمّل المرأة، وكذلك الكأس الذي يُغرق المتأمّل في متاهة الفكر. بدر غرق في متاهة أفكاره، قلّبها على أكثر من وجه، عاينها من قرب، من بعد، من فوق، من تحت، تعذّب، تأسّف، ندم، ثمّ هرب من تأمّلاته، وأفكاره، وندمه إلى البارمان غابور، لا لينسى، بل ليتذكّر، وليرتّب ذكرياته كما رتّب أفكاره.. وما إن وصل حتّى جلس على كرسيّ البار المرتفع وقال لغابور:

ـ كيف حالك يا صديقي؟

قال غابور:

ـ في حال طيّبة ما دمت بعيدًا عنّي!

ـ لا تكن لئيمًا إلى هذا الحدّ!

ـ وأنت لا تكن عاقًّا إلى هذا الحدّ!

ـ لست أبي كي أكون ابنًا عاقًّا لك.

ـ وأنت لست ابني كي تتدلّل على حسابي!

ـ أنا أدفع ثمن ما أشرب.. لذلك في وسعك أن تخرس، وأن تكفّ عن هذا الهراء.. أعطني، وبسرعة، كأسًا من

الويسكي المغشوش!
أعدّ غابور كأسًا من الويسكي وقال:

ـ في أيّ جحر كنت؟

ـ في جحر لا أستطيع تسميته، كيف حال أمّك!؟

ـ لا تكن بذيئًا يا قبطان! دع أمّي وشأنها، إنّها امرأة فاضلة!

ـ المرأة الفاضلة غرقت مع الباخرة تتانيك! تعازيّ القلبيّة يا غابور، وفي صحّة أفعى الفردوس!

ـ لولا أفعى الفردوس ما كنت هنا يا قبطان! إنّني، من أجلها، أشعل شمعة في كنيسة كلّ مرفأ، ترسو الباخرة فيه.

ـ في المرافئ لا توجد كنائس يا بارماني العزيز! أشعل شمعتك في خمّارة، على نيّة قيامتك المشكوك فيها! ماذا لديك من أخبار؟

ـ السيّدة توليب تتتبّع أخبارك المشينة! لماذا تركتها مع أنّها لم تسئ إليك؟

أضاف غابور بعد أن لبّى طلبات بعض الزبائن:

ـ سألت عنك حتّى ملّت، وكنت أزوّدها بأخبارك السيّئة أيّها القبطان العجوز..

قال بدر:

ـ أنا، الآن، لست قبطانًا أو عجوزًا، وكنت أصلّي في قمرتي لراحة نفسك، بينما أنت تفسد ما بيني وبين صديقتي المفضّلة.. كأس آخر من الويسكي، وقل لي: أين أجد السيّدة توليب؟

ـ هنا، في البار!

ـ في أيّ وقت؟
ـ إذا لم تكن ترسم فإنّها تأتي بعد قليل.. ماذا تريد منها؟
ـ تأدّب يا غابور! الرّجل لا يُسأل عمّا يريده من المرأة، والعكس صحيح أيضًا.
قال رجل إنكليزيّ متقدّم في العمر:
ـ هذا جواب جيّد!
قال غابور:
ـ نعم جيّد! بعد عدّة كؤوس من الويسكي!
قال بدر:
ـ الويسكي المغشوش طبعًا، هذا الذي يقدّمه لنا هذا البارمان الظريف والحشريّ معًا!
قال الإنكليزيّ المنتشي والأحمر الوجه:
ـ كلّ بارمانات العالم حشريّون، متعتهم المفضّلة النظر من ثقب الباب إلى ما يجري في الداخل، ألا توافقني على ذلك يا قبطان؟
ـ كلّ الموافقة يا سيّدي، لكنّ عزيزنا غابور ليس من هؤلاء، وعلّته الوحيدة الغباء المزمن، الذي لا شفاء منه.
ـ هذا صحيح! شريطة أن يكون لديك، يا قبطان، دليل على ذلك.
ـ دليلي أنّ غابور لا يفرّق بين جلد الدجاجة وجلد البقرة!
قهقه العجوز الإنكليزيّ وقال:
ـ مفارقة جيّدة!
أضاف:

ـ لكنّني لم أفهم يا عزيزي الفارق بين الجلدين!
ـ غابور فهم وهذا يكفي!
ـ لا! لا يكفي! أريد أن أفهم أنا أيضًا، حتّى لا أتّهم نفسي بالغباء! مع أنّني..
قال غابور مقاطعًا:
ـ شديد الذكاء!
ضرب العجوز بقبضته على قوس البار وقال:
ـ إِسمع يا غابور! أنا شديد الذكاء، بل حادّ الذكاء، وبرغمك! غير أنّ الفهم ضروريّ، أليس كذلك يا قبطان؟
ـ تمامًا!
ـ إذن لماذا الاستغباء؟ أعترف! لم أفهم! فإذا كان غابور على شيء من ذكاء، فليقل لي ما هو الفارق بين جلد الدجاجة وجلد البقرة، وعندئذ سأنحني، أنا العجوز، احترامًا له!
قال غابور:
ـ أنت لست عجوزًا يا سيّدي، أقول هذا لوجه الحقيقة وحدها!
ـ إِبلع لسانك يا غابور! إنّني أراهن على زجاجة من الويسكي، إذا كنت قد فهمتَ شيئًا!
ـ وأنا أراهن على زجاجتين من الويسكي، إذا كان القبطان نفسه يفهم ما قاله!
ـ جيّد يا غابور! نحن الآن أمام الرّقم الصعب! تعرف ما هو الرّقم الصعب؟ لا؟ أنا أشرح لك: إنّه التحدّي! أنت تتحدّى القبطان، والقباطنة، في كلّ العالم، يدفعون حياتهم

ثمنًا لشرفهم، إذن القضيّة واضحة! التحدّي يساوي الشرف، دافع عن شرفك يا قبطان!

سأل بدر:

ـ بطريقة المبارزة يا سيّدي!؟ وبأيّ سلاح!؟

قال العجوز الإنكليزيّ:

ـ بسلاح اللّعنة! أكرّر: بسلاح اللّعنة! أنت، يا قبطان، تعرف أنّ زمن الفروسيّة مضى، فهل تريد استغبائي أنت أيضًا!؟ إنّني لا أهتمّ بمن يكسب الرهان، التحدّي هو ما يهمّني، تقبل أم ترفض؟ الجواب بنعم أو لا.. كأس آخر يا غابور، سلفة من الزجاجتين اللّتين راهنت عليهما..

قال غابور:

ـ الشرب، يا سيّدي، لا يكون بالتسليف! هنا بار، وليس مصرف للتسليف!

صاح العجوز فريدي:

ـ أحمق! القبطان قَبِل التحدّي، فماذا تريد بعد!؟ أن ترى ما في سرواله الداخليّ!؟ هذا الويسكي مغشوش، كما قال القبطان تمامًا، ولكن لا بأس.. انتبه يا غابور، لا تتخلّع أمامي كعاهرة، ولا تغنج كغلام، أنا لست بحّارًا، وليس لي رغبة في عقد قراني عليك، كنسيًّا أو مدنيًّا، دع القبطان يتكلّم! شرفه موضع امتحان، وهذا بسببك، أنت تحدّيت، ونحن سنردّ على تحدّيك.. أنت معي يا قبطان؟

قال بدر:

ـ معك تمامًا يا سيّد فريدي! شرفي، كقبطان، في الميزان،

ولا بدّ من الدفاع عنه!

- جيّد! لكن انتبه! هناك شرف البحر أيضًا، إذا ما كنت قبطانًا حقيقيًّا.. لو غرقت هذه الباخرة، لا سمح الله، لن يغرق معها قبطانها فقط، عليك أن تغرق معه أنت أيضًا، هكذا هي التقاليد البحريّة.. والدي كان بحّارًا، وكان يتحدّث إليّ عن عمل البحّار وتقاليد البحر.. لست سكرانًا! أعرف ما أقوله! اِنتبه..

قاطعه غابور قائلاً:

- إلى متى سنظلّ، يا سيّدي، في حالة انتباه؟ دع القبطان يتكلّم..

- جيّد! أنت على حقّ يا غابور! تكلّم يا قبطان! قل لنا عن الفرق بين جلد الدجاجة وجلد البقرة.. كن صريحًا! اسمك بدر؟ لا بأس! كلمة قبطان تكفي، ولكن.. اِنتبه يا قبطاني العزيز، غابور هذا ابن زنى.. نعم ابن زنى! وهو الذي وضعك في هذه الورطة.. إنّه يغشّ في الويسكي، فلا تغش أنت بالكلام! أنا صاحٍ بشكل كامل.. هيّا! كن شجاعًا، دافع عن شرفك أمام هذا الرّقيع.. هل تُحبّ السَّبَق؟ نعم؟ إذن اتفقنا، أنت الحصان الذي أراهن عليه، وهذا هو المضمار.. هيّا! دع الخيول تنطلق!

قال بدر ضاحكًا:

- عن أيّة خيول تتحدّث يا سيّدي العزيز؟

صاح فريدي:

- كيف عن أيّة خيول!؟ أعطيت إشارة الانطلاق، فلماذا لا

ترمح؟

قال غابور ضاحكًا بدوره:

ـ كيف ينطلق وأنت تسدّ عليه الطريق؟ ومن الذي سيتكلّم، أنت أم هو!؟

ـ جيد! أنت على حقّ يا غابور، ولكن انتبه! إنّني أراهن على حصان رابح، عمري وأموالي كلّها ضاعت في السبق، ما معنى هذا؟

ـ معناه أنّك لا تعرف السكوت!

غمز فريدي وقال:

ـ هل تسمع يا قبطان؟ هذا الابن..

قاطعه بدر قائلاً:

ـ لا حاجة للسباب يا سيّد فريدي، دعني أتكلّم..

ـ تتكلّم عن ماذا؟

ـ عن جلد الدجاجة والبقرة!

ـ جيّد! تكلّم.. إنطلق أيّها الحصان العربيّ الأصيل، وليكن الله معك!

قال بدر:

ـ كان هناك سلطان عثمانيّ..

ـ جيّد!

ـ وقد رغب في امتحان رجل..

ـ جيّد!

ـ فسأله..

ـ مَنْ سأل مَن؟

ـ السلطان طبعًا! سأل السلطان الرّجل: ما هو أطيب شيء في الدجاجة؟ قال الرّجل: جلدها يا مولاي! قال السلطان أنعموا عليه..

ـ جيّد جدًّا! وبعد؟

ـ كان للرّجل جار، وقد حسد الجار هذا الرّجل على النعمة التي هبطت عليه، فسأله عنها، وكان الرّجل طيّب القلب فروى لجاره ما حدث معه!

ـ ومسألة البقرة؟

ـ ذهب الجار إلى السلطان، طالبًا أن يمتحنه هو الآخر، فسأله السلطان: ما هو أطيب شيء في البقرة؟ فقال: جلدها! وعندئذ صاح السلطان: خذوه واجلدوه!

صاح فريدي:

ـ رائع! عظيم! خسرت الرّهان يا غابور.. هات الزجاجتين!

قال بدر:

ـ لا بأس يا سيّد فريدي.. أنا أتنازل عنهما!

ـ أهبل!

ـ هذا صحيح!

ـ ولست الحصان الذي راهنتُ عليه!

ـ صحيح أيضًا!

ـ وأنت متواطئ مع غابور!

ـ صحيح أيضًا وأيضًا!

قالت السيّدة جان توليب التي سمعت آخر الحكاية:

ـ ما هناك؟ ما هو الصحّ وما هو الخطأ!

قال فريدي:

ـ القبطان دافع عن شرفه دفاع الفرسان! اِنتبهي يا سيّدتي! القبطان..

قالت السيّدة توليب

ـ القبطان دافع عن شرفه، وبعد؟

ـ تآمر مع غابور عليّ.. أضاع شرفه مرّة أخرى! اللّعنة! يربح ويتنازل عن الذي ربحه؟ ماذا تسمّين هذا؟

ـ حماقة!

ـ شكرًا! وصلني حقّي.. إلى اللّقاء!

قال فريدي ذلك ومضى وهو يترنّح، جلست السيّدة توليب على كرسيّ البار بجوار بدر وسألت:

ـ هل كان هناك رهان؟

قال بدر:

ـ نعم!

ـ وربحته؟

ـ نعم!

ـ وتنازلت عنه؟

ـ نعم!

ـ إذن أنت صديقي الرائع! ويسكي يا غابور، ومن النوع المغشوش كما يقول القبطان، مع كثير من الثلج، ولندع الحساب مع عزيزنا القبطان إلى وقت آخر!

كان بدر الآن مسترخيًا، على البار لا بدّ أن يجد الشارب متعة ما: محدّثًا بارعًا، سكّيرًا مخمورًا، امرأة كحوليّة، غانية

تبحث عن صيد، رجلاً يقصّ أحداثًا غريبة، رحّالة يتحدّث عن مشاهداته، شابّة تشرب لتنسى، شابًّا مع حبيبته، أديبًا، فنّانًا، لصًّا، متشرّدًا، طائفة من البشر، تشكّل خليطًا عجيبًا، وفي أسوأ الأحوال يجد بارمانًا ظريفًا، أو نكدًا، أو فضائحيًّا، وقصصًا فيها ما هو واقع، أو غريب، أو خرافيّ، كما في الدرجة الثالثة في القطار، أو عنبر في باخرة ركّاب، أو يسمع حديثًا بين الكأس وشاربه، في صمت منسوج من مشاعر بشريّة، أو ضجّة أصواتها برج بابل، أو عراكًا وسبابًا وقهقهة وثرثرة تبدأ ولا تنتهي، فيها المضحك وفيها المبكي معًا!

بدر كان مسترخيًا لأنّه بحّار ــ، ولأنّ البحّار أكثر الناس معرفة بالبارات والبارمانات، وقد تخلّص بدر، شيئًا فشيئًا، من شعوره بالغضب، بسبب الشوشرة التي حدثت عند مقدّمة السفينة، حيث مجلس إبراهيم الشفّاط الدائم. «اليوم عرفوا جميعًا أنّني أحمي طيبتي بالحزم، واليوم عرفوا أنّ الطيبة ليست ضعفًا، وأنّني كنت قادرًا، بلا مبالاة بأيّة مسؤوليّة، أن ألقي بمن يسيء إلى لبنان، أو إلى مجموعة الرّحلة اللبنانيّة، إلى قروش البحر، سواء كانت الإساءة موجّهة إلى فرد أو إلى أفراد!» أضاف بدر وهو يشرب صامتًا: «كنت، قبلاً، أقدّم مساعدتي البسيطة، المتواضعة، لكلّ من يحتاجها في هذه الرّحلة، دون أن أجعله يعرف من أنا. الكرم تعلّمته من البحر، كذلك نكران الذّات، والشجاعة، والتضحية في وقتها، وتعلّمت، من البحر أيضًا، كيف أكون هادئًا في حين، ثائرًا في حين، وكيّسًا مقدامًا في كلّ حين، غير أنّ الذين خلطوا بين الطيبة والضعف، تمادوا كثيرًا، ظنًّا منهم ألاَّ أحد يحاسبهم،

لأنّهم في رحلة، وأخلاق الرّحلة تبيح لهم ما لا يُباح، وأنّ الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة، بكلّ مآسيها، قد شكّلتهم، نفسيًّا وجسديًّا، تشكيلاً معيبًا، استساغوا معه الفوضى والفلتان، وإطالة الألسنة، ونهش الكرامات والأعراض، والتصرّف بعقليّة ميليشاويّة، قوامها الاعتداء، بكلّ أنواعه، على الأشخاص والأملاك، دون أن يكون هناك عقاب! إنّني لست مصلحًا اجتماعيًّا، ولست سياسيًّا، أو واعظًا دينيًّا، أو مسؤولاً أمنيًّا، وأعرف أنّ السلوكيّات، بعد كلّ الذي جرى، تحتاج إلى عقود كي تستقيم، إذا ما استقامت، إلاّ أنّ الذي جرى في لقاء التعارف، وفي وقت الفطور في المطعم، ثمّ على مقدّمة السفينة، أمر لا يطاق، فكان لا بدّ من التدخّل، وكنت على استعداد له، وقد تدخّلت واعيًا، مدْركًا، عاقلاً، وحسمت الشرّ حسمًا باترًا!»

غابور أنسى بدر بعض أشجانه، وفريدي الإنكليزيّ، بسكره، مكره، لفتاته، ثرثرته، أفرغ صدر بدر من احتقانه، فلمّا جاءت السيّدة توليب وجدته على الحال التي يحبّ أن يكون عليها، أو يرغب في أن يكون عليها، دائمًا وأبدًا، ومن حسن الحظّ أنّها كانت متفهّمة للأمور، فلم تعاتب، أو تسأل، أو تغتاظ من غيابه عنها، أو أنّها، بذكاء المرأة الفنّانة، كانت تقدّر أنّ العمل في البحر، وكذلك السفر فيه، هو نوع آخر من الفنّ، يحتاج إلى رعاية، تقدير، استيعاب، سماحة، وعندما قصّ عليها غابور حكاية جلد الدجاجة وجلد البقرة، ومراهنة فريدي وطرافته، أغرقت في الضحك، فرفعت كأسها قائلة:

ـ في صحّة قبطاني العزيز!

قال بدر ضاحكًا:

ـ قبطانك العاطل عن العمل في الوقت الحاضر!

ـ قبطاني الذي يعمل في مجال آخر، من نوع آخر.

ـ أنت على حقّ إذا كنتِ تعتبرين التسكّع عملاً!

ـ مصارعة الدِّيَكَةِ ليست تسكّعًا.. إنّها، عند بعضهم، مثل مصارعة الثيران!

سأل غابور:

ـ وأين تجري هذه المصارعة كي أذهب وأتفرّج مستمتعًا!؟

ـ في الكافتيريا، في المطعم، في عنبر السفينة، على سطحها، عند مقدّمتها.. الديك العربيّ هذا، ديكي، هشّم رأس الدّيك الإيطاليّ ألبرتو، لكن ليس لأجلي، بل لأجل امرأة أخرى!

قال بدر ضاحكًا:

ـ أقدّم احتراماتي يا سيّدتي! أنت مطّلعة جدًّا!

قالت جان:

ـ وبأوسع ممّا تظنّ!

ـ ومن هو المخبر الخاصّ الذي يعمل لحسابك؟

ـ المخبر الخاصّ يبقى مخبرًا خاصًّا، لا يُفشى سرّه.

ـ وإذا قلت لك إنّني أعرفه؟

ـ تكون واهمًا بامتياز.. غابور لا علاقة له بالموضوع!

ـ أنا لم أتّهم غابور، فلماذا ذكرتِه، إذا لم تكن له علاقة بالموضوع!؟

ـ كي أعرف مدى قدرتك على التحليل النفسي!

ـ مراوغة؟
ـ شيء من هذا القبيل.
ـ المرأة هي المرأة دائمًا.
ـ والرّجل هو الرّجل دائمًا أيضًا!
ضحك بدر وقال:
ـ أنت ضليعة بالمنطق يا عزيزتي الفنّانة!!
ضحكت جان وقالت:
ـ صديقك القبطان ساخر على طريقته يا غابور! هل سمعت ما قال؟
ـ صديقي لم يقل شيئًا، الويسكي هي التي قالت يا سيّدتي!
ـ هذا صحيح! قال بدر.
سألت جان:
ـ كم مرّة في اليوم تردّد هذه العبارة يا قبطان؟
ـ أوّلاً أنا بدر ولست قبطانًا، في الوقت الحاضر على الأقلّ!
ـ وثانيًا؟
ـ أردّد هذه العبارة عندما أجد نفسي أمام مماحكة مزمنة، مثل السفلس، المزمن تمامًا!
ـ هل أصبت به كثيرًا يا بدر؟
ـ وشفيت منه كثيرًا يا جان!
قال غابور:
ـ لا تصدّقي يا سيّدتي.. الحيطة واجبة!
ـ وما علاقتي أنا يا غابور؟
ـ أنا أتكلّم بالمطلق يا سيّدتي..

قال بدر ضاحكًا:

ـ أنت ابن عاهرة يا غابور، ومن أجل هذا أحبّك!

قال غابور:

ـ وأنا أحبّك للسبّب نفسه!

قالت جان:

ـ وأنا أرسم لوحة حول هذا الموضوع بالذات!

سأل بدر:

ـ هل يمكن أن أراها؟

قالت جان:

ـ ما رأيك يا غابور؟

ـ لا بأس يا سيّدتي!

أضاف:

ـ ماذا ينقص لإتمام اللّوحة؟

ـ بعض الويسكي وبعض المقبّلات!

ـ وقتًا ممتعًا إذن!

ـ هذا إذا لم يكن لصديقك موعد مع رسّامة أخرى!

قال غابور:

ـ صديقي عاطل عن العمل بكلّ أنواعه.. إنّه يثير الشفقة!

قال بدر ضاحكًا:

ـ هذا صحيح تمامًا يا ابن الكلب!

وغادر البار مع السيّدة جان توليب إلى قمرتها الخاصّة.

بلغ غيداء ما وقع في المطعم وقت الإفطار، وما جرى على مقدّمة السفينة، وموقف هزار في الحادثين، وتصرّفها، هي ولويزا، تصرّفًا غير لائق، ضدّ بدر والآخرين، كما تذكّرت غيداء تفصيلات لقائها الأوّل ببدر، في الكافتيريا، والحقد الذي تبدّى في تصرّفات هزار وأقوالها، والحوار الذي دار، وانزعاج السيّدة صبيحة، والنزهة اللّيليّة على سطح الباخرة، وكلّ ذلك الماضي البعيد، الجميل، الذي آثر فيه بدر، طول الوقت، وعلى مدى عقدين ونصف، أن يظلّ بعيدًا، يرى إليها دون أن تدري، هو الذي، كما قالت السيّدة صبيحة، كان معجبًا بها، كاتمًا إعجابه، كابتًا معاناته، أَنوفًا، رافضًا الانضمام إلى جوقة المعجبين، في الجامعة وبعدها، حتّى لا ترى إليه كما الآخرين، أو تتضايق من تقحّمه عالمها، أو مزاحمة الآخرين عليها، أو قول أيّة كلمة قد لا تجد قبولاً منها، وعندئذ يتأذّى هو، أو تتأذّى هي!

«غريب سلوك هذا الإنسان بقدر ما هو واقعيّ! إذا كان صادقًا، وهو ما تؤكّده السيّدة صبيحة، فإنّ ترفّعه يشي بترفّع مرضيّ، لولا أنّ الدلالة النفسيّة، في هذه الحال، لا تسمح إلاّ

بافتراضين: الأوّل النسيان والانسحاب، والثاني نفاد الصبر والإقدام، إلاَّ أنّ بدر لم ينس ولم يُقدم، ظلّ على مبعدة مقربة، في صبر كأيّوب، وطول نفس كغطّاس محترف، وبعد هذا الزمن كلّه، ألتقيه على ظهر الباخرة، في مصادفة غريبة! مصادفة!؟ من يدري! ليتني أدري، كي أقطع الشكّ باليقين. إنّه هنا وليس هنا! هناك وليس هناك! أين إذن؟ ماذا ينتظر؟ يخافني؟ أخافه؟ لست بالجبانة، وليس بالجبان، نحن عدْل ولن ترجح كفّته بأيّ حال، والصراع، إذا ما كان، فإنّ نتيجته لصالحي، ولا بدّ أنّ بدر يعرف هذا، إذا ما كان قبطانًا حقيقيًّا، ومحبًّا حقيقيًّا، وله مثل هذه التجارب الوفيرة، في البحر والبرّ، وكذلك في سنوات الحضور والغياب، مع تمسّكه بموقف لا يحيد عنه: هو النظر إليّ من بعيد!» «الآن، أضافت، اقترب أحدنا من الآخر، عرف أحدنا الآخر، القدر أراد، خضع كلانا لمشيئة قدره، ولكن ماذا بعد!؟ لعبة «الشبح» تلك انكشفت، فهل تعمّد كشفها؟ جاءت في سياق سلوك فرضته الرّحلة؟ آثر، حين لم يجد بدًّا من الظهور، أن يظهر؟ أن يثبت وجوده؟ لمن ولماذا؟ لي أنا؟ أشكّ! للآخرين؟ أشكّ أيضًا! حسبته، في البدء، غامضًا، وعندما التقيته وجدته صريحًا. الخبث والصراحة نقيضان، ليس بالخبيث قطعًا.. مغامر؟ ربّما، وإلى حدّ ما، لا أكثر. ترك الأدب والتدريس، التحق بالكلِّيَّة البحريَّة في أثينا، تخرّج قبطانًا، وفي هذا تغامر واضح، وفيه، أيضًا، نفور من الحياة الاجتماعيّة، الصالونيّة، البليدة، وابتعاد عنها، الأمر الذي يجعل اختياره معقولاً، لا رغبة تغامريّة فيه. تبقى الشهامة، يبقى الصمت، الابتعاد، العزوف

عن التملّق، وهذه كلّها صفات مشتركة بين ناس كثيرين، إلاّ أنّ الناس الآخرين، أكثرهم على الأقلّ، يملّ، ييأس، ومع الأيّام ينسى. بدر لم يملّ، لم ييأس، لم ينس. المرافعة، في الكافتيريا، كانت إيضاحًا لكلّ ما جرى قبلها، فلماذا الإيضاح؟ طبعًا ليس للسيّدة صبيحة، وكذلك ليس لي، لأنّه، مرّة واحدة، لم ينظر في عينيّ مباشرة، ومرّة واحدة لم تفلت منه كلمة تلميح، تعني، بالنّسبة لي، معنى خاصًا. ظنّي أنّه، في مرافعته، أراد التنفيس عمّا به من ضيق، أكثر من الميل إلى إقناع أيّ منّا بأنّه إنسان مستقيم، وقد استعاد نفْسه، في المرحلة الأخيرة من الحوار مع هزار، فقال ساخرًا، كما فعل في لقاء التعارف مع لويزا: هذا صحيح!»

«لويزا هذه مهسترة، قفّة أعصاب وعظام، كما قال ناصر عنها، فماذا بشأن هزار!؟ موقف هذه الفتاة ملتبس، فيه غيرة؟ ربّما منّي، وفيه حقد؟ ربّما من تهجّم ناصر عليها، وفيه كره؟ ربّما له وجه آخر سيتّضح! إلاّ أنّ بدر يفعل وكأنّه لا يفعل. عرف أنّني أوغرت صدر لويزا عليه، قال علنًا إنّ سيّدة ذهبت إلى لويزا في الصباح، إلاّ أنّه لم يذكر اسم هذه السيّدة التي هي أنا، وكان بإمكانه أن يفعل، وأن يوجّه إليّ صفعة مؤلمة، فلماذا امتنع عن ذلك؟ كنت سأقول: «هذا غير حقيقيّ، إنّه افتراء!» وكان سيجيب: «ما تقوله السيّدة غيداء صحيح!» وفي هذا القول صفعة أخرى، لا تقلّ إيلامًا عن الأولى، ومجلبة للهزء، درأها، كلّها، بحسن تصرّفه، وهذه محمدة له. إنّ تفسير هذا سهل، إذا ما رددته إلى إعجابه بي، فماذا بشأن هزار؟ أنقذها من براثن ألبرتو المخمور، الموسوم بالبوهيميّة أو الإرهاب،

ولم يستغلّ ذلك في التقرّب إليها، عقب الحادث أو بعده، أو في الكافتيريا، عندما هاجمته هزار، لم يشر، ولو بشكل عابر، إلى أنّه أنقذها، كأنّ هذا لا يستحقّ الذكر فهل كان هذا كلّه، في طوايا نفسه، تدبيرًا أم ترفّعًا؟ قصديًّا أم عفويًّا؟ هذه أسئلة يجمل بي، قبل الحكم عليه، أن أفكّر فيها، لأنّها تسحب الماضي على الحاضر، تعطي لمواقفه، منذ رآني في الجامعة حتّى الآن، مصداقيّة، أو تكون العكس!» قالت غيداء كلّ ذلك في ذاتها، وهي في حيرة من اهتمامها ببدر، وتفكيرها به.

كانت غيداء لا تعرف أنّ الذي لا نهتمّ به لا نفكّر فيه. الإنسان، أكثر الأحيان، مع أكثر الناس، أمام بسمة أو عبسة: أن يفرح للبسمة يعني أن يزعل للعبسة، وفي هذا خطأ! العتاب ليس صابون القلوب دائما. من يعاتب يكن راغبًا في الصلح مع الآخر، يصبح الأضعف بالنّسبة لهذا الآخر، وعندئذ يقع في خطأ يتطلّب ثمنه. غيداء بذكائها الفطريّ والمكتسب، وبتجاربها الطويلة، تعرف هذا، لذلك تحاول ألاَّ تقع فيه، غير أنّ المحاولات لا تنجح كلّها دائمًا، لذلك يأتي الندم في غير أوانه. بدر ندم عن مرافعته في الكافتيريا، وهو يجلس مع غيداء للمرّة الأولى في حياته، وهذه ندمت الآن لأنّها فكّرت ببدر بعد اللقاء الأوّل به، والنَّدَمان كانا في غير أوانهما، فاستجرّا ملامة للنفس، لم تفعل سوى تعميق الندم، والرغبة المتسرّعة في إصلاح الخطأ. بدر نجح في نبذ العتاب مع غيداء على فعلتها، وغيداء نجحت في ترك الكلام حول موقف ناصر منها، مع كل اعتقادها أنّه، في دفاعه عن بدر أمام هزار، كان مدفوعًا من بدر نفسه. «الأفضل تنحية التفكير في إنسان لا أهتمّ

به، الأنسب ألاّ أفرح بابتسامته، وألاّ أزعل من عبسته، الملائم عدم التسرّع في إصلاح الخطأ، كي لا يجعلني التسرّع أقع في خطأ مضاعف.. ما أشهى فنجان القهوة الآن! وماذا إذا ارتديت ثيابي وذهبت إلى الكافتيريا لتناول هذه القهوة؟ إنّها فكرة معقولة، وفي وقتها تمامًا!»

كانت غيداء تهمّ بتنفيذ ما فكّرت فيه، حين طرق باب القمرة على غير توقّع. دخلت هزار ممتقعة الوجه، مرتعشة القسمات، مضطربة جسديًا ونفسيًا، ترغب في أن تخرمش الفضاء، لعجزها عن خرمشة وجه بدر، ساخطة على غيداء لأنّها لا تجاريها في كره «هذا الإنسان البغيض الذي اسمه بدر» وتخالفها الرأي في أمره. ارتمت هزار على سريرها وأنشأت تنشج، راحت غيداء تسألها عمّا حدث، ولماذا هذا الاضطراب وهذا البكاء، مع شعور خفيّ، مبهم، بالارتياح «لأنّ هذه الفتاة الرعناء، الحقود، نالت جزاءها، دون أن تعرف غيداء نوع هذا الجزاء».

قالت هزار بعد أن مسحت دموعها:

ـ ليتني لم آت في هذه الرّحلة!

ردّت غيداء بجدّيّة:

ـ كان ذلك أفضل، كي أرتاح من سكناكِ معي في قمرة واحدة.

ـ معنى هذا أنّني أضايقك.

ـ بأكثر ممّا تتصوّرين!

ـ لكنّني أترك لك القمرة طوال النهار، وبعض اللّيل.

ـ هذا لا يكفي! أرغب في أن تتركيها نهائيًا!
ـ أنا التي أدافع عنك..

صرخت غيداء:

ـ من كلّفك بهذا الدّفاع؟ وعن أيّ شيء تدافعين؟ ثمّ لماذا تمنّين عليّ بترك القمرة أحيانًا؟ اِبقي فيها! أنا لا أستقبل عشّاقي في غيابك، لست من الصنف الذي تتصوّرين، وقد حسبتُ أنّك تعرفين هذا!

عادت هزار إلى البكاء وهي تقول من بين دموعها:

ـ أعرفه! أعرفه! لا حاجة لتذكيري به، أنا التي جئت إليك محتمية بك.

أمسكت غيداء بها من شعرها، رافعة رأسها إلى فوق وقالت:

ـ اِسمعي جيّدًا ما أقول! أنا لست من حرس الباخرة لتحتمي بي، وهذه الوقاحة التي تصدر عنك تسيء إليّ! لا أريد لويزا أخرى تسكن معي.. تدبّري أمرك.
ـ تطردينني؟
ـ وبغير رحمة!
ـ هذه قسوة!
ـ الحياة هي القسوة! الطيبة في غير محلّها هَبَل.. تظنّينني هبلاء؟ هيّا اجمعي أغراضك وارحلي.. أردت لك الخير، وتريدين لي الشرّ؟ ما علاقتك ببدر؟
ـ أنا!؟ إنّني أكرهه! أكرهه! هل تفهمين؟
ـ لأنّني أفهم أسأل.. الكره هو الوجه الآخر للحبّ، وهذا

يعرفه حتّى بسطاء الناس!

ـ أنا لا أكرهه فقط، بل أحقد عليه أيضًا!

ـ وما السبب!؟

ـ هكذا دون سبب!

ـ لا سبب دون مسبّب، وهذه بدهيّة بالنّسبة لطالبة جامعيّة مثلك.. هناك، في سريرتك، دافع لهذا الحقد، إبحثي عنه تجديه!

انتصبت هزار متنمّرة وصاحت:

ـ السبب هو الغيرة، وقد قلت لي هذا مرّة، وأقول لك الآن إنّك واهمة!

صفعتها غيداء بقوّة وقالت:

ـ تأدّبي عندما تتحدّثين مع غيرك.. الوهم أيضًا إيحاء بشيء ما، والغيرة لا تتقنّع بالوهم بل بالكره، إنّني درست أمورًا كهذه منذ كنت في الجامعة، واختبرتها على مدى عقود من الزمن، عندما كنتِ أنتِ صغيرةً بعد، وكنت بلهاء كما أنت الآن! هيّا ارحلي!

ـ إلى أين!؟ ثمّ إنّني دفعت كغيري تكاليف هذه الرّحلة، فلا منّة لك أو لغيرك عليّ.

قالت غيداء بهدوء مسربل بالتصميم:

ـ عندما تخرجين من هذه القمرة اذهبي إلى الشيطان، هذا لا يهمّني أبدًا، وأنا لست شاذّة حتّى أدفع عنك نفقات هذه الرّحلة أو غيرها، يكفي أنّني قدّمتك، في بيروت، إلى المجتمع الراقي، المجتمع الثقافيّ، الأدبيّ والفنّيّ، لكن

هذا لا أهمّيّة له عندي، ولا أمنّ عليك أو على غيرك، فهذا ليس من الأخلاق، لكن ليس من الأخلاق أيضًا الإساءة إلى الغير وأنت محسوبة عليّ. . لويزا هذه، التي تقلّدينها، أو ربّما هي التي تقلّدك، لا تصلح أن تكون نعلاً لحذائي، البذاءة مرفوضة، وقد حذّرتك فلم تبالي، تماديت في التهجّم على من هو أكبر منك عمرًا ومقامًا، وقد لاحظتُ ذلك، فهل تنكرين سلوكك الشائن هذا؟ لماذا إذن؟ ومن أجل أيّ غرض؟ عفراء حاولت، صباح اليوم في المطعم، أن تلاطفك، أن تحول بينك وبين الشرّ، أنت ومن معك، فكان ردّك الإمعان في الاستفزاز! وبعد ذلك، على مقدّمة السفينة، كنتِ شرّيرة بمثل ما كنتِ في المطعم، والنتيجة؟ جئت إليّ باكية، فماذا في وسعي أن أفعل لأجلك؟ دافعي عن نفسك، وهذا أفضل من البكاء، دافعي عنها كما تدافعين عنّي إذا كنت صادقة، قولي صراحة ماذا تريدين؟ وما سبب هذا البكاء وممّ أنت خائفة؟ إذا أقنعتني أبقيكِ معي، وإلاّ فإنّ الباب يتّسع لجمل!

نكّست هزار رأسها التياعًا. غيداء قويّة بما يكفي، جريئة بما يزيد، لها من تجاربها ما يجعلها تكشف حتّى الخبيء في السريرة، رغم أنّ هزار لا تعرف ما في هذه السريرة، كما لا تعرف لماذا تجاري لويزا، وماذا تريد من بدر، وللمرّة الأولى، الآن، تتساءل: «هل هي الغيرة فعلاً؟ وهل أكره بدر لأنّني لا أستطيع أن أكون قويّة مثله؟ قال لي اليوم، على مقدّمة السفينة: «ألبرتو قال في التحقيق معه، كلامًا ليس في صالحك، كلامًا لا يقال أمام الحاضرين، ما رأيك أن أقوله لك في أذنك؟» خفت!

أنا لم أفعل سوى أنّني ابتسمت لألبرتو، فهل الابتسام هو الذي شجّعه على التحرّش بي؟ مؤكّد! الابتسام لرجل مخمور إغراء، ربّما زعم ألبرتو في التحقيق أنّني أغريته، أو أنّه ادّعى ما هو أكثر من ذلك، وبدر لم يفضحني أمام الحاضرين، وهو الذي أنقذني من ألبرتو، فما سبب كرهي له؟ الحب!؟ هذا مستحيل! لكن لماذا هو مستحيل؟ غيداء لفتتني إلى ناحية مجهولة منّي، قد تصحّ وقد لا تصحّ، إلاّ أنّها جديرة بالانتباه، خليقة بالتفكير، وهذا يحتاج إلى وقت، وغيداء لم تتح لي هذا الوقت، طردتني فأين أذهب؟ بدر قال: «من يقع عليه ضيم يراجع العمّ إبراهيم، وسيُرفع الضيم عنه فورًا» فهل أذهب إلى العمّ إبراهيم؟ أشكو إليه ورطتي أم أعتذر لغيداء؟ بدر وحده قادر على مساعدتي، فهل يكون شهمًا، كما يتظاهر، فينسى ويساعدني؟ إنّني أرجّح هذا، وسأذهب إليه، يجب أن أذهب إليه، وبعد ذلك ليحدث ما يحدث!»

انجردت هزار نحو الباب تريد الخروج دون متاعها، صاحت بها غيداء:

ـ إلى أين؟ ولماذا لا تأخذين أغراضك معك؟

قالت هزار:

ـ سأعود لآخذها، حلمك عليّ.

ـ سأكون حليمة إذا قلت لي إلى أين أنت ذاهبة.

ردّت هزار متحدّية:

ـ إلى بدر!

ـ بدر!؟

هتفت غيداء بعفويّة ندمت عليها فورًا، إلاّ أنّها راوغت قائلة:

ـ تعقّلي يا هزار! بدر لا ينفعك بشيء، لأنّه لا يستطيع أن يفرض عليّ شيئًا، وأنت تعرفين عنادي!

تمادت هزار في تحدّيها فقالت:

ـ سأصارحه بحبّي له!

ـ حبّك!؟

ـ نعم حبّي!!!

ـ وهل تحسبين أنّه سيصدّقك، ما دمت غير صادقة في ما تقولين؟

ـ ولماذا غير صادقة؟

ـ لأنّ التحوّل من الكراهية إلى الحبّ، لا يحدث بمثل هذه القفزة في الهواء!

قالت هزار:

ـ بلى! يحدث! إلاّ إذا كنت تغارين..

أضافت هزار أمام صمت غيداء:

ـ أو تقبلين اعتذاري!

صاحت غيداء:

ـ لا أقبل اعتذارًا مشروطًا!

ردّت هزار:

ـ أعتذر بغير شروط.

ـ دعيني أفكّر إذن!

أضافت:

ـ بإمكانك البقاء مؤقّتًا، مع وعد ألاّ يتكرّر منك ما حدث.
ـ أعدك!
ـ عن قناعة أم مسايرة؟
قالت هزار:
ـ أفكاري مبلبلة، صدّقي ما أقول.. ما بدر منّي لم يكن طيشًا، لكنّه لم يكن تعقّلاً أيضًا، لماذا فعلت كلّ ذلك؟ هذا ما أفكّر فيه الآن! إنّني فتاة جامعيّة كما تقولين، لكنّ الجامعة تعطي شهادة في مادّة الدراسة لا في مادّة التجربة.. هذه تُكتسب، تدريجيًّا، من الحياة نفسها، ومن العيش مع النّاس. أنتِ قلت هذا، وأجده، في هذه اللّحظة، صحيحًا، إلاّ أنّ الدافع وراء ما فعلت ليست الغيرة، وليس الحبّ، وفي وسعي تأكيد ذلك!
سألت غيداء:
ـ بأيّ طريقة ستؤكّدين ذلك؟ هكذا بغير تفكير!؟ وتريدين أن أصدّق!؟ فكّري أوّلاً! الإنسان لا يعرف نفسه حتّى مع التجارب، فكيف إذا كان يزعم أنّه يعرفها دونها؟ النفس ليست صفحة بيضاء، نقرأها بالسهولة التي تتصوّرين. أنا نفسي لا أعرف نفسي! في غيابك أفكّر، أطيل التفكير، والنتيجة لا شيء! تحديد المواقف صعب، والوصول إلى هذا التحديد، عن يقين بصحّته، أصعب! يبقى هناك، في الداخل، دافع مبهم، وهذا الدافع مراوغ، وكذلك العقل، وأيضًا العاطفة، المراوغات النفسيّة لا حصر لها، والتحليل الذاتيّ محكوم بالتبرير، وكلّ منّا يبرّر ما يفعل، وأحيانًا عن قناعة، ثمّ يكتشف أنّ تبرير فعله لا يبرّره الواقع الذي

يعيشه، وتدلّ التجربة، حين يكون هناك خطأ، أنّ تبريرنا كان مراوغة نفسيّة، فنندم بعد فوات الأوان! هذا ما توصّلت إليه دراسةً وتجربةً، وهذا ما يجعلني في حيرة، عندما يكون، في حياتي، طارئ جديد. .

قالت هزار:

ـ أنا لم أدرس في الجامعة هذا كلّه، ولم أحصل على مثل تجاربك، إلاَّ أنّ الطارئ الجديد في حياتك أعرفه، كما تعرفينه أنت تمامًا!

تفرّست غيداء في ملامح صديقتها هزار بغير قليل من الدهشة. «إذا كانت تعرف الطارئ الجديد في حياتي حقًّا، فمعنى هذا أنّني مكشوفة نفسيًّا، وبشكل كامل! هزار تظنّ أنّ وجود بدر على الباخرة، ومعنا في رحلة واحدة، هو الطارئ الجديد! هذا خطأ! الطارئ الجديد في حياتي هي حياتي نفسها. البحر، الوحدة، الأحداث، هذه هي الطارئة. كنت أعيش، حتّى الآن، لحظتي الرّاهنة. فجأة ذكّرتني صبيحة الدعجاوي بالماضي، الماضي الجميل كما قالت، التذكير سلّط الضوء على بقعة في الداخل، نسج العتم عليها نسيجه العنكبوتيّ، فلمّا تضوّأتْ بانت، صارت حاضرًا، صارت وجودًا، صارت تأمّلاً، وقد فرض عليّ وجودي، من خلال التأمّل، استعراض شريط عمري، وعندئذ كان التساؤل الذي يولّد تساؤلاً، لا عن العيش، بل عن معناه!»

سألت غيداء دون تمهيد:

ـ هل تعرفين معنى العيش يا هزار؟

فكّرت هزار قليلاً وأجابت:

ـ ما هذا السّؤال؟ إنّه عبثيّ رغم بساطته!

ـ لا، ليس عبثيًّا وليس بسيطًا، هذا هو الطارئ الجديد في حياتي!

ـ ومن الذي استثار هذا الطارئ الجديد؟

ـ البحر!

ـ إِسألي البحر إذن!

قالت غيداء وهي تهمّ بالخروج:

ـ هذا ما سأفعله!

نظرت في المرآة، سرّحت شعرها، تناولت حقيبة يدها وقالت:

ـ إنّني ذاهبة!

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث تقودني رجلاي!

ـ ١٦ ـ

السيّدة إيبوليت تنشد المتعة لا الحبّ. المتعة فيها ممارسة للحبّ، لكنّ الحبّ شيء آخر، لم تفكّر هي فيه، ولا فكّر بدر أيضًا. كلاهما متواطئ مع نفسه وعليها. هذا في القرارة، أمّا في العلن فإنّ السيّدة إيبوليت، وفي نشوة اللّذّة، كانت تناديه «حبيبي بدر!» وكان هذا، في النشوة المماثلة، يناديها «حبيبتي جان» دونما شعور، من كليهما، أنّه يخدع نفسه في قول مجّانيّ، يتلاشى مع دخان سيكارتيهما، ويتبدّد هباء، كما في كلّ مرّة، ومع كلّ سيكارة، في حالتي الفرح والحزن.

رجل وامرأة! امرأة ورجل! هذا كلّ شيء، ما عدا ذلك لا يهمّ، لأنّه نافل! بدر في قمرة جان الخاصّة، حيث تسكن وتنام وترسم، وقد جاء ليسكر، ويضاجع، ثمّ يذهب إلى شأنه، كما تذهب هي، أو تبقى، لشأنها. تفاهم صامت، على أساس عقد بالتراضي، لا يترتّب عليه أيّ شرط، أيّ التزام، وكذلك أيّة مسؤوليّة، فالاستملاك شرقيّ الهويّة، وكلاهما، في لحظات المتعة، غربيّ الهويّة، لا لأنّ الاستملاك لا يحدث غربًا، إنّما لأنّه، هنا، استثناء، وفي الشرق قاعدة! السفينة كالسفارة، أرضها ملك لمن يشغلها، وهما يشغلان بقعة من أرض

السفينة، وهذا حسبهما، وفي هذه البقعة يفعلان ما يريدان، إذا لم يكن في فعلهما أذى للغير.

البارمان غابور يعرف ما يجري في القمرة، بين بدر وجان، إلاّ أنّه لا يتدخّل في ما لا يعنيه، لأنّ رجولته لا تضار، كما يتوهّم الرّجل الآخر، الشرقيّ تخصيصًا، أو الرّجل الغربيّ العاشق، أو المنتفع، قوادةً أو بلطجيّةً. ما يهمّ غابور أن يُسدّد الحساب، ومعه البخشيش، وهو يحصل عليهما معًا، وبشكل مغرٍ، ومقابلهما يقدّم خدماته لمن يحتاج إليها، وهذه الخدمة، بالنّسبة للسيّدة جان توليب، أن يصل إليها الويسكي والمقبّلات، وحتّى الطعام، بأسرع ما يمكن، وهذا ما يعرفه غابور ويقوم به، وبعد ذلك يُغلق باب القمرة، الذي لا أحد يتطفّل هنا لينظر إلى ما يجري في داخلها من ثقب الباب.

تعرّت جان من ثيابها إلاّ ما يستر النهدين والعودة. كانت تفضّل هذا، وكان بدر يتطلّبه برغبة شهّاء، دون أن يحتاج إلى إفصاح عن هذه الرّغبة. وعندما جاء الويسكي والثلج والأقداح والمقبّلات، صنعا وليمتهما الصغيرة، تمهيدًا وتهيئة للوليمة الأخرى، الكبيرة، التي تصرخ فيها السيّدة توليب، لأنّها اعتادت ذلك، ما دام يلذّ لها، دون أن تبالي بمن يسمع، ففي العزف الثنائيّ، ما بين وتر وقوس، يغدو الرهز نارًا جحيميَّة، تنقلب فيها السيّدة الدانماركيّة، الفنّانة، اللّطيفة، امرأة ساغبة، متوحّشة، حارقة، محترقة، وهي تكشّر عن نيوب حادّة للنهش، لولا أنّ بدر يصدّها، ويصدّ نفسه أن يفعل مثلها، حتّى لا يتبقّع جسماهما بالأزرق، من أثر العضّ، وهما يتعرّيان في المسبح، أمام أنظار السابحين والسابحات.

كانت السيّدة توليب تؤثر، في أوقات كهذه، شرب الويسكي صرفًا، ويؤثر بدر شربه ممزوجًا بالثلج، وكلّ منهما يدع الآخر يتصرّف على هواه، فلمّا أعدّا الكأسين، شربا النخب الأوّل وهما يتبادلان القبلات عنيفة، حارّة، لاهبة، كأنّما كلّ منهما يريد انتهاب شفتي الآخر، في ذلك الالتحام، الامتصاص، الذي لا ريّ فيه ولا شبع، مع أنّ الحفلة الجنسيّة لمّا تبدأ، وكلّ ما فعلاه محسوب عليها، كسلفة لا تُوفّى، لكونها منحة كرم، هبة عشق فاض بها بحر الانتشاء مسبقًا، تهيئة، تمهيدًا، التياحًا، في جنون الرغبة التي يمور بها الصدران، ويصبر عليها الصدران، قبل أن يُشفى الغليل، حين يدور الماء في الصلبين، وتتشهّى العسيلة إلى الاندفاع، إلى التفجّر والتبعثر في ثنايا الآه الأخير، المديد جدًّا!

انتزعت جان نفسها بصعوبة من بين ذراعي بدر، تناولت كأسها، حملته معها إلى طاولة صغيرة قرب حامل اللّوحة، حيث استأنفت الرسم، في لوحتها التي تصوّر الغروب على البحر، في توهّجه الأرجوانيّ، الذي، في اغتلامها، يتوهّج أكثر، لأنّ اللّون الناريّ، يكون جزءًا من نارها، يكون نارها ذائبة في اللّون، وفي مزيج هذا اللّون المتدرّج، بين ما هو حارّ، وحارّ أكثر، ثمّ أكثر، إلى أن يشتعل الأفق، وتتعرّى الشمس لتغطس فيه، فيكون، ثمّة، عمادها والغياب، تاركة وراءها توشيحات قرمزيّة، في السحب التي تتّقد، وبعد ذلك تنطفئ رويدًا رويدًا، إلى أن يكون العتم وبعده الإظلام.

بدر يرسم أيضًا، ولكن بشكل آخر، فبين البياض والسواد من عينيه، يومض برق خاطف، متقطّع، يرز نورًا، يؤطر رغبته

في الامتلاك، فتتشكّل، ثمّة، على الظهر العاري، البرونزيّ، وعلى الفخذين المفتولين، المتقولبين، في استدارة ممشوقة، ما بين الحوض والركبة، وفي باطن الركبة، لوحات في مغناها التهاب، هو غزل جوع لنفس أرمضها التدفّق الرغبيّ، ينسال في تجويفة الضلعين، انسيال نهر من الشوق المجنون، إلى عناق الجسم الذي أمامه، وزرْعِ قُبَله المسعورة بين المسام والمسام من جلده الورديّ، في مفارقة غريبة. بين رسم محسوس على لوحة حقيقيّة، ورسم ابتهاليّ، وهميّ، على لوحة خلّبيّة، نسيجها خيال محموم، في مخيلة بحّار أهاجه يود البحر، وتشظّته رؤية جسد على هذه الرّوعة من الجمال، وهذه الفتنة من الجسم، في استدارته من أمام ووراء.

وعندما نفد صبر بدر ناداها:

ـ تعالي!

ردّت دون أن تلتفت:

ـ سآتي!

ـ متى؟

ـ بعد لحظة واحدة!

مرّت لحظة، ولحظة، وثالثة، فناداها:

ـ تعالي!

وردّت كما المرّة السابقة:

ـ سآتي! لحظة من فضلك!

هل الرّسم وحده، في إضاءة نادرة، هو الذي كان يدفعها إلى هذا الاستمهال؟ بدر لا يدري، لكنّها هي، مدام توليب، كانت

تدري: «هذا أفضل، كانت تسرّ في ذاتها، كلّما زاد انتظاره التهب شوقه» وهي تحبّ هذا اللّهب الجنسيّ، في الذكر الذي ينتظر أنثاه، بينما يده المتلظّية تمهّد المضجع، مرتجفة شبقًا، إلى أن تحين اللّحظة البكر، كما الموجة البكر، في زرقة ماء ينداح على شاطئ لم تطأه قدم بشريّة، وعندئذ يكون اللّقاء الجسديّ، كما في اللّقاء الأوّل، ودائمًا كما في اللّقاء الأوّل، فإذا كان اللّقاء الثاني، ابترد الشوق، ولاح الملل، ولا فائدة، بعدئذ، من النفخ في نار جذوتها على وشك النفاد، فالترمّد، فالانطفاء.

ومع أنّ بدر لا يحتاج إلى مثل هذا التشويق، والسيّدة توليب تعرف ذلك، إلاّ أنّ منطق الأنثى يظلّ مغايرًا لمنطق الرّجل، محكومًا بتاريخها، مدفوعًا بهذا التاريخ إلى ما هو مبهم في عقليّتها، مستترًا أو مستعلنًا، يتمظهر بتصرّفات منطقيّة من وجهة نظرها، محكومًا بالختل حتّى حين لا تكون ثمّة ضرورة إليه، وبقدر ما يفهم الرّجل دوافع هذه التصرّفات، تخفّ وطأتها عليه، لأنّه، بهذا الفهم، يتدارك سوء ظنّه، ويدرأ شبهات كثيرة، حول مواقف لا تفسير لها إلاّ بمعرفته أنّ منطق المرأة هكذا، سواء كانت عفويّة أو مقصودة، لأنّ الأفعى التي في داخلها، منذ كانت حوّاء وكانت الأفعى، تنفث في داخلها ريبة، يترتّب عليها شكّ، ويترتّب على هذا الشكّ الحذر والروغان، ويغدو الشيطان نافعًا لها أكثر من الملاك، في الضحك أو البكاء، في اندفاع الحبّ أو تسعّر الشهوة، في الإقبال والإدبار، في الصدق أو الكذب، في الصبر أو الاهتياج، ومن العبث مناقشة منطق المرأة، في كلّ هذه الحالات، ومن الصعب فهمه، في كلّ هذه الحالات، لأنّه منطق تاريخيّة الأنثى، الذي لا يفسّره العلم، ولا

ينطبق عليه القياس.

اللّحظة، عند السيّدة توليب، لحظة مغايرة لما عند بدر، وهو لم يكتشف هذه الحالة من باب المعرفة، التجربة، الخبرة، اكتشفها، مصادفة، عندما عزّت عليه رجولته، وأنِف أن يناديها إليه بأكثر ممّا فعل، فآثر الصمت، وتذوّق الويسكي على مهل، ففسّرت السيّدة توليب ذلك بأنّه لامبالاة بها، لااكتراث بأنوثتها، لارغبة في امتلاكها، لاتأثّر بجمالها، وبكلّ مفاتنها وهي عارية تقريبًا أمامه. الخطأ، في المنطق، خطأ ظاهر هنا، أنفَته لم تكن قصديّة، كان يتشهّى رغبة في أن تأتي إليه، أو يذهب إليها، إلاَّ أنّ اعتداده برجولته حال بينه وبين أن يفعل، لأنّه، هو الآخر، محكوم بمنطق ذكوريّته، وهذا منشأ الخلاف الوهميّ، الذي تطوّر إلى خلاف أخلاقيّ، فخلاف حدّيّ، صادر عن استشعار إهانة وهميّة، نتج عنها أنّ السيّدة توليب أصرّت على ألاّ تأتي إليه إلاَّ إذا ندهها، وأصرّ بدر أن يدعها وشأنها ما دامت لم تستجب لندائه الأوّل والثاني، مفسّرًا هذا التجاهل بأنّه عدم رغبة لديها، أو إيثار للرّسم على ممارسة الحبّ، أو إيذاء مشاعره كقبطان سابق، عرف، كما هو مفروض، الكثيرات من أمثالها.

هكذا، عندما فرغ كأسها، لم يبادر إلى تقديم كأس آخر لها، ولأنّه لم يفعل، لم يملأ الكأس ثانية، تكشّف، حسب منطقها، عن افتقار للّياقة الواجبة تجاهها، فتركت اللّوحة وجاءت فملأت كأسها، دون أن تأبه به، دون أن تجلس قربه، ودون أن تندفع إلى تبادل القُبل الحارّة معه، فاعتبر بدر هذا التصرّف خروجًا على اللّياقة، ونوعًا من التشوّف، أو التحدّي،

أو الاحتقار الذي يهبط به إلى مرتبة النذالة، إذا لم يقابلها باحتقار مماثل، عبّر عنه بالإشاحة عنها، وازدرائها، كأنّها امرأة ليل، أو كأنّها غير موجود، وهذا ما أهاجها، بعد وقت غير قليل من الصّمت الغاضب، الذي خيّم على الجوّ واغتال الفرحة والشّوق والرّغبة في ممارسة الحبّ، كما اعتادا أن يفعلا دائمًا، عندما يكونان وحيدين، وبعد هذا الاستهلال العناقيّ إلى درجة الهصر، ما إن يغلقا باب المقصورة عليهما.

تمطّى بينهما جفاء مصدره كبرياء خادعة، ذات قشرة هشّة، ومن طرف بدر أوّلاً. السيّدة توليب استهواها رسم منظر الغروب على البحر، خيّل إليها أنها ستنتهي منه بضربات صغيرة من فرشاتها التي يشتعل فيها لون أحمر حادّ، وعندما قالت: «لحظة وآتي!» كانت صادقة، لكنّها، حتّى مع التعجّل، استنفدت اللّحظة ولم توفّق إلى رسم ما تريد. كانت، الآن، في ذروة الاندماج الذي يعرفه الفنّان في الجنس الفنّيّ الذي يمارسه. وجدت أنّ توقّفها، قبل الانتهاء من رسم ما تبقّى من منظر الغروب، في الحالة النفسيّة، الانفعاليّة، التي كانت عليها، سيجعل المحاولة، مرّة ثانية، خائبة. إنّها، في الانخطاف الذي صارت إليه، كانت بعيدة عن كلّ ما حولها، حتّى بدر الذي ناداها وينتظرها. دخلت، دون إرادة منها، في الدائرة المحمومة للغروب، وانتقلت معها إلى الأفق البعيد، ولم يبق عليها سوى توشيحة السحب، بضربة واحدة من الفرشاة. إلاّ أنّ الضربة التوشيحيّة استجرّت ضربة توشيحيّة أخرى، وأخرى، وتلظّى السعير في أناملها المبدعة، فاستشعرت، في ذاتها، لذّة لا تقلّ متعة عن لذّة الجنس، بل

هي لذّة جنس كاملة، بطريقة أخرى، لا يعرفها إلاّ من عاشها، من التهب في أتونها، من أشعل سيكارته من جذوتها، ولهذا مضت تدخّن وتدخّن، وأكثر من مرّة، رفعت كأس الويسكي الفارغ وحاولت ترشف ما بقي فيه، ثمّ إعادته إلى مكانه، ثمّ تناولته كرّة أخرى، ووجدته، مرّة أخرى، فارغًا، دون أن يبادر صديقها إلى مساعفتها، في اللّحظة الحاسمة لبلوغها النشوة الكاملة، بإشعال سيكارة لها، بتقديم رشفة من السائل الجهنّميّ الذي تحتاجه في ارتعاشة النهاية التي تقترب أكثر فأكثر منها، والتي يعرفها الفنّان وحده، ويحسب أنّ الآخر، الأخرى، يعرفها، تعرفها، مثله، وهذا الحساب الخلافيّ، كان مثار عتب، غيظ، نفور، كره، أذى، ويؤدّي، في حالات كثيرة، إلى ابتعاد الفنّان، الفنّانة، عن الأخرى، الآخر، الزوج، العشيق، الحبيب، واستجرّ إلى فراق، إلى طلاق، لا مبرّر له في نظر العقلاء، الذين لا يفهمون جنون الفنّان، ولا يقدّرون أنّ فعله، في نظره، مبرّر تمامًا، سواء كان فراقًا أو طلاقًا.

بدر، في إيثاره متعة الجنس الحسّيّ، على متعة الفنّ غير الحسّيّ، ارتكب، عن غير قصد، خطأ الإلحاح على صديقته في ترك الرسم وتلبية ندائه إلى ممارسة الحبّ، لأنّه كان غير عارف، وغير قادر، على فهم أنّ السيّدة توليب، تمارس الجنس في المنظر الذي ترسمه، بطريقة ارتعاشيّة، انفعاليّة، مشابهة لارتعاشة الولوج فيها، أو هي أشدّ تأثيرًا، وفرحًا، وتطلّبًا للنهاية اللذيذة، السعيدة، المنتظرة. ولأنّ بدر لم يفهم هذه الارتعاشيّة الفنّيّة، وألحّ، في ندائه الثاني، وبشكل حاسم، على أن تترك الرّسم، أن تترك الحالة الانخطافيّة التي هي فيها،

فقد أفسد عليها إحساسها بالاندغام، كما الإحساس بالسلطنة في حالة الطرب، وهبط بالسيّدة توليب من الذروة إلى السفح، فلم يعد في مقدورها أن تكمل رسم منظر الغروب، ولم يعد في وسعها أن تنأى بنفسها عن الانزعاج، لهذا ملأت كأسها وهي منتبهة، بين أن ترضي نفسها أو ترضي صديقها، وكانت بحاجة إلى بعض الوقت كي تعود من الأفق إلى القمرة.

مَن اللاّئم ومَن الملوم؟ بدر؟ إنّه يعرف أن يقود سفينة، ولا يعرف أن يرسم. السيّدة توليب؟ تعرف أن ترسم ولا تعرف أن تقود سفينة. الإشكاليّة، هنا، ليست بالفنّ، بمقدار ما هي في عقليّة الفنّان. قد يكون بدر فنّانًا في مهنته، وهو يتطلّب من الآخر أن يتفهّم ظروف هذه المهنة، وفي هذه الرّحلة اكتشف أنّ الآخرين لا يقدّرون هذه الظروف، ومن أجل ذلك كان الخلاف بينه وبين لويزا وغيرها، والسيّدة توليب رسّامة، وهي في رسمها فنّانة، وتتطلّب من الآخرين، وبدر خاصّة، أن يتفهّم عقليّتها الفنّيّة هذه، وأن يحترمها، وهو يجهل هذه العقليّة، لذلك لا يحسن تقديرها، أو التكيّف معها، ويؤثر أن تلبّي نداءه لا نداء الفنّ، ولأنّها لم تفعل غضب، وبالمقابل غضبت السيّدة توليب، لافتراضها أنّ بدر يفهم هذه العقليّة، ومع ذلك لا يراعي موجباتها، فكان الخلاف، أو سوء التفاهم، بينهما، لا بدّ منه، وهو ليس بالحالة النادرة، الاستثنائيّة، فالفنّان يشقى في عائلته أوّلاً، وبالناس تاليًا، وهؤلاء، جميعًا يضيقون ذرعًا بتصرّفاته غير المألوفة، الناجمة عن كونه إنسانًا غير عاديّ، وحالة أعصابه، المرهقة غالبًا، غير عاديّة، وفي هذه النقطة إشكاليّة الفنّان مع محيطه، وعذابه بسبب من هذه الإشكاليّة.

ارتدت السيّدة توليب معطفها البيتيّ، القطنيّ، الملائم لمناخ البحر وحرّه، وجلست قبالة بدر تشرب صامتة، كما مع أيّ ضيف، وتتكلّم لهجة أخرى، غير لهجة الحبّ، في إشارة واضحة إلى أنّ ذلك الذي جاءا من أجله قد انتفى الآن. بدر لاذ بالصمت أيضًا، في لامبالاة مقصودة، كي تفهم المرأة التي معه أنّه غير متهالك عليها، وأنّ ممارسة الحبّ لا تعنيه، هو أيضًا! راح يشرب، وراحت تشرب، كأنّما في رهان على الصمت، ومن خلاله التحدّي، ولم يبق، بالنّسبة لبدر، سوى الانصراف، الذي مهّد له بشرب ما تبقّى في كأسه، وبالنهوض قائلاً:

ـ شكرًا للضيافة، وآسف لأنّني أزعجتك.

قالت السيّدة توليب:

ـ نعم! أزعجتني فعلاً! وها أنت تزعجني، مرّة أخرى، في حركة غير مقبولة، هي ترك المرأة تشرب وحدها.. هذا ليس من اللّياقة، ونحن لسنا على البار!

ـ على البار يتسلّى المرء أكثر، هناك يجد دائمًا من يتكلّم معه.

ـ يتكلّم بصمت!؟ بالإشارة على طريقة البكم!؟

ـ بطريقة ما والسلام.. إذا كنت سترسمين فلماذا دعوتني إلى قمرتك؟ تديرين لي ظهرك وبعد ذلك تدّعين الانزعاج!؟ هل تجدين، أنت الدانماركيّة، أنّ هذا من اللّياقة؟ وهل النساء الدانماركيّات يتصرّفن على هذا النحو؟ قولي أنت!

ـ أنا فنّانة، ولا تستطيع أن تفهمني، لأنّني أنا لا أفهم نفسي أحيانًا.. منظر الغروب ذاك، كان يحتاج إلى لحظات، ثمّ يتفرّغ أحدنا للآخر.. لكنّك نرجسيّ، وبشكل مبالغ فيه،

وقد اعتدت، كقبطان، أن تأمر بحّارتك، وجرّبت هذه العادة معي.. إجلس، المرأة لا تُؤمر، ولا يكون التفاهم معها بالنزق، وعلى الواقف.. بماذا أسأت إليك؟ ولماذا أضعت عليّ نشوة وضع اللّمسة الأخيرة على اللّوحة؟ تعرف ماذا يعني هذا؟ إنّه الاغتصاب!

ـ اغتصاب!؟ هل تحسبينني رجلاً متوحّشًا!؟

إبتسمت جان توليب وقالت:

ـ وماذا في الاغتصاب؟ إنّه لذيذ أحيانًا.. ما قصدته أنّك اغتصبتني من لوحتي، أفسدت اللّمسة الأخيرة عليّ، وهذا من الشبق الأرعن! تصوّر أنّك تكتب، ولم يبق إلاّ وضع النقطة الأخيرة على السطر، ثمّ دفع الشبق الأرعن امرأة لانتزاعك من الجوّ الذي أنت فيه، جوّ العبارة الأخيرة وبعدها نقطة النهاية، ماذا كنت تفعل؟

ـ أُخْرِج السفينة من مأزقها، أُوصلها إلى شاطئ الأمان!

ـ هذا جيّد! الإنسان يتحدّث عمّا يعرف.. أنت، في هذه الحال، مأخوذ بما تفعله، بإخراج السفينة من مأزقها، وخلال ذلك لا تريد من يفسد عليك عملك المهمّ، لديك، هو هذا.. السفينة.. هنا، معادلها العبارة الأخيرة في الكتابة، واللّمسة الأخيرة في الرسم، وأنت أفسدت عليّ وضع اللّمسة الأخيرة في منظر الغروب، وهذا ما أزعجني، وظنّي أنّنا توصّلنا، كلّ من طرفه، إلى التفاهم.. لذلك دع عنك النزق، إجلس لنستمتع بوقتنا.. وأنت، وكذلك أنا، بحاجة إلى ذلك.. كم كأسًا شربت حتّى الآن؟ عليّ أن ألحق بك، ليكون، هناك توازن بيننا، وشبق متبادل أيضًا.

نظر إليها بدر نظرة متفرّسة طويلة وقال:

ـ قيادة السفينة، وحتّى إخراجها من مأزقها شيء، وتمتّع القبطان بوقت راحته شيء آخر. جئنا إلى هنا لنشرب لا لنرسم.

قالت جان وقد أزاحت المعطف القطنيّ عن كتفها الأيسر:

ـ وأخيرًا!؟ الحقّ على مَنْ؟ رغم أنّ هذا ليس وقت حساب! الحقّ، طبعًا عليك، لأنّك بحضورك البحريّ، أغريتني بإلقاء نظرة على لوحتي البحريَّة، وكنت أحسب أنّ منظر الغروب فيها لا يحتاج إلاَّ إلى لمسة واحدة، فاندفعت محمومة لوضع هذه اللّمسة التي استدعت لمسة أخرى، ثمّ لمسة ثالثة ورابعة، وهكذا إلى أن أفسد عليّ تعجّلك وضع اللّمسة الأخيرة، التي كانت في مدى الرؤية، وابتعدتْ الآن كثيرًا.. أرأيت؟ هناك ما يسمّى لذة النهاية، التي أضعتها عليّ، لذلك أسفت، دون أن أعرف أنّ أسفي سيترجم إلى غضب، مع أنّ الصبر هو دلالة التعامل مع البحر، وأنت لم تصبر، وهذا ليس في صالحك لسببين: أوّلهما أنّك جعلتني أشكّ في كونك قبطانًا، لأنّ القبطان لا ينفد صبره بهذه السرعة، وثانيهما أنّ الرّجل الذي لا يعرف ضبط أعصابه، مهما يكن شبقًا، يبدو متهالكًا، وأنت، في كلّ ما تقوله، كنت تحرص على جعلي أفهم أنّك غير متهالك، على أيّما امرأة، وأيّما رخص في طلب ممارسة الجنس! تعال واجلس، حسبتك تعرف المرأة بشكل أفضل، فإذا بك تسقط في أوّل امتحان..

قرّر بدر أن ينصرف. السيّدة جان توليب على حقّ. كشفت

ضعفه أمام المرأة، بصورة لم يكن ليصدّقها في حالة أخرى وموقف آخر. صراحتها متوقّعة. إنّها أنثى كاملة النضج، كاملة التجربة، وعليه أن يتقبّل صراحتها ويفيد منها، لكنّه، في هذه الحال، ماذا يبقى منه؟ أيّ قبطان يكون؟ الصبر ألف باء البحّار، وهو قبطان، والصبر، لذلك، مطلوب منه مضاعفًا، فكيف نفد صبره على هذا النحو المعيب؟ وكيف تهالك أمام الجسد الفاتن بهذه الوضاعة؟ هل كان التعرّي لعبة امتحان ذكيّة؟ لا! أبدًا، جان تتعرّى، كما الآن، في كلّ لقاء له معها في هذه القمرة، إلاّ أنّ إلحاحه قد لفتها إلى امتحانه، فتباطأت متعمّدة، كي تستثيره أكثر، وكي تكشف تهالكه أكثر، وعندئذ تريه أيّ رجل هو، وأيّ قبطان، وأيّ مدّع في تعفّفه الكاذب أمام الآخرين، والنساء تخصيصًا. هذا التفكير أحاله إلى واقعة أخرى، ندم عليها ندمًا قليلاً، لكنّه لم ينتفع بندمه كما ينبغي. الواقعة كانت مع غيداء، عندما جلس معها ومع السيّدة صبيحة وهزار في الكافتيريا. كان عليه، في ذلك اللّقاء الأوّل، ألاّ يبدو خفيفًا، ثرثارًا، متسرّعًا في شرح نفسه، كأنّه يقدّم تقريرًا مجّانيًّا عن سلوكه، دون أن يسأله أحد تبريرًا لهذا السلوك. وهزار، أمام لغوه، تصدّت له، تطاولت عليه حين فقد هيبته كرجل أوّلاً، وكقبطان ثانيًا، أمامها هي الفتاة المراهقة! الهيبة والثرثرة لا تأتلفان. تبرير السلوك ليس من شِيَم الواثقين من سلوكهم. ثقته بنفسه، بسلوكه، بصفته قبطانًا، ثقة منخورة. العثّ يقرض الخشب دون أن يُرى، الكلام الكثير، في غير أوانه، في غير موضعه، عثّ يقرض المتكلّم، يجعله على غير الصورة التي يرغب أن يكون عليها، أو أن يظهر بها أمام الغير،

خاصّة المرأة. ثمّة عثّ يقرض رجولته دون أن ينتبه إليه، فلماذا لا يكون ذاته وينتهي الأمر؟ هذا يعطيه مصداقيّة. إذا لم يكن ذا هيبة فإنّ اللّغو لا يصنع له هيبة، يحطّ من قدره، يسيء إلى رجولته، إلى صفة القبطان التي يتباهى بها، ثمّ لماذا التباهي أصلاً؟ أليست هذه، في ذاتها، نقيصة كبرى؟ إنّه لا يمون على نفسه، في الصحو والسكر على السواء، يقتنص المناسبة ليظهر شجاعته، شهامته، سطوته، زعامته على الآخرين، دون أن يمتلك مقوّمات كلّ ذلك، إلاّ بقدر ضئيل، ولأنّ ذلك كذلك، فإنّ عليه أن يعيد حساباته، أن يرتّب أفكاره، في وقت آخر، وجلسة أخرى، يحاكم فيها نفسه، محاكمة صريحة، صادقة، ويسلك، على أساس من ذلك، سلوكًا متواضعًا، يتلاءم وإمكاناته، دونما ادّعاء أو غرور وبغير ميل إلى حبّ الظهور، هذا الذي دفعه إلى تمنّي هبوب العاصفة، وما كان وقع هذا التفشير على من سمعه، ولويزا في المقدّمة!

كان يجلس على غير ما يرام، الأصحّ كان يتّكئ على حافة مقعد قريب من الباب، يشرب من الكأس الذي أعدّته له جان توليب، يتناهبه فكران: العودة إلى مكانه، والتمتّع بالشرب والجنس، مع صديقته الفنّانة، التي جرحته ثمّ داوته بكلّ وسيلة وكلّ إغراء، أو الانصراف كما اعتزم وهو ينهض واقفًا. وجد، بعد كلّ هذا التفكير، كلّ هذا الصمت، أنّ الانصراف أفضل، فانصرف!

ـ ١٧ ـ

تعلّم الحكمة يا بدر! تعلّمها من السيّدة توليب، ومن لويزا، وحتّى من هزار نفسها، أو من أيّ أحد، تتخرّب العاطفة، كالدورة الدمويّة، يصبح إصلاحها صعبًا. الأفضل، في حال كهذه، أن ندع الأشياء إلى أن تتبدّل ذاتيًّا. ثمّة، في الجسم، إسفنجة قادرة على امتصاص الصدمة، عاطفيّة كانت أم غير عاطفيّة. لا الفرح يدوم ولا الحزن. العكر، كما الماء الممزوج بالصفوة، يترقّد، يترسّب، يبقى ما هو صاف على الوجه، وما هو عكر في القاع. غيداء خرجت عَكِرة المزاج من قمرتها. بدر خرج عَكِر المزاج من قمرة جان توليب. الوقت المحدّد للغداء هذا أوانه: الساعة الواحدة بعد الظهر إلى الساعة الثالثة. «لديّ وقت بعد، قالت غيداء، ماذا لو شربت كأسًا من السنزانو في الكافتيريا قبل الذهاب إلى المطعم؟ هذا أفضل، أشرب وحيدة وأدخّن، أفعل ذلك حتّى أسترخي، إلى أن يزول الكدر، وأحسّ بالشهيّة إلى الطعام. إنّه ليس هناك، بدر ليس في الكافتيريا، الأرجح أنّه على البار، ومعه تلك الدانماركيّة التي تعرف، بعد كأسين من الويسكي، كيف تستدرجه إلى قمرتها. هناك يواصلان الشرب، يطرحان الشكليّات، يدخلان، كما

يقول الأخطل الصغير «في جحيم من القبل!» أيّ متعة أن يكون للمرء من يحبّه، ومن يدخل معه ذلك الجحيم؟ ثمّ يكون الإغراء، وبعده، الاستثارة، فالمناجاة، يتبادلان كلمة حبيبي وهما في ذروة النشوة، الأذن تسمع، كذلك الأنامل تحسّ، والعين يومض فيها الشوق، الفم يتذوّق، وبعد التهيئة يكون ذلك الشيء لا قبله! بدر هذا لا يتورّع عن اغتصاب المرأة، لا يفي، ولمن يفي؟ لي!؟ الوفاء يكون مع الحبّ، وأيّ حبّ بيننا؟ ربع قرن، كما تقول السيّدة صبيحة، وهو معجب وماذا بعد الإعجاب؟ الإقدام أو الإحجام، لماذا، إذن، لم يقدم ولم يحجم؟ ينتظر فرصته؟ أضاعها قبل زواجي، وأضاعها بعد ترمّلي، وقد يضيعها في هذه الرّحلة أيضًا، لأنّه يأنف أن يكون البادئ، وآنف أن أكون البادئة، فكيف تَحْدثُ المعجزة؟ وهل أريدها أن تحدث؟ وهل يريدها هو؟ من يدري!؟ ولماذا أنا منفعلة لمجرّد تصوّري أنّهما يمارسان الجنس في هذا الوقت؟ هل هذا لأنّني إنسانة، ومن لحم ودم؟ من يجوع يأكل، من يعطش يشرب، هذا، في رأي المجتمع، مباح، لكنّ جوع النفس، ظمأ الغريزة، نداء الجسد، كلّ هذا معاب، في مجتمع تقليديّ، متخلّف، العيب ينخره، والحبّ فيه معصية، إلاّ أن تكون في الخفاء، وفي الخفاء تكون غير صحّيَّة، مجتمعنا داعر، ولا يقلّ دعارة عن أيّ مجتمع آخر، إلاّ أنّ الفرق، بين المجتمعين، في درجة السرّ والعلن، كلّ ما هو سرّيّ في الحبّ جائز في هذا الشرق، وكلّ ما هو علنيّ ممنوع، وهذا نتاج عقليّة سردابيّة، تعشّش فيها الظلمة والرطوبة، وتنبت في جنباتها طحالب النفاق، كما ينمو الفطر في غابة كثيفة الأشجار

والأدغال، لا تعرف الشمس إلاَّ مرّة واحدة في العام!»

في الكافتيريا التقت غيداء السيّدة صبيحة الدعجاوي. كان هذا اللّقاء غير المتوقّع مناسبة سعيدة بالنسبة للاثنتين. أعطت السيّدة صبيحة خدّها لغيداء، هذه عادة لديها، إعطاء الخدّ هو التكريم اللاّئق لمن تصطفيهم السيّدة صبيحة، وهم قلائل، ومن بينهم، في هذه الرّحلة، غيداء وبدر، مع الاحترام الواجب للسيّد إبراهيم الشفّاط، الذي يبادلها هذا الشعور، ويلتقيها، إمّا في مجلسه على جؤجؤ السفينة، أو في المطعم، وأحيانًا على مقعد مستطيل، قرب الحاجز الأيمن من سطح السفينة، حيث يتحدّثان، أغلب الأحيان، حول ما كانت بيروت عليه من ازدهار وتلألؤ قبل الحرب الأهليّة، وما آلت إليه الآن. فإذا تحدّثا عن الأدب، عن الفنّ، عن النشاط المسرحيّ، كانت السيّدة صبيحة، وبكثير من المتعة، تتحدّث بإفاضة عن حركتها الأدبيّة، وعن ذلك العالم الجميل، الموّار، الحافل بالمتعة والمعرفة، الذي كان قبل الحرب، وكان السيّد إبراهيم الشفّاط يُسرّ لأنّ زميلته في هذه الرحلة، مثقّفة، وفوق ذلك معجبة بالمتنبّي مثله، وتحفظ بعضًا من أشعاره. لذلك هشّت، السيّدة صبيحة، وبفرح حقيقيّ، لمرأى غيداء تدخل الكافتيريا وتأتي إليها مباشرة، بإقبال وشوق، وتجلس معها، هي السيّدة صبيحة، التي تقدّر في غيداء جمالها، ثقافتها، وصداقتها الحميمة، التي ترجع إلى الزمن الجميل، الذي كان وكان وكان، ثمّ مضى ومضى ومضى!

سألتها فور جلوسها إلى طاولتها:

ـ ماذا تشربين يا غيداء؟
قالت غيداء:
ـ أنا من يجب أن يسألك يا ستّ الجميع!
ـ هذا إطراء أحبّه، وقد تناولت فنجانًا من القهوة، وكان هذا يكفي، لكنّني، معك، أشرب أيضًا، إنّما أنت تجلسين إلى طاولتي، وتعرفين الأصول، صبيحة هي هي، بدّلت الأيّام من جسدها، لكنّها لم تبلغ، ولن تبلغ، أن تغيّر من طباعها.. كوني أنت يا غيداء، اِطلبي ما تشائين، خذي شيئًا يروقك غير القهوة.
قالت غيداء:
ـ كنت عازمة على تناول كأس من السنزانو، فما رأيك؟
ـ اقتراح في محلّه.. كأسان من السنزانو مع اللّيمون، إذا أردت.
انحنى النادل وقال:
ـ فورًا!
قالت غيداء:
ـ أنا سعيدة حقيقة بوجودي معك.
قالت ستّ الستّات:
ـ وأنا أيضًا، يعلم الله.. أين كنتِ؟
ـ في القمرة!
ـ وحيدة طبعًا، أو مع تلك السخيفة هزار..
ـ كيف عرفت؟
ـ رأيت اعتكار مزاجك على وجهك.. أنت صفحة بيضاء،

وكلّ حرف يُكتب عليها يظهر للعيان.
قالت غيداء وهي تشرب في صحّة صديقتها:
- لا أعرف، أو لا أنجح في التمثيل، مع أنّني أريده، وهو ضروريّ، من حين إلى حين.. أليس كذلك؟
ردّت السيّدة صبيحة:
- نعم! ضروريّ مع الأصدقاء العابرين، ذوي الابتسامات الصغيرة، المتملّقة، ولديكِ منهم، حيثما كنت، دزّينة أو أكثر!! أمثال هؤلاء متعبون، لكنّ المرأة الجميلة تدفع ضريبة جمالها، خاصّة إذا كانت مطلّقة، أو ترمّلت باكرًا، مثلك أنتِ.. طبعًا بلغك ما حدث اليوم، في المطعم وعلى مقدّمة السفينة!
- بلغني ونكّد عليّ يومي.. هذا هو سبب اعتكار مزاحي.
- وهذا هو سبب رغبتك في الشراب.. التوتّر، قبل الطعام، مزعج جدًّا.. أحسنتِ بالمجيء إلى هنا قبل ذهابك إلى المطعم، أنا نفسي أفعل هذا كي أسترخي، لكنّنا، أنت وأنا، لسنا زجاجًا رقيقًا، يُكسر أو يُعطب، من صدمة خفيفة عارضة، إلاّ إذا كانت تجارب الحياة لم تنفعنا بشيء..
قالت غيداء وهي تشعل سيكارة:
- وضعي يختلف! هزار هذه محسوبة عليّ، أفعالها، السيّئة وغير السيّئة، محسوبة على وضعي.. ماذا يقول الآخرون؟ هزار مدفوعة من غيداء، مع أنّ هذا غير صحيح، غير صحيح بالمرّة، أنا لا علاقة لي ببدر، لست معنيّة به، لكنّ الذين يسمعون هزار يقولون: غيداء تتحرّش به عن طريق

هزار! أليس مؤلمًا قول كهذا؟
قالت السيّدة صبيحة:

- مؤلم جدًّا، ومن ناحيتين: حبّ الناس للفضائح، وشعورك بالأسى لأنّ ظلمًا يلحق ببدر، وهو يكنّ لك الإعجاب والاحترام، وأحسب أنّك تبادلينه هذا الإعجاب والاحترام.

- هذا ما لست متأكّدة منه، ظنّي أنّه لا يحمل لي أيّ إعجاب، وقصّته هذه عن الإعجاب مختلقة، الإنسان، أحيانًا، لا يعرف ما يريد، بدر هو هذا الإنسان!

قالت السيّدة صبيحة:

- لا أجادل في هذا، إلاَّ أنّ بدر ليس أيّ إنسان، تحوّله من الأدب إلى البحريّة يُعطيني أكثر من سبب للقول إنّه يهرب من نفسه إلى نفسه، وهو في هذه الرّحلة يشعر بالغربة، لعدم الاعتياد على النمائم، والحرتقات، والتفاهات.. البحر يختلف عن البرّ، القبطان يختلف عن البحّار، الرّجل يختلف عن المرأة، ولهذه الأسباب مجتمعة، يندفع من اللاّمبالاة الكاملة، إلى الاهتمام الكامل، لأنّ أمرنا جميعًا يعنيه، لكنّنا، جميعًا، لا نفهمه، لا نقدّر وضعه بعد الصدمة التي تلقّاها في حادث سفينته، ووقفه عن قيادة السفن، إلى إشعار آخر، وكتعويض عن إبعاده عن البحر، حاول، في هذه الرّحلة، أن يكون في البحر، إلاَّ أنّ حياته كقبطان، غير حياته على ظهر هذه السفينة دون عمل، يفترسه القلق، يقتله الضجر، يحاول إصلاح ما لا يُصلح، يختفي تارة، يظهر تارة، في محاولة للابتعاد عن التفاهات التي تفرض نفسها

عليه.. القبطان، يا غيداء، ريّس، والرياسة لها ظروفها، شروطها، هيبتها، ترفّعها، وها هو، المسكين، يعيش في دوّامة من المشاكل، لا تتلاءم وطبعه، لا تتكافأ وشجاعته، لأنّ الذين يواجههم ليسوا إلاّ حثالة، لولا لطف الله لألقى أكثر من واحد منهم في البحر، في نوبة قرف أو جنون، لا نعرفها نحن، لذلك لا نقدّرها، ولا نقدّر كم هي صعبة عليه، هو القبطان الذي اعتاد مواجهة العواصف، لا السفاسف التي تبدر من هذه، أو ذاك، في هذه الرّحلة.. ما رأيك أن نشرب ما تبقّى في كأسينا ونذهب إلى المطعم، نتناول قليلاً من البيرة الباردة مع الطعام، فنطفئ ما بنا في هذا الحرّ اللاّهب؟

قالت غيداء:

- كما تريدين، لكنّني أرغب، قبل الذهاب، أن أقول شيئًا آمل ألاّ يزعجك.
- ولماذا يزعجني؟
- لأنّك تبالغين في مدح بدر، كأنّه ابنك!
- وأنت بنتي، ولك مثل معزّته، إلاّ أنّ ما حدث اليوم كان فظيعًا، ولولا تدخّل بدر، كما يليق بقبطان، لما انتهت الأمور على خير.. الآن، كما أتصوّر، سيلزم كلّ من في هذه الرّحلة حدّه، خاصّة لويزا وهزار وذلك المتصابي عبد الصمد الذي خاف حتّى أن يتكلّم مع بدر على انفراد، وأجمعوا، أمام غضبته، أن يكون السيّد إبراهيم مسؤولاً عن الرّحلة.. هكذا حسم بدر الموقف، وآمنوا كلّهم أنّ الله حقّ.

ـ هزار عادت إلى القمرة خائفة إلى حدّ البكاء.

ـ دعيها تخف، قليلة الأدب هذه.

ـ ولويزا؟

ـ خرست وذهبت إلى جهنّم.

ـ والآخرون؟

ـ تجمّدوا من الخوف، وبعد ذهاب بدر انسلّوا واحدًا بعد آخر.. أنا أروي ما سمعت يا غيداء! هيّا إلى الغداء.

دفعت السيّدة صبيحة الحساب بغير اعتراض من غيداء. تعرف هذه أنّ لصديقتها مواقف لا تقبل فيها جدلاً. إنّها أريحيّة، مثقّفة، جدِّيَّة، إذا قالت فعلت، وهي، في كلامها على بدر، صادقة، لأنّها على قناعة بما تقول، ومعزّتها لها، هي غيداء، لا دِخلة فيها، ففيهما، بدر وهي، ذكرى «من الماضي الجميل» الماضي الذي تعيشه حاضرًا، وتفاخر به السيّدة صبيحة، لأنّه مجدها الغابر، الذي لا تبكي على أطلاله، لكنّها تؤثر الوقوف عليها، واسترجاع هذا أو ذاك من وقائعها، وكلّ من يتحدّث عن هذا «الماضي الجميل»، الوثيق الصلة بشبابها، يصنع لها مسرّة، ويدخل قلبها مباشرة، وهذا ما يفعله بدر، حين يلتقيها، لذلك تحفظ له هذه المكرمة، وتتحدّث عنه بهذه الحماسة، هذه المودّة، وهذا الإعجاب! غيداء واثقة من ذلك، وواثقة أكثر أنّ بدر لم يتوسّطها لديها، فالسيّدة صبيحة ليست خاطبة، ولا تقبل أن تكون رسول غرام بين مُحبّين، وكلّ ما قالته، حتّى مع احتمال الخطأ، نابع من يقينها التامّ، يقينها بأنّ الناس خلقوا ليتحابّوا لا ليتباغضوا.

المصادفة، أحيانًا، تلعب دورها. لو كان ثمّة مطعم آخر،

لركّاب الباخرة، لكانت مصادفة وجود بدر في المطعم تحتمل الشكّ. إنّه هنا منذ قليل. كان يبحث عن مكان لا يزعجه فيه أحد، وهذا لا يتوفّر في البار ولا في الكافتيريا، ورغم أنّه راغب عن الطعام، ففي البيرة بعض تسلية، وبعض عزاء، إلى أن تنفتح الشهيّة، ويترقّد الكدر، وقد وجد بدر في طاولة صغيرة، في أقصى المطعم، المكان الملائم للشرب وتصفية الحساب مع نفسه. لم يكن مازوشيًّا، أو راغبًا في تعذيب هذه النفس، أو ميّالاً إلى الشعور بالاضطهاد، كان، ببساطة، سخيفًا على نحو ما، أو هذا ما تكشّف له بعد العديد من الأخطاء التي ارتكبها دون قصديّة منه. «الأفضل لي، لو بقيت بعيدًا، لو لم أحاول ضبط الأمور، حفاظًا على سمعة جماعة الرّحلة. ما حدث كان عكس ما رغبت فيه. انجررت إلى جوّ الجماعة، بكلّ ما فيه من لتّ وعجن، وخواء، ونميمة، وحسد، واستغابة. لم أفعل أيّما شيء من هذا، لكنّني وضعت نفسي في دائرته، تلوّثت به، وعندما حاولت إنقاذ سمعتي كقبطان، زدت الطين بلّة، وكدت أرتكب حماقة إلقاء التحّ في البحر، أو ضرب ذلك المحامي الرخو، الذي يحشر نفسه في كلّ قضيّة، باعتباره رجل قانون، وأيضًا تحاورت، بغباء، مع هزار، وقبلها مع لويزا، مندفعًا بحسّ خبيء، غايته، مهما كانت المبرّرات، إظهار الشجاعة والجبروت، ولفت النظر، من منطلق التعالي الكاذب، كي أقترب أكثر من غيداء، وأريها من أنا وماذا في وسعي أن أفعل، مع أنّني، هنا، فرد من الجماعة، ولا يحقّ لي، كما لا يحقّ لأحد، أن يصادر دور حرس الباخرة، وإلاّ طاله القانون، الذي لا يسمح، تحت

طائلة العقاب، بزجر أحد، أو شتمه، ناهيك بضربه!»

أضاف بدر، بعد شرب كأس كامل من البيرة «اللّعنة! هذا ما يسمّونه الحشريّة، ولماذا؟ ومن أجل ماذا؟ ومن هم هؤلاء الأوغاد؟ آسف لأنّني أضعت رصانتي، وبدوت قبطانًا تافهًا، لأنّني لم أكنه، بل مثّلت، بغير نجاح، دوره...»

توقّفت، في هذه اللّحظة، تداعيات أفكاره التأنيبيّة، لأنّ الكرسون جاء يأخذ علب البيرة الفارغة، فرفع رأسه إليه، طالبًا علبة بيرة أخرى، وعندئذ لمح السيّدة صبيحة وغيداء تقفان على مقربة منه، داخل المطعم المزدحم بالطاعمين، وهما تبحثان عن طاولة فارغة، وتنظران إليه باستغراب، لاستغراقه في تفكير غير مريح، كما تشي ملامحه. أشارت إليه السيّدة صبيحة، محيّية بتلويحة من يدها، متسائلة، بنظرات امرأة لا يخفى عليها شروده، عمّا به، فنهض احترامًا، واغتصب ابتسامة هي مزيج من فرح وارتباك، وأشار إليهما أن يتفضّلا، دونما إلحاح، ودونما فتور، بل كما يجمل به، أمام إنسانتين لهما، رغم كلّ شيء، معزّة في نفسه.

السيّدة صبيحة كانت راغبة. غيداء كانت مرتبكة. بدر ظلّ واقفًا. الطاولة تتّسع لثلاثة أشخاص. جذب كرسيَّين إلى وراء. حركته حسمت التردّد. أصبح من غير اللائق رفض الجلوس إلى مائدته. تقدّمت السيّدة صبيحة. تبعتها غيداء. قال بدر وهو يشير إلى الكرسيَّين:

ـ تفضّلا!

أجلسهما مرحّبًا. فعل ما يفعله الكرسون المدرّب. دفع

الكرسيَّين تحتهما إلى أمام. جلس بدوره ودفع كرسيّه إلى أمام أيضًا. ابتسم وهو يقول:

ـ أيّ مصادفة سعيدة!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ ربّ صدفة خير من ميعاد.

أضافت:

ـ كنت شاردًا كالريّس الذي غرق مركبه!

قال ضاحكًا:

ـ كنت غارقًا أنا ومركبي في وقت واحد.

قالت غيداء:

ـ إذن جئنا في لحظة غير مناسبة.

قال بدر:

ـ المنقذ يأتي دائمًا في اللّحظة المناسبة.

ـ أنقذناك أم أنقذنا المركب؟

قال جادًّا:

ـ أنقذتماني أنا والمركب معًا.. ماذا تشربان؟

قالت السيّدة صبيحة:

ـ البيرة طبعًا!

طلب بدر ثلاث علب من البيرة. تحاشى النظر إلى غيداء وهو يقول:

ـ ما كنت أتوقّع مثل هذا اللّقاء!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ ونحن أيضًا! رأيناك منذ دخلنا المطعم، لكنّنا لن نشأ إقحام نفسينا عليك.. بماذا كنت تفكّر؟

قال بدر وهو يملأ الكؤوس بالبيرة المبرّدة:

ـ بشيء أو لا شيء في الوقت نفسه.. في صحّة النسيان، وهو نعمة كبرى من نِعَم الله.

ـ إذن كنت تشرب لتنسى؟

ـ هذا هو الأمر الطبيعيّ بالنسبة للناس، لكنّني، أنا، أشرب لأتذكّر، وهذا من سوء حظّي.

قالت غيداء:

ـ ولماذا من سوء حظّك؟ التذكّر مفيد وجميل، وإلاّ لماذا يقتني الناس التذكارات دائمًا؟

ـ لأنّهم عقلاء!

ـ وأنت!؟

ـ أنا أكره العقل والعقلاء!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ لا تحاول إقناعنا بأنّك مجنون، أو ترغب في الجنون.. لو كنت مجنونًا حقًّا، لادّعيت أنّك عاقل حقًّا! كلّ ما في الأمر أنّك متضايق ممّا جرى اليوم..

قال بدر:

ـ لا! لست متضايقًا ممّا جرى اليوم.. ثمّ ماذا جرى؟ دوكة صغيرة! إنّني متضايق من نفسي.. أحيانًا، وبرغمي، أكون سخيفًا، كيف العمل للخلاص من السخف؟ هذا ما كنت أفكّر فيه!

ـ وإلام قادك تفكيرك؟
ـ إلى نوع من تجريح النفس. . لنشرب. . لندع كلّ أصحاب الألسنة الطويلة، كي لا نتورّط في قصّها. . ماذا ينفعنا ذلك؟ لا شيء!! ثمّ من قال إنّ لساني، أنا نفسي، غير طويل؟ إنّه طويل جدًّا، وأبحث عمّن يقصُّه لي. . لقد أخطأت في المشاركة بهذه الرّحلة. .
ـ لا تقل هذا حتّى لا نشعر بالندم، لأنّنا، نحن أيضًا، نشارك في رحلة أزعجتك.
ـ أصابع اليد ليست متساوية. . هناك من يزعج، في الرحلة أو غيرها، هذا ما نعرفه جميعًا، فلا حاجة للندم. . أمّا بالنّسبة لي فإنّ دور القبطان الذي حاولت أنّ ألعبه كان خطأ! إنّني، هنا، فرد من الجماعة، أنا لست قبطانًا أو بلّوطًا، إلاّ أنّ سمعة الوطن، ومحبّة لبنان الذي في القلب، وكذلك الرّغبة في ضبط الأمور، دفعتني إلى زجّ نفسي في شؤون الآخرين. . الآن فات أوان التراجع. . إنّني بالمرصاد لأيّ وغد يحاول مضايقة غيره، لكن ماذا أفعل إذا كان هذا المخلوق امرأة؟ مجرّد رفع صوتي على امرأة إهانة لرجولتي، لذلك فإنّني لا أبالي بأمثال لويزا. .
قالت غيداء:
ـ وهزار!
ـ هذه تحتمي بك.
ـ أعرف! لكنّني، اليوم، جلعتها تدفع الثمن!
ـ لا أريد لأحد أن يدفع أيّ ثمن. . لنشرب المزيد من البيرة، فهي، في هذا الجوّ الخانق، تنعش الرّوح. . هل أنت

مرتاحة في قمرتك يا سيّدتي؟ أو هل هناك من يضايقك؟
سألت غيداء:

ـ مثل مَنْ!؟

ـ أنا مثلاً؟

نظرت إليه باستغراب وقالت:

ـ ولماذا أنت؟ الذي ينظر للآخر من بعيد لا يضايقه، إلاّ إذا كانت السلبيّة، بحدّ ذاتها، مضايقة؟

قالت السيّدة صبيحة:

ـ غيداء، يا بدر، تعرف عنك كلّ شيء، منذ أيّام الجامعة!

ـ معنى هذا أنّني كنت مكشوفًا، وتاليًا فاشلاً.. بتعبير آخر، سلبيّتي كانت إيجابيّة، وفي غير وقتها.. هل تعرفينني حقًّا يا سيّدتي؟ لاحظتِ يومًا أنّني أتتبّعك، أو أنّني أنظر إليك من بعيد؟ إذا كان هذا قد حصل فإنّ رجولتي لا تليق بي، الرّجل الذي يضايق، أو يثقل، على امرأة، لا يستحقّ أن يكون رجلاً! لذلك أعتذر.

قالت غيداء:

ـ لماذا، يا سيّدي؟

قاطعها قائلاً:

ـ بدر!

ـ وأنا غيداء!

ـ أكملي يا غيداء، ما دامت الكلفة قد رُفعت بيننا، وبصراحة، كاملة..

ـ كنت أقول، لماذا يا بدر، ترغب في التخفّي؟

ـ لأنّ الظهور، قبل الأوان، إعلان مجّانيّ عن النفس. . كانت لك حياتك، ولي حياتي، وكان الفارق كبيرًا بيننا، فأنت نجمة مجتمع وأنا سراجه، كان هناك الكثير من المعجبين، وكانت لديهم كلّ مقوّمات الإعجاب، كما كنت جميلة، ولديك كلّ مقوّمات الدلال، أقول كنت جميلةً، وأقصد ما زلتِ، فأين أنا، في الماضي، والحاضر، من كلّ هذا الاصطفاف من حولك؟

ـ السيّدة صبيحة قالت غير هذا، والواقع، في هذه الرّحلة، يدلّ على أنّك شديد الاعتداد بنفسك!

ـ حين أخلو بنفسي فقط! هذا ما يسمّونه التعويض عن النقص، بدقّة الكلمة، وفي الخفاء دائمًا!

ـ هذا الشعور، لكونه في الخفاء، ينحو منحى المراوغة. . ماذا كنت تقول في نفسك عنّي، حين كنت تراني؟ أجب بصراحة!

ـ كنت أقول لنفسي: لا تتعب يا بدر!

ـ وماذا تقول عنّي الآن؟

ـ لا تتعب يا بدر أيضًا!

ـ أين جرأة القبطان إذن؟

ـ جرأة القبطان تكون مع البحر لا مع المرأة. . المرأة، يا غيداء، تحتاج إلى جرأة أكبر، ومن نوع آخر.

قالت السيّدة صبيحة:

ـ هذا صحيح! البحر مخيف، لكنّ المرأة مخيفة أكثر، لكن هذا لا ينطبق على عزيزتي غيداء.

ـ ولماذا لا ينطبق عليّ؟

سألت غيداء، فأجابتها السيّدة صبيحة:

ـ بسبب كبرياء الجمال! أنت جميلة، وتعرفين أنّك جميلة، وأنت خطيرة، وتعرفين أنّك خطيرة، لذلك اكتفى بدر بالنظر إليك من بعيد، مع أنّه ينظر إلى البحر من قريب!

ضحكت غيداء وقالت:

ـ لكنّه، الآن، ينظر إليّ من قريب!

ـ لا أدري إذا كان ينظر.

ـ كيف هذا؟ لا تدرين «إذا كان ينظر!»

ـ هذا سؤال موجّه إليكِ.

تنهّد بدر وقال:

ـ دائمًا هناك خاطئة الأعين.. ربّما أخطأت عينيّ، اِغفري لهما إذن يا غيداء، أليس هذا جوابك؟

ـ لم تحزر!

ـ هذا صحيح! لم أحزر كيف ولدت، وكيف كبرت، وكيف درست الآداب، وكيف دخلت الكلّيَّة البحريَّة، وكيف صرت قبطان سفينة، وكيف جئت في هذه الرّحلة، وكيف التقيت بك فيها، ولا أعرف إلى أين أذهب، كما لا أعرف ماذا أريد.

قالت غيداء بجدّيَّة وتوكيد:

ـ لا! أنت تعرف ماذا تريد، وكلّ ما فعلته على هذه السفينة كان من أجل هذا الذي تريد، لكنّك شديد الكبرياء، شديد العناد، تريد دائمًا أن يقول الآخر الكلمة الأولى، وأن يخطو الآخر باتّجاهك الخطوة الأولى..

ـ ربّما!

ـ هذا مؤكّد!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ ما هو المؤكّد يا غيداء؟ أين هو هذا الآخر؟ ولماذا، إذا كان موجودًا، لا يقول الكلمة الأولى، أو يخطو الخطوة الأولى!؟

ضحكت غيداء وقالت:

ـ الآخر هو البحر! إِسألي البحر يا عزيزتي!

ـ وإذا كنت لا أعرف لغة البحر؟

ـ بدر يعرف هذه اللغة، وهو يجيب عنك.

ـ أجب يا بدر!

قال بدر مازحًا:

ـ نسيتِ أنّني الآن على خصام مع البحر لأنّه أغرق سفينتي!؟ لنشرب نخب دهاء غيداء، وكلّ غيداء في هذا الوجود!

قالت غيداء:

ـ أنا أشرب نخب الغائب، فهذا يلذّ لبدر جدًّا!

ـ تقصدين نخب لويزا؟

ـ ولماذا لا؟ لويزا أنثى أيضًا، وربّما كانت، هذه المسكينة، تحبّ من تكره، لكنّها تنتظر أن يقول هو الكلمة الأولى، وأن يخطو الخطوة الأولى..

قال بدر ضاحكًا:

ـ هكذا وبكلّ بساطة!

ـ تريني شاذًّا إلى هذا الحدّ؟ لويزا هذه مراهقة، ولست من

هواة المراهقات، في الوقت الحاضر على الأقلّ، أمّا في زمن الشيخوخة فقد يحدث ما ليس في الحسبان، ما دام الشيوخ يحبّون، أكثر ما يحبّون، المراهقات، أمثال لويزا وهزار أيضًا!!

- وماذا لو قلتُ لكَ إنّ هزار هدّدتني اليوم، بأن تذهب إليكَ وتقول لكَ: أحبّك!؟

- نظريّة الكره والحبّ واردة عند كلّ إنسان، لويزا تكره، إذن هناك احتمال أن تحبّ، وكذلك هزار، ولكن ماذا بشأن التي لا تكره؟ القياس على النظريّة يمدّنا بيقين أنّها لا تحبّ، أم أنّني مخطئ؟

- أنت غير مخطئ، ولكن ماذا لو عكسنا النظريّة؟ هناك ناس لا يحبّون، لذلك لا يكرهون، أليس الاستنتاج صحيحًا أيضًا؟ المسألة، في هذه الحال، تتوقّف على معرفة أيّهما أسبق: الحبّ أم الكره؟ إلاّ أنّ الحياة نفسها لا تقطع في مسألة كهذه، ما دمنا لا نعرف هل بدأت الحياة مع الشتاء أم مع الربيع؟ أم أنّ تجاربك كقبطان أمدّتك بمعرفة الطبيعة، وما إذا كانت في البدء عاصفة أم ساكنة؟ أنا أزعم، قياسًا على البعض، أنّها بدأت ساكنة، بل ساكنة جدًّا، في المظهر على الأقلّ! السديميّون، يا بدر، موجودون بيننا، وهؤلاء فقط لا حرارة ولا برودة فيهم، وبتعبير آخر: لا حبّ ولا كره لديهم، إنّهم يستحقّون الشفقة!

قال بدر:

- يستحقّونها إذا استجدوها!

ردّت غيداء:

ـ هنا البليّة! بعضهم، في الحبّ، لا يعرف كيف يستجدي. . يظلّ ينتظر وينتظر، فإلى متى؟ إنّني مع الذين لا ينتظرون، في الحبّ، أن تحدث المعجزة تلقائيًّا، عليهم أن يساعدوا هذه المعجزة على الحدوث، ولكن كيف!؟

ردّت السيّدة صبيحة:

ـ بشرح أنفسهم، حتّى لو اعتبر الآخرون هذا الشرح استجداء، ما رأيك يا بدر؟

ـ الحبّ ليس قرارًا يتّخذ!

ـ لكنّه، أيضًا، ليس صمتًا بالفم أو العين، وليس مكابرة إلى أن ينطق الآخر. . الجرأة تتطلّب صراحتها، الجريء مَن يصارح، هذا إذا كان لديه ما يُصارح به، حتّى لا نُخضع الكلام على العاطفة إلى المكاسرة!

ضحك بدر وقال:

ـ لكنّني لم أقل ما أُجازى عليه بهذا الهجوم!

ـ أنت لا تقول لكنّك تفعل. . الدم البارد خليق بالزواحف لا بالناس، وأنت لست من أصحاب الدم البارد، لكنّك تحرص على قشرة اسمها الكبرياء، وهذه القشرة كلّفتك الكثير، ودونما فائدة! تذكّر أنّ القشرة لا تصبح لبًّا، مهما يطل التمسّك بها، ألستِ من رأيي يا غيداء؟

قالت غيداء:

ـ نعم من حيث سلامة المنطق، إلاّ أنّ الحوار يبدو مبهمًا، حول من يدور الكلام؟

ـ حول المطلق!

قالت السيّدة صبيحة:

ـ لا! ليس حول المطلق.. بدر يحبّك يا غيداء، لكنّه يصرّ، كلّ هذه الأعوام، كيلا يقول لك إنّني أحبّك! يعتبر ذلك إهانة لرجولته، مع أنّ الرجولة والأنوثة لا دخل لهما في موضوع الحبّ، وخاصّة في إعلانه.. بدر يفهم الرّجولة خطأ، وهذا عيبه! لندفع الحساب وننصرف.

قال بدر:

ـ سأسمح لنفسي، هذه المرّة، أن أكون على خطأ آخر في موضوع الرّجولة، الحساب تمّ دفعه!

ـ لكنّنا في رحلة، وفي الرّحلات يدفع كلّ إنسان حسابه.

ـ إلاّ في حالة واحدة، هي وجودي على الطاولة، مع أيّ من الناس!

ـ عنجهيّة!

ـ وإذا قلت لك إنّني متمسّك بعنجهيّتي؟

ـ هذا واضح دون أن تقوله يا بدر! شكرًا وإلى اللّقاء.. أرغب في قليل من الراحة في قمرتي، وأترك الحرِّيَّة لغيداء.. كن لطيفًا معها!

ـ الخشونة ليست من طبعي!

ـ ولا الدماثة!

ـ لا أستحقّ كلّ هذه القسوة!

ـ بلى! تستحقّها!

ـ على أيّ ذنب؟

قالت غيداء ضاحكة:

ـ إِسأل السيّدة توليب..

ـ وكذلك البارمان مارغو!

هتف بدر وهم يخرجون من المطعم!

ـ يا إلهي! مراقب دون أن أدري!؟ ومتّهم بالحبّ دون أن أدري أيضًا!!؟

مدّت السيّدة صبيحة يدها مصافحة وهي تقول:

ـ أنت، يا عزيزي، غير مراقب، وغير متّهم، وكلّ ما قلناه، نحن الثلاثة، كان تسليةً، والآن اِنس كلّ ما سمعت، لأنّه غير معقول، وغير المعقول موضة العصر.. ونحن لا نرضى بالتخلّف عن عصرنا.. مرّة أخرى إلى اللّقاء!

صعد بدر وغيداء إلى سطح الباخرة. كانا الآن وحيدين. هذه أوّل مرّة يكونان على انفراد. خمسة وعشرون عامًا مضت، بانتظار هذا اللّقاء الانفراديّ، هذا القرب، أحدهما من الآخر، الذي لم تكن غيداء تتوقّعه، لأنّها كانت، حتّى المشاركة في هذه الرّحلة البحريّة، خالية الذهن تمامًا، غير عارفة أنّ هناك إنسانًا يلتقيها، في الجامعة وما بعدها، مكتفيًا بالنظر إليها من بعيد، وفي ذاته تتردّد عبارة واحدة: «هذه المرأة ستكون لي!» تراها تكون؟ الآن، غدًا، بعده، أو في المستقبل؟ وماذا لو كانت؟ ما أهمِّيَّة أن تكون امرأة لرجل، بعد هذا الانتظار الطويل؟ اللّقاء هذا، كان ممكنًا في الجامعة، بعدها، قبل زواج غيداء، بعد أن تزوّجت، وأيضًا بعد أن مات زوجها، والمعجبون، من حولها، هم المعجبون، والله يعلم ما كان جدوى هذا الإعجاب، وإلام وصل الأمر بينها وبين واحد منهم، أو أكثر!؟ هلّ فكّر بدر بهذا!؟ لم يفكّر!؟ كان جبانًا فلم يستعلن، باسمه وصفته!؟ كان على شكّ من أمر هذا الاستعلان!؟ خاف أن يزاحم أم ترفّع عن الزحام، في عجقة المنافسة، بين الصادقين منهم والمنافقين!؟ رغب أن تأتي إليه،

لا أن يذهب إليها!؟ يحبّها فعلاً كما قالت السيّدة صبيحة وهم إلى طاولة الغداء؟ تحبّه غيداء بعد أن سمعت ما سمعته عنه؟ بعد أن عرفت، خلال الرّحلة هذه، بعض صفاته، وما اكتنفها من غموض؟ لماذا لم يكن لها ردّ فعل، وهي تسمع من السيّدة صبيحة أنّه يحبّها؟ كان هذا الحبّ، بالنّسبة إليها، تحصيل حاصل؟ كانت تعرف؟ تقدّر؟ تظنّ؟ وهل هي واثقة أنّه لا بدّ أن يحبّها، ما دام كلّ الرّجال يحبّونها؟ وهل يكفي أن تكون على هذا الجمال، كي تثق أنّ جمالها لا معدى عنه ولا مهرب منه؟ كلّ الاحتمالات واردة، وأهمّها ثقتها بنفسها، فهل ثقتها هذه بحجم ثقته؟ أكبر؟ أعمق؟ أصدق؟ إذن أين المفاجأة؟ وهل ثمّة مفاجأة؟ تعرف أنّه كان، في سنوات الانتظار الطوال، يردّد في نفسه «هذه المرأة ستكون لي!»؟ ولئن كانت، في أيّما يوم، فما هو الحدث المهمّ، إذن، في هذه الكينونة؟ الرّجل دائمًا للمرأة، والعكس صحيح، إذن ما قيمة هذا الإضمار الذي رفعه بدر في ذاته إلى مرتبة الشموخ الذكوريّ الفريد والنادر؟ غيداء كانت لغيره، كما كان بدر لغيرها، فأين الغرابة في أن تكون له، كما كانت للآخرين، وأن يكون لها، كما كان لغيرها؟ وهل الإخراج المسرحيّ، الذي صاغه في تأنٍّ وإتقان، هو إخراج ناجح؟ وهل هناك، بعد، قيمة لهذا الإخراج، سواء نجح أم فشل؟ «اعترف يا بدر بغرورك، واعترف، أيضًا، أنّه كان مبنيًّا على قاعدة من الدونيّة، وهذا هو سبب خشيتك من الفشل، لأنّك عظّمت غيداء، وصغّرت نفسك، وفي هذا التعظيم والتصغير، خيّل إليك أنّ فتحك الغراميّ، حين يتحقّق، هو الفتح، مع أنّه عاديّ جدًّا، لا يستأهل كلّ هذا العناء!»

على سطح الباخرة اختالت غيداء تيهًا، لأنّها جعلت هذا «القبطان الخائب»، الذي اسمه بدر، رجلاً بغير تميّز، ومثل أيّ رجل آخر، مشى حيث مشت، وتوقّف حيث توقّفت، وأجاب على أسئلتها كأنّه يجيب على أسئلة سلطانة، وفي مجرى غروره، اختال بدر تيهًا بدوره، لأنّه، في ظنّه، نفى المعجبين الآخرين، في حين ثبت هو كمعجب وحيد، وأنّ غيداء اصطفته، وفي هذا الاصطفاء إدلال له، وهذا في ذاته نصره الذي صبر له وصابر، إلى أن سعت إليه غيداء، دون أن يسعى هو إليها! «منطق ذكوريّ! وفي هذا المنطق يستوي الرّجل الغربيّ والشرقيّ معًا، مع بعض ادّعاء، يجعل الرّجل الشرقيّ أكثر تشوّقًا، نتيجة الحرمان الذي يكابده، والذي يشكّل عقدة نفسيّة، تُحلّ غالبًا على ركبة امرأة مكشوفة، يتحلّب ريقه المرّ ما إن يراها.»

سألته غيداء:

ـ بماذا تفكّر؟

قال وهو يمشي إلى جانبها، بين مقدّمة السفينة ومؤخّرتها:

ـ بالرّجل الشرقيّ، أي بنفسي!

ـ هل لهذا تدخّن كثيرًا؟

ـ أنا لا أدخّن.. همّي هو الذي يدخّن!

ـ هل هذا لأنّي معك؟

ـ لا! أبدًا!

أضاف:

ـ وجودي، يا غيداء، يطرح دائمًا أسئلة على وجودي، سواء

كنت في البحر أم على البرّ، وهذا التساؤل يعذّبني، لأنّني أشعر معه بالهروب إلى أمام، كمن يهرب من ذاته إلى ذاته!

ـ لكن هذا لا يبدو عليك، فمن يراك يحسب أنّك قد قهرت الزمن.

ابتسم لها وأجاب:

ـ لا أحد، يا غيداء، يقهر الزمن.. يكفي الإنسان شجاعةً ألاّ يدع الزمن يقهره، وهذا ما أحاوله.

ـ تحاوله!؟ القبطان الذي يصارع البحر، يحاول ألاّ يقهره البحر!؟

ـ تمامًا يا غيداء! إنّني، أمامك، ورقة بيضاء، بغير حبر سرّيّ، كلّ ما أفعله أنّني أصارع كي أكون جديرًا بحياتي، وفي وسعك، في هذه اللّحظة، أن تحكمي: هل أنا جدير بها؟

قال ذلك وأخذ أصابعها الدافئة في يده، دون أن تمانع.. سألت:

ـ أنت جدير بحياتك تمامًا! يا إلهي! كم أنت قادر على الصبر!؟ لماذا لم نتعارف في الزمن الجميل الذي كان؟

ـ لأنّني مريض بالأَنَفَة، وهو مرض ذو صلة بالغرور، وهذا لأنّني ذكر أوّلاً، ولأنّني رجل شرقيّ ثانيًا.

ـ وهل هناك، في حياتك، ما جعل مرضك يطول بهذا الشكل؟

ـ نعم! مرض الثقة المفرطة بالذّات، وهو نوع من الغرور أيضًا، ناشئ عن الرّهان مع النفس، في حالة ملتبسة من القدرة على قهر هذه النفس، وأحسب أنّني نجحت في

ذلك، لكنّ الحصاد، واأسفاه، كان قبض الرّيح، وها أنا لا أجرؤ على النظر إلى وراء، إلى أيّام الزمن الجميل كما تقولين، لأنّني أضعته على نيّة الرّبح.

- ربح ماذا؟
- الغمام الأبيض!
- لا تكن ساخرًا يا بدر! ليس من إنسان يقضي أجمل أيّام حياته في سبيل هدف خلبيّ، أنت كان لك هدف آخر، تسعى وراءه، فما هو؟

أضافت غيداء:

- طبعًا هذا سؤال لا يُسأل، لذلك أعفيك من الجواب.. تعال نقف عند حاجز السفينة ونستمتع برؤية البحر.

سارا باتّجاه الحاجز، اتّكآ عليه، راحا ينظران إلى زرقة الماء، وإلى بعض الدلالفين التي من حول السفينة، وإلى المدى المائيّ الذي يخال رائيه أنّه بغير حدود، وإلى الأفق الذي يتلاصق فيه الماء والسماء، وكلّ منهما يفكّر بهذا اللّقاء الذي كان منتظرًا، مرغوبًا، وعندما تمّ، تكتّم خلاله كلّ منهما عن البوح بما في الصدر، رغم شعور مشترك بأنّ الآخر يرغب في هذا البوح ويعجز عنه. كانا، الآن، على عتبة عالم جديد من المودّة، وعلى يقين أنّ هذه المودّة رسول شوق بينهما، رسول شوق إلى ما فضّل حتّى عن الشوق، وهو اللّذّة المرتجاة، في عناق يفضي بهما إلى جحيم من الشهوة التي تتسعّر في الجسدين، بانتظار من يتخطّى العتبة أوّلاً، ومن يأخذ بيد الآخر إلى تخطّيها، لدخول الفردوس التي تفحّ في جنباته الأفاعي داعية ألف حوّاء وألف آدم، إلى تذوّق ثمار الشجرة

المحرّمة!

وكعادة حوّاء في الجرأة، سألت غيداء:

ـ لماذا هربت يا بدر من عالم الأدب إلى عالم البحر؟

قال بدر برنّة شجن:

ـ كيلا أكون ثورًا يدير مؤخّرته إلى عذابات الإنسانيّة، حسب تعبير أحد الفلاسفة.. إنّني، يا غيداء، إنسان بعد كلّ شيء، وقد عرفت البؤس في بيروت معرفة نظريّة، وناضلت وأنا في الجامعة، مع الطلاّب الآخرين، في سبيل إزالة هذا البؤس أو التخفيف منه، لكنّني، بعد الجامعة عُيِّنت مدرّسًا للأدب العربيّ في جبل عامل في الجنوب، وهناك رأيت البؤس عيانًا، وكان بؤسًا شديدًا، مرعبًا، فحاولت النضال ضدّه، لكنّ الإقطاع كان لي بالمرصاد، وبتهمة نشر الأفكار الهدّامة، دخلت السجن، وأُبعدت إلى الكورة في الشمال، وهناك تكرّرت المأساة، لأنّ البؤس كان هناك أيضًا، وكان شديدًا جرّح روحي، فلمّا ضاقوا ذرعًا بي وبأفكاري، سرّحوني من وزارة التربية، فقرّرت أن أترك البرّ إلى البحر، وهكذا التحقت بالكلِّيَّة البحريّة في أثينا، وتخرّجت قبطانًا، إلاّ أنّني اكتشفت، خلال عملي في البحر، مساعد قبطان أوّلاً، وقبطانًا لسفينة شحن تاليًا، أنّ البؤس في البحر لا يقلّ عنه في البرّ، وأنّ الاستغلال هو هو، وأنّ البحر، كي يكون عادلاً، لا بدّ أن يكون البرّ عادلاً أيضًا، وأنّ العدالة، كما دلّت التجربة، لا تتوفّر، وقد لا تتوفّر، في حياتنا، إلى زمن طويل، لكن هذا الواقع لا يدعو إلى اليأس، لأنّ حلم

البشريّة لا بدّ أن يتحقّق أخيرًا. لقد هدّني السهر والتعب، ورأيت الموت في أحداق العواصف، وظنّي أنّ ارتطام السفينة في الشعَب المرجانيّة، كان بسبب النعاس، للحظة واحدة، نتيجة الإعياء! الأشغال الشاقّة، يا غيداء، ليست وقفًا على السّجناء، أو على المجرمين، كلّنا محكومون بالأشغال الشاقّة مع النفاذ، سواء كنّا في البحر أم على البرّ، وكلّنا مساقون إلى مسلخ التفاوت الطبقيّ، وهناك نُذبح كالخراف، وتُسلخ جلودنا، أحيانًا، ونحن أحياء، وليس أمامنا سوى الكفاح، بأيّ طريقة متاحة، والكفاح صنو الشجاعة، وقرين كبرياء الصبر، هذا الذي تعجبين له، وتستغربين كيف تحمّلته، ولماذا أضعت الزمن الجميل في سبيله.. في القلب، يا غيداء، همّ، وما الشرب على البار، أو التسلّي في الكافتيريا، أو تمضية بعض الوقت مع السيّدة توليب، وما في ذلك من مرح ومجون، إلاّ ستارة للهمّ الذي في القلب، بانتظار اليد الحنون التي تمسح على جراحي الناغرة، وتوقف نزيفها، وهذه اليد هي التي تبدو قريبة بعيدة في آن، لكنّني غير مبالٍ ببعدها، لأنّني واثق من وجودها، ومن بلسمتها، ومن فوزي بأناملها، كما أنا واثق من وجودي الآن معك.. هذه هي نتفة من حكاية حياتي، وهي مكتوبة أمامك على زرقة الماء، ومن المرجّح أنّك قرأت ما هو مكتوب على هذه الزّرقة المائيّة.. ما رأيك أن نذهب إلى البار، ونتناول شيئًا ممّا يقدّمه لنا المايسترو الأعظم، البارمان غابور؟

ابتسمت غيداء وهي تضع يدها فوق يد بدر على حاجز

السفينة، نظرت إليه برغبة متوحّشة وقالت:

ـ كم أنت شقيّ، وكم أنت شاعريّ في شقائك يا بدر!

أضافت:

ـ تحبّ الياس أبو شبكة وفردوسه السفليّ؟ كان شقيًّا مثلك، وصاحب أَنَفَة مثلك، وقد قال يومًا: «لي مهجة كدموع الطفل صافية!» رغم أنّه اتّهم ببودلير في بعض قصائده، لأنّه تجرّأ على الجنس، في حين خافه الآخرون، وتمرّد على التقاليد التي قدّسها الآخرون أيضًا! لم يكن عاديًّا، وأنت كذلك!

سأل بدر:

ـ وأنت يا غيداء؟

ـ أنا أقرأ ما هو مكتوب على صفحة البحر، وليس في هذه الصفحة أيّ كلمة عن البار والبارمان وتفّاحة الخير والشرّ، هذه التي أكلت منها، كما يخيّل إليّ، حتّى بشمت، فتحصّلت لك تجارب مع النّساء كافية لإنشاء فردوس سفليّ آخر! تراني أبالغ!؟

ـ لا! ليس في كلامك أيّ مبالغة! وإذا كنت أخطأت في دعوتك إلى الجلوس قليلاً على البار فإنّني أعتذر.. أنت يا غيداء شيء آخر، ولا علاقة لك بأيّ فردوس سفليّ أو علويّ، لسبب أعرفه ولا أقوله.

ـ خوفي!؟

ـ معاذ الله!

ـ عاديّتي!؟

ـ أنت امرأة غير عاديّة وتعرفين ذلك!

قالت غيداء وهي تنظر في عيني بدر:

ـ بلى! أنا عاديّة لكوني من الشرق، كما أنت ذكوريّ لكونك من الشرق أيضًا! ولك أقول: إنّني راغبة في قتل هذه العاديّة، ومعك بالذات، لأنّك مثلي، وكلانا يحبّ ما هو عاصف، كي نتعلّم الجنون، كما قلت ساخرًا، من عقلانيّة لويزا، على مقدّمة السفينة، في أوّل يوم من رحلتنا هذه.. بليّة حياتنا يا بدر، أنّنا عقلاء أكثر من اللاّزم، ولا أذكر أين قرأت هذا الكلام، ومن قاله، لكنّني على يقين من صحّته.. إنّني موافقة على أن نُجنّ، أنا وأنت، وليكن ما يكون!

سارا إلى البار بغير ونى أو تردّد. المرأة حين تعتزم أمرًا تنفّذه بجرأة. بدر فوجئ بجسارة غيداء. «هذا طبيعيّ، هذا من حقّ الإنسان الإنسان. غيداء إنسانة، وجسارتها إنسانيّة، الطبيعة لا تستحي في التلاؤم مع طبيعتها. تحقّق ما تريد، وبالشكل الذي تريد، في كلّ الفصول، وما فيها من تباين صارخ. تفعل ذلك بعفويّة، كما عفويّة الإنسان، في طفولته الأولى، الطبيعة تكتب ذاتها على مطر الشتاء، ونرجس الرّبيع، وابتسامة الصيف، وشحوب الخريف، تكتسي، تتعرّى، تثور، تهدأ، تعيش حياتها. ما أشقى الإنسان الذي لا يعرف أن يعيش حياته!!»

جلسا، غيداء وبدر، على البار، طلبا كأسين من الديبونيه، شربا نخب لحظتهما السعيدة، أشعلا سيكارتين، لم يتلفّتا، لم يتوجّسا، كانا، الآن، ابنين حقيقيّين من أبناء الطبيعة، وعندما سأل البارمان غابور:

ـ من أين اصطدت هذه الغيمة يا سيّدي؟
أجابه بدر:
ـ من نقطة بين المشتري والمرّيخ يا بنيّ!
ـ وهل هناك غيم بهذا الجمال؟
ـ لا! أنا أصطاد الأجمل دائمًا!
ابتسمت غيداء وقالت:
ـ الأجمل في الغيم، ما يكون مشعشعًا بحمرته عند الغروب، ونحن الآن في العصر.
قال بدر:
ـ حيث تكونين يكون التشعشع كوكبة أرجوانيّة، وفي كلّ الأوقات، ومنها وقتنا هذا، الذي أنصح غابور ألاَّ ينكّده علينا، وإلاَّ استبحت باره على طريقة هولاكو!
قال غابور:
ـ باري استباحته كليوباترا فقط، وبكثير من اللّطف!
ـ وبعد ذلك؟
ـ الذي بعد ذلك لا يقال!
ـ أعطنا كأسين من الويسكي المغشوش إذن!
ـ للمرّة العشرين، أو الخمسين، أؤكّد لك يا سيّدي القبطان، أنّني لا أتعامل مع الويسكي المغشوش.. هنا بار محترم، في سفينة محترمة، والويسكي الذي أقدّمه لك الآن، من النوع الفاخر، الذي أرسلته لك إلى قمرة السيّدة توليب اليوم بالذّات..
قال ذلك غابور، وقدّم كأسين من الويسكي المثلوج إلى

غيداء وبدر، وبعد أن ابتسم وهو يقدّم رقائق البطاطا المقليّة، سأل بخبث مشوب بالمرح:

ـ كيف هي السيّدة توليب الآن!؟ إنّها غيمة أخرى فضِّيَّة، انهمرت عليك بعطرها من اليوم الأوّل لتعارفكما هنا على هذا البار، أم أنّني أتجاوز حدّي، في طرح سؤال لا يُطرح.. المعذرة يا سيّدتي على هذه الدعابة التي أخصّ بها قبطاننا وحده!

قالت غيداء:

ـ قبطاننا يرغب في مثل هذه الدعابات، وأنا كذلك.

قال غابور بلؤم:

ـ الكلام على سيّدة ما، بحضور سيّدة أخرى، فيه بعض الحرج.

ـ ليس فيه أيّ حرج بالنّسبة لي، لأنّه لا عطر عندي أنهمر به على أحد.

ـ عطر الغيمة السمراء له شذى آخر، أكثر طيبًا ربّما.

ضحكت غيداء وقالت:

ـ وربّما أقل!

قال بدر:

ـ بل أكثر وأكثر، واذهب يا غابور، أيّها البارمان الدنس، إلى زريبة الخنازير، أو ابلع لسانك لأنّه أصبح طويلاً، كأنّما جلّخته على حافة زجاجة مكسورة..

ضحك غابور وقال:

ـ هذا تعبير طريف يا قبطان، لكنّني أرغب في معرفة كم مرّة

في اليوم يتبدّل مزاجك!

ـ مرّة واحدة، ومع السيّدة توليب فقط، هل أقنعك الجواب؟

ـ قليلاً!

ـ إذن هذا يكفي، إذا لم تكن حذرًا كما يجب.

ـ إنّني حذر مع زبائني، لكنّ صحّتهم النفسيّة تهمّني.. لماذا جعلت السيّدة توليب تبكي؟

ـ لأنّ أنفها أكبر من اللاّزم!

ـ هذا جواب مقنع! سأنصح السيّدة توليب بإجراء عمليّة تجميل لأنفها، إذا ما كان منفرًا إلى هذا الحدّ، مع أنّه ليس كذلك، بشهادتك أنت بالذّات!

قال بدر بجدِّيَّة صارمة:

ـ إذا لم تكن ابن عاهرة يا غابور، توقّف عن هذا السخف وإلاَّ قلبت هذا البار، بكلّ ما فيه، على رأسك، هل تفهم ما أقول!؟

ـ أفهم يا قبطان! لكن عليّ أن أقول للسيّدة توليب شيئًا ما.. إنّها تنتظر في القمرة جوابًا منّي!

ـ قل لها إنّ كرامتي فوق قلبي، وإنّني لا أغتصب لأنّ هذا ليس من شيمتي، وإنّني لا أتهالك أمام امرأة، حتّى لو كانت ماري أنطوانيت نفسها.. إنّها ترغب في إكمال لوحتها، وهذا من حقّها. في الرّسم، كما في الجسم، لذّة، والأمر نفسه في الكتابة، وفي قيادة سفينة ما، والمسألة، بعد، تتوقّف على الحبّ، لأنّ به تكون اللّذّة سعادة، وأنا لم أقل للسيّدة توليب إنّني أحبّها، لذلك لم يترتّب لها حقّ عليّ، ولا منّة من أيّ نوع، والسعادة التي أنشدها ليست عندها،

ولا هي تملكها، لهذا تركتها ترسم منظر الغروب على البحر، وخرجتُ من قمرتها لأرى هذا الغروب على الطبيعة، في أقصى هذا البحر الذي تروّضه هذه السفينة، كما تروّض المهرة مهرها، قبل أن تستجيب له، أو تذعن لفحولته، هي الأرنة من بطر وشبق، وهي التي تملك أن تبيح له ظهرها أو تتأبّى عليه.. إنّني، يا غابور، لا أُشترى ولا أُباع، ولا أشرب من نبع عكر، إذا ما رمى فيه أحد حجرًا بقصد تعكيره عليّ!

قال غابور:

ـ أفهمك يا قبطان تمامًا، لكنّني، كرجل غربيّ، لست على هذه الدرجة من الحساسيّة، ولا أرفض نعمة الجسد حتّى لو ركلتني صاحبته في صدري، المهمّ، لديّ، أن أكسب شيئًا ما، بطريقة ما، من غير أن أثور لأنّ إهانة ما، حقيقيّة أو وهميّة، قد لحقت بي من قبل امرأة، يمكن أن أنالها حتّى بالركوع أمامها على ركبتيّ!

حدّق فيه بدر وقال:

ـ هذا الذي تقوله، يا غابور، لا يتعلّق برجل غربيّ أو رجل شرقيّ، بهذا التعميم السخيف الذي ينطبق عليك وحدك لأنّك قوّاد لا أكثر!

قال غابور:

ـ وماذا يعني هذا؟ السيّدة توليب جميلة، وثريّة، وفنّانة، وتدفع.. إنّها، يا قبطاني العزيز، سحابة بيضاء ممطرة، فلماذا نرفضها، أنت أو أنا؟ المطر جيّد، خاصّة إذا كان من

اللّون الأخضر، أم أنّك لا تحبّ الورق الأخضر، حتّى لو كان نقدًا، أو شيكات سياحيّة لها قوّة الإبراء!؟

تناول بدر كأسه ورشق وجه غابور بما تبقّى فيه وهو يقول:

ـ هذا جوابي يا ابن العاهرة! تذكّرني به!!

قال ذلك بغضب ونزل عن البار، وبعد أن دفع الحساب، مشى وغيداء إلى جانبه، وصوت غابور يلاحقه:

ـ ستبقى، مهما فعلت، قبطاني العزيز، لأنّك تدفع، وباللّون الأزرق.. السيّدة توليب بانتظارك، ولها رغبة، وثقة، بأنّك ستعود إليها، وهي غيمة بيضاء، رقيقة كسحابة الصيف، وناعمة كالحرير.. كن عاقلاً، فالعقل يبرّر كلّ الأفعال!

ـ وقح، غابور هذا!

قالت غيداء. توقّف بدر وتأمّلها. كان لديه إحساس بالقرف. وكان له من تجاربه ما يجعله على يقين من أنّ زمن النفعيّة هو السائد، في مجتمع استهلاكيّ شعاره الكسب بأيّ شكل، وغابور ابن هذا المجتمع، بدقّة الكلمة، إلاّ أنّه ظريف، وفي وسع المرء، حين يكون ضجرًا، أن يتسلّى معه وعليه، وهو غير مكترث بالسيّدة توليب لولا أنّها زبونه الدسم، وأنّ تظرّفه، وكذلك ابتلاعه أيّ إهانة توجّه إليه، هي الصفة المميّزة، العامّة، المعمّمة تدريجيًّا، على كلّ الحثالات من أمثاله، وما حرص غابور على بقاء العلاقة بين بدر والسيّدة توليب، إلاّ ضرب من الجشع، لأنّه، بفعل كهذا، ينتفع بما تجود به عليه، بعد أن أقنعها بأنّه يضمن لها بقاء بدر معها طول الرّحلة وما بعدها!

قال بدر لغيداء:

ـ أعتذر يا غيداء لأنّ هذا الكلب تمسّح بي بقدر أكبر من المعتاد.

قالت غيداء:

ـ لا حاجة للاعتذار يا بدر.. غابور أراد إثارة غيرتي!

ـ هذا صحيح، لأنّه ذهب بعيدًا في ظنونه، وكان لا بدّ من ردعه، وقد هممت، ثمّ وجدت أنّ تأديب أمثاله غير لائق وأنت معي.

ـ أنا كنت عبئًا عليك!

ـ عبء!؟ عن أيّ عبء تتحدّثين!؟ لقد شربنا قليلاً، وتسلّينا قليلاً، وهذا في ذاته مدعاة للسعادة.

ـ أنا من جهتي سعيدة، وقد اكتسبت خبرة من كلّ ما رأيت وسمعت.. ما رأيك أن نذهب إلى قمرتي، لإزالة سوء التفاهم بينك وبين هزار؟

ـ يرضيك أن أذهب إليها؟

ـ بل تأتي إليّ! هزار هذه لا شيء، لكنّها أخطأت وسأجعلها تعتذر لك.. ما رأيك؟

ـ اِسبقيني وسألحق لك.

ـ أفهم من هذا أنّك ترفض دعوتي؟

شدّ على يدها التي أخذها بيده وقال:

ـ بدر، يا غيداء، له كلمة واحدة، هي فعل دائمًا.. إنّني ألتزم بكلمتي في كلّ أحوالي، ما أقوله أفعله، ولو دفعت حياتي ثمنًا لذلك.. أنت لا تعرفينني بعد، وفي هذا عذر لك..

إسبقيني.

سبقته غيداء. دخلت قمرتها فلم تجد هزار. كانت ثمّة ورقة على الطاولة، فيها هذه الكلمات «ذهبت إلى المسبح وسأبقى إلى اللّيل.. سامحيني على طيشي. أحبّك جدًّا جدًّا جدًّا! هزار» إبتسمت غيداء «هذه الفتاة طيّبة، لولا أنّها رعناء، يمكن، في كلّ وقت، أن تُستفزّ وأن تُضلّل.. ماذا أقول لبدر؟ خدعتك؟ لا! بدر يعرف أنّني لا أمارس الخداع، وأنّني كنت راغبة، بصدق، في إزالة سوء التفاهم بينه وبين هزار، لكن هزار غير موجودة، وهذه الكلمات التي تركتها لي تؤكّد صدقي، وسأطلع بدر عليها، وله، بعد ذلك، أن يصدّق أو لا يصدّق».

ـ ١٩ ـ

طُرق باب القمرة بلطف. فتحت غيداء، وهي تبتسم مرحّبة. قالت:

ـ لا تؤاخذني على هذه الفوضى يا بدر!

وضع بدر يده على كتفها وقال:

ـ القمرة غير الصالون، والفوضى، هذه، هي هي في كلّ قمرة، وهذا وحده دليل على أنّنا في البحر، وأنّ السفر في البحر سفر في الفوضى، ما دامت السفينة هي الأرجوحة، ونحن نتأرجح معها، في حالة من عدم التوازن الكامل أحيانًا.. ماذا بك؟

تمسّكت غيداء ببدر وقالت:

ـ لا أدري! السفينة على غير عادتها، لنجلس قبل أن نسقط، هل هناك عاصفة أخرى؟

احتواها بدر بلطف. أجلسها على مقعد قريب وهو يبتسم، قال واقفًا:

ـ لا! ليس من عاصفة، السفينة تغيّر اتّجاهها، وهناك ارتفاع قليل في الموج، وبعد قليل يهدأ كلّ شيء، اطمئنّي.

ـ معك أطمئن، فأنت قبطان وتعرف، لكنّ هزار غير موجودة مع الأسف.
ـ هل عليّ أن أنصرف؟
هتفت غيداء:
ـ كيف؟ ولماذا؟ اِقرأ هذه الكلمات!
قرأها بدر مبتسمًا وقال:
ـ أنت، يا عزيزتي، بغير حاجة إلى «شهادة حسن سلوك»، وأنا لست بالشكّاك، أستطيع، من نظرة، أن أسبر نوايا الآخر أو الأخرى، أنت صادقة، وأنا واثق من صدقك، فلندع الحرج جانبًا!
ـ اقعد إذن! قد تقع إذا بقيت واقفًا.
ـ أقع!؟ هتف بدر ضاحكًا، معنى هذا أنّني لا أعرف حتّى أبجديّة العمل في البحر!
قالت غيداء:
ـ لم أقصد يا بدر! لكنّني، أنا، أتمايل وأنا قاعدة.. ماذا يقول الرّصد الجوّيّ؟
ـ يقول إنّنا نجتاز مطبًّا بحريًّا، كما تجتاز الطائرة مطبًّا هوائيًّا.. ما رأيك أن تستلقي قليلاً؟
ـ هذا أفضل من البقاء على المقعد، لكنّني لا أستطيع الوقوف أو الانتقال إلى السرير.
انحنى بدر واحتضنها. صاحت غيداء:
ـ ماذا تفعل؟ اِسندني فقط!
ـ أنا مضيف بحريّ الآن، تعالي..

رفعها بين ذراعيه، وضعها على السّرير في حالة استلقاء، قال وهو يغطّيها بشرشف:

ـ إطمئنّي! اجتزنا المطبّ البحريّ.. بإمكانك النهوض الآن، أو بعد دقائق، ماذا أفعل لأجلك؟

ـ أن تستريح.. أرجوك!

ـ أنا مستريح تمامًا، هل تشعرين بدوخة؟

ـ لا! إنّني بخير، لكنّني..

ـ محرجة!

ـ وللمرّة الثانية، خلال وقت قصير جدًّا.

ـ أعرف.. المرّة الأولى لأنّ هزار غير موجودة، والثانية لأنّني ساعدتك على الوصول إلى السرير، وماذا أيضًا!؟

ـ هذه الـ «أيضًا» أعرفها ولا أعرفها.. إسمع، هناك نقر على الباب، وأنا في هذا الوضع، تصرّف، أرجوك.

مدّ يده إليها، ساعدها على الجلوس في سريرها، فتح الباب، تناول صينيّة عليها زجاجة شمبانيا، قدحان، وصحن من المقبّلات، وبعد أن أغلق الباب سألت غيداء:

ـ ما هذا؟ وليمة؟

ـ ولِمَ لا؟ علينا، نحن، أن نحتفل باجتياز المطبّ البحريّ، وبقدرتك على مقاومة دوار البحر! هيّا! تعالي أو أحملك ثانية، كما تقضي الأصول!

قالت ضاحكة:

ـ أصول البحر!؟

ـ أصول إعادة الشيء إلى موضعه، وفق اللائحة البحريّة!

ـ واللاّئحة البريّة!

ـ والجوِّيَّة أيضًا!

مدّت غيداء يدها تسوّي تنّورتها تحت الغطاء وقالت:

ـ من يصاحب بحّارًا يجب أن يكون بحّارًا، وأن ينظر في عيني ملك البحر بغير خوف!

قال بدر:

ـ ملك البحر الذي تعنينه لا يخيف!

قفزت غيداء من السرير وقالت:

ـ أنا لا أعني أحدًا! لكنّك، ولا أدري السبب، مخيف بما فيه الكفاية.. ماذا فعلت بالتحّ؟

ـ أدّبت به أولاد العاهرة كلّهم!

ـ أنت مجنون، وهذا ما تفتخر به، إلاَّ أنّ الافتخار لا يعفي من العقوبة، ماذا لو ألقيت التحّ في البحر فعلاً؟

ـ أكون قد أعدته إلى حضن أمّه، وهذا من أصول البحر أيضًا!

ـ ورشقك وجه غابور بالويسكي؟

ـ من أصول البحر أيضًا وأيضًا!

ـ وحملي إلى السرير؟

ـ لا! هذا من المودّة.

ـ أنت لا تودّ أحدًا، واسمح لي على هذه الغلظة غير المتوقّعة من امرأة.

ـ لا تستسمحيني على صراحتك.. أنت، يا عزيزتي، على حقّ، أنّني لا أمنح ودّي إلاَّ لنفسي، وفي حالات نادرة!

ـ هل هذا لأنّك تريد أن تنتقم من ظلم الحياة الذي حدّثتني

عنه؟

تفرّس بدر بها مليًّا وهي تمشّط شعرها، فكّر للحظة وقال:

ـ الحياة هي الكون، وظلم الكون لا يزيله فرد، ولا يثأر منه للمظلومين فرد أيضًا.. لقد قرأتِ، كما قرأتُ، دون كيشوت، وحربه ضدّ طواحين الهواء، كانت هذه طريقة في محاربة الظلم، فكّر فيها سرفنتس وهو في السجن، وقد فكّرت مثله وأنا في السجن، إلاّ أنّ محاربة طواحين الهواء، على رمزيّتها الجميلة والرائعة، لم تعد مجدية الآن، وكلّ من يحاول تقليدها سيفشل، عدا عن أنّ التقليد نفسه غير لائق، لأنّه محاكاة ممجوجة. هناك سرفنتس واحد، لزمن واحد، وقد تغيّر الزمن الآن، وأصبحت للكفاح، في سبيل العدالة الاجتماعيّة، تقاليد مستخلصة من بيادر التجارب والخبرات، خلال كلّ هذه الأعوام الرهيبة التي مرّت على البشريّة، ومرّت بها البشريّة..

هتفت غيداء:

ـ كم أنت واضح يا بدر!

قال بدر:

ـ الوضوح يكون مع النضوج، لا قبله ولا بعده.. فمع كلّ معاناة تكون فكرة، إلاّ أنّ الفكرة تلد فكرة، وكلّ فكرة جديدة تتطلّب نضوجًا جديدًا، والنضوج الجديد يعطي وضوحًا جديدًا، وهكذا.. لا تنسي أنّني درستُ الأدب العربيّ، ومارسته تدريسًا ونضالاً، ولو لفترة قصيرة، وإذا كنت لا أستطيع، بمفردي، أن أزيل ظلم الحياة، فإنّني أستطيع، بمفردي، ألاّ أصالح الحياة، ولا أخافها، وهذا

ما أفعله.. كفى فلسفة بائخة يا غيداء، تعالي نحتفل بشيء أهمّ: تعارفنا، لقائنا، مودّة أحدنا للآخر، وصدّقيني أنّ شرْب الشمبانيا، برغائها الزبديّ، أفضل ألف مرّة من الكلام على الزبد، وهو جفاء كما تعلمين.. أم أنّك مصرّة على أنّني لا أودّ أحدًا سوى نفسي؟ لا تكوني، يا غيداء، شاطرة بأكثر ممّا يجب، الشطارة، أحيانًا، تجلب المتاعب، ونحن بغنى عنها، خلال وجودي معك على الأقلّ.

ـ قارح!

قال بدر مرحًا:

ـ نعم! هذه هي الكلمة، هذا هو الاعتراف بأنّني قبطان، شكرًا..

أضاف:

ـ سأخضّ هذه الشمبانيا المبرّدة، كي تفرقع بقوّة عندما تدفع سدادتها إلى أعلى، اِجلسي أنت، وهيّئي القدحين فقط.. واحد.. اثنان.. ثلاثة!

طارت الفلّينة في فضاء القمرة، بفرقعةِ لعبةٍ ناريَّة، وفار السائل الماسيّ منسفحًا على الأرض، وعلى الطاولة، وثياب غيداء، وبدر يقهقه، كأنّما استعاد رومانسيّة الشباب، وبعد أن سكب الشمبانيا في القدحين، رفع أحدهما قائلاً:

ـ نخب هذا اليوم الجميل، الهارب من الماضي!

رفعت غيداء قدحها وقالت:

ـ نخب الماضي والحاضر، خاصّة الحاضر، الذي صنع لي

بهجة ما توقّعتها أبدًا.. يا لك من طفل!
قال بدر بعد أن شرب على رنين الكأسين:
ـ البهجة في داخلنا دائمًا، لكنّنا لا نعرف كيف نستخرجها، وكيف نستمتع بها أحيانًا!
ـ يكفي أنّنا نستمتع بها الآن.. اِجلس ولا تقل أيّ شيء.. دعني أتملّى وجودنا معًا!
ـ بعد ربع قرن أو أكثر من المعرفة الصامتة.. ومن النظر إليك من بعيد!؟
ـ هذا أفضل، بمعنى ما، لأنّه أتاح لنا لذّة هذا الاكتشاف، الذي تعتّق كالخمرة..
شربت غيداء جرعة أخرى وقالت، مضيفة بتألّق جمالها، جمالاً آخر على الجوّ:
ـ ماذا يقول العنقود للدالية؟
ـ وماذا تقول الشفة للقلب؟
ـ وبماذا يفكّر غابور الآن؟
ـ وبأيّ ريشة ترسم السيّدة توليب؟
وضعت كأسها على الطاولة الصغيرة وقالت:
ـ ما شأننا وهذه السيّدة يا بدر؟ أم أنّك تتعمّد الإساءة إلى شعوري، بتذكيري أنّني، في هذه اللّحظة، مثلها تمامًا، أبكي بين يديك؟
ردّ بدرِ بجدِّيَّة:
ـ أعرف، يا غيداء، أنّك لا تبكين بين يديّ، أو بين يدي أيّ سلطان في هذا الوجود، ما قصدته هو التالي: الريشة التي

ترسم بالدمع، غير الريشة التي ترسم بالصباغ، ومنظر الغروب الذي تعمل عليه السيّدة توليب، سيكون أروع الآن، وفي وسعها، من بين دموعها، أن تضع اللّمسة الأخيرة على لوحتها.

ـ هل لهذا أبكيتها؟

ـ وهل ترينني ساديًّا؟

ـ ليس الرّجل الساديّ وحده من يجعل المرأة تبكي!

ـ وليس الرجل غير الساديّ من يتقبّل الإهانة ويبلعها! قلتُ لك إنّكَ لا تبكين، وعليّ أن أقول لك إنّني، أنا أيضًا، لا أبكي، لانتفاء رغبة العدوان على الغير لديّ.. إنّ من يلهث وراء المرأة هو غيري، ومن يركع أمامها متذلّلاً هو غيري، ومن يسيء إليها هو غيري أيضًا.. ذكرتِ، أنت، غابور، فذكرت، أنا، السيّدة توليب، وبعفويّة خالصة! آمل أن يكون الإشكال قد حُلّ، بعد هذا الإيضاح الذي لا ضرورة له، والذي أجد نفسي غير مجبر عليه، لولا معزّتك عندي.. لنشرب إذن كأصدقاء، وبالمرح الذي كنّا عليه نفسه.

ـ كأصدقاء فقط!؟

ـ حتّى الآن نعم!

ـ هكذا بحسم؟

ـ الحسم يمليه الوضع الذي نحن عليه.

ـ هذا كلّ ما لديك؟

ـ وفوقه المعزّة، كانت على مدى ربع قرن، وهي الآن كائنة، رغم اتّهامي بأنّني لا أودّ سوى نفسي!

ـ وكذلك السيّدة توليب!
ـ بلى! السيّدة توليب أيضًا.
ـ وأنا!؟
ـ صديقة!
ـ لماذا تصرّ على عدم ترفيعي؟
ـ من قال هذا!؟ إنّك، منذ هذه اللّحظة، برتبة أدميرال، تأمرين فأطيع، بصفتي قبطانًا لديك.
ـ ساخر!
ـ وماذا أيضًا؟
ـ ماجن!
ـ وأيضًا؟
ـ غضوب!
ـ وبعد؟
ـ أنت رهيب بأكثر ممّا تصوّرت!
ـ هذا صحيح يا سيّدي الأدميرال!
قالت غيداء:
ـ الأدميرال يأمر قبطانه العزيز أن يشرب نخبه.
هتف بدر:
ـ نخب واحد فقط؟
ـ هذا يكفي لهذه اللّحظة، مع ابتسامة تزيل هذه التكشيرة من على وجهك!
ـ قارحة!
ـ واحدة بواحدة!
ـ أنثى خطيرة!

ـ بالتدريج.. «الديبونة» أوّلاً! هذا ما تعلّمته منك، ثمّ الويسكي، وبعدها، كخاتمة، الشمبانيا، هذا ما يسمّونه الشرب على الطريقة الفرنسيّة.. هل أضايقك إذا خلعت هذا الشال؟

ـ أبدًا! كوني أنت، وعلى الطريقة الفرنسيّة المفضّلة لديك.. وبالتدريج، على الطريقة نفسها!

ـ وأنت!؟ أيّ طريقة تفضّل؟

قال ضاحكًا:

ـ طريقة آبائي وأجدادي!

ـ وإذا كنت أجهلها؟

ـ أبعث إليك بجدّي، كي يعرّفك بها.

ـ وإذا كان الجَدّ مثل الحفيد؟

ـ تخسرين ليلة من العمر!

ـ والذنب على من في هذه الخسارة؟

ـ على الآنسة لويزا!

ـ تعاقبني كما عاقبتها؟

تناول جرعة من كأسه، فعلت غيداء مثله، ناولها قطعة من اللّحم البارد بالشوكة، وفي فمها مباشرة، دون ممانعة منها. أطرق، خيّم صمت، نظرت إليه، لم يطرف أمام نظرتها. لم تشكره على لطفه، لم يقل لها «تفضّلي!» وهو يقدّم لها كأسها. «إنّها مجرّبة!» «وإنّه مجرّب!» وعندما سألته:

ـ لماذا أنت صامت؟

أجابها:

ـ كي أفسح لك مجال الكلام.
ـ وإذا لم يكن لديّ ما أقوله؟
ـ يتحدّث كلّ منّا مع كأسه!
ـ وماذا قال لك كأسك؟
ـ قال لي: «إِسألها إلى أين تريد أن تصل!»
أجابت ضاحكة وبعفويّة:
ـ إلى الخطّ الأحمر!
ـ وأين يقع الخطّ الأحمر هذا؟
ـ بين النظرة والأخرى من عينينا!
ـ وأين موقع الكأس من هذا الخطّ؟
ـ على الحدّ تمامًا، ثمّ لا تجاوز!
قال ضاحكًا:
ـ هذا إذا ما كانت هناك رغبة في التجاوز، بالنّسبة لي على الأقلّ.
أضاف:
ـ أدعك الآن لتستريحي.. أنت، كما يبدو، تعبة!
ـ مغالط!
ـ وماذا أيضًا؟
ـ مماحك!
ـ في أيّ شيء؟
ـ في قول الكلمة الأولى، الكلمة التي تقضي اللّياقة أن يقولها الرّجل للمرأة، لا العكس!
وقف بدر وقال:

ـ إذن أنا لست برجل!

انتصبت غيداء واقفة وهي تفتح ذراعيها:

ـ بل أنت هو الرّجل، أنت حبيبي الذي ضنّ عليّ بهذه الكلمة حتّى قلتها أنا! ماذا تريد أكثر؟

قال بدر وهو يدعها تحتويه:

ـ لا شيء يا غيداء، هذا كرم منك.. كرم لا أعرف كيف أقابله، وكيف أكافئُك عليه.

ـ بأن تقبّلني، تقبّلني بطريقة القبطان، وقوّته، وعنفوانه، وكلّ جنونه أيضًا.

أخذها بدر بين ذراعيه. التهبت شفاه أربع. طقطقت عظام الظهر، التمعت العيون، التقى الحوضان في التحام كامل، استعلنت النزوة، شهقت، صرخت، انفرج الفم عن قواطع حادّة، رهيفة، يتشهّى عن الناب منها لهب شاحب، يتلظّى، لا ماء يرويه أو يطفئه، وبحركة من يدها خلعت عن كتفيها، وعنقها، وصدرها، بلوزة قطنيّة بيضاء، رمت بها على المقعد، وعندئذ رأى بدر، لأوّل مرّة. مفاتن جسد أبيض، بضّ، جميل، مثل الوجه، والساقين، واليدين، والأصابع التي اشتعلت على رؤوسها وقدة من جحيم شبقٍ، ليس بالمحروم، وليس بالشَّبع، إنّما نَهمٌ إلى ضجعة موت، فيه رعشة لذّة مسعورة، تشدّ بجسد الآخر، وبأقوى ما يمكن، إلى هاوية الغيبوبة، فالفناء، عبر الامتزاج الكامل!

وفي قلب هذه المحرقة الجسديّة، النازفة نارًا، قالت غيداء:

ـ خذني إلى السرير، إلى السرير وبسرعة، أنا لك يا بدر، يا

حبيبي!

عندئذ، وفجأة، جاءت ردّة فعل مباغتة، منتقمة، باردة كدم الأفعى، قام بها بدر، مقصيًا جسد غيداء عنه وهو يقول:

ـ كفى! ثلاثون عامًا تقريبًا، وأنا أنتظر هذه الكلمة: «أنا لَكَ!» لأنّني، خلال كلّ هذه الأعوام، ودون أن أقترب منك، أنت المطوّقة دائمًا بالمعجبين، كنت، في ذاتي، أردّد عبارة واحدة: «هذه المرأة ستكون لي!» وها أنت لي أخيرًا، وهذا ما راهنت عليه، وإنّي لسعيد جدًّا، في لحظة كسب الرهان هذه، وممتنّ جدًّا لأنّك أدركت ألاّ مناص، فاستسلمت دون مزيد من مكابرة!

أشعلت غيداء سيكارة ويداها ترتجفان، وقفت قبالة بدر تمامًا، غرزت نظراتها المسنونة في السواد من عينيه، وقالت:

ـ إذن كنت تراهن، طوال هذه المدّة، على عبارة تافهة، تقولها أيّ امرأة لأيّ رجل؟

قال بدر هادئًا، جادًّا، والسيكارة في يده:

ـ كنت أراهن على شيء ثمين وليس بتافه، وكيلا أطيل، أقول لك بصدق: «كنت أراهن على ثقتي بنفسي!»

ـ وأنت، الآن، منتش لأنّ هذه الثقة قد تحقّقت!؟

ـ تمامًا كما تقولين!

ـ نذل!

أفرغ كأسه دفعة واحدة في حلقه وقال:

ـ نعم! نذل! كنت، في رهاني، نذلاً يا غيداء، لكنّها كانت تجربة مفيدة، لي ولك على السواء.

صاحت غيداء:

ـ مفيدة لكَ وحدك، وبشكل خالٍ من الشرف.

قال بدر:

ـ تجربة الوثوق بالثقة، تساوي ما تحمّلت من ألم لأجلها.. لكنّ ثقتي ليست أيّ ثقة، إنّها ثقة في الممكن من الأمور، مع العمل والمثابرة، وهذا امتحان صعب، لكنّ النجاح فيه ليس بالمستحيل، أليست هذه مقولة تصلح أن تكون نظريّة متكاملة، في كفاحنا مع الحياة ومع الظلم من حولنا، إذا ما عزلنا هذه النظريّة عن الأنانيّة المتبدّية فيها؟ وإذا ما حوّلناها من الخاصّ إلى العامّ؟ تعلّمي، يا غيداء، الثقة بالنفس، والوثوق بتحقّق هذه الثقة في إطار الممكن، وهذا هو المفيد لكلينا، في مواجهة الحياة الصعبة التي نحياها، وفي مواجهة «هذه المهزلة ونذالة هذه الأيّام» كما يقول ناظم حكمت.. أعترف. هناك نذالة، في موقفي الراهن منك، المحصور بحدود الثقة الضيّقة، التي فهمتِها على نحو صحيح، وتألّمتِ منها على نحو شريف، لكنّ القصّة لم تنته، فإذا أعطيتني الفرصة لأشرح نفسي، أكون شاكرًا، شاكرًا لا مبرّرًا لفعلة لا تبرّر!! اِهدئي، اِبقي كما أنت، اِجلسي أو قفي، اِشربي أو ارشقيني بما تبقّى في كأسك، كلّ هذا ردّ فعل سليم، على ردّ فعل غير سليم، قمت به أنا، في لحظة نشوة كانت تغمرنا فأفسدتها برعونة!

نبرت غيداء:

ـ ووقاحة!

ـ صحيح!

ـ لا تكرّر هذه الكلمة على مسمعي! إنّها إحدى ألاعيبك القذرة!

ـ تمامًا!

ـ وبعد هذه الـ «تمامًا»!؟

ـ بعدها إنّني فكّرت طيلة هذه الرّحلة، وبشكل صادق مع النفس، في هذا الرّهان الغريب الذي كابدت من أجله مكابدة شديدة، فوجدت أنّ رهاني سخيف، وندمت عليه ندمًا مسرفًا، لكنّني تابعته لأجل الجانب المفيد فيه، جانب الوثوق بالثقة، إذا ما كانت الثقة لغاية مفيدة، هي تدريب النفس على الصبر. . وقد صبرت، وكلّ من يريد النجاح، لا بدّ له من هذا الصبر، مع العمل والدأب، وهنا تقع المنفعة المشتركة التي أشرت إليها! فكّري بما أقول، تذكّريه، اِصبري للشدّة، ثقي بالانتصار عليها، واعملي بدأب النملة. .

قالت غيداء وهي واقفة، متصالبة الذراعين:

ـ انتهت المحاضرة!؟

ردّ بدر بهدوء:

ـ انتهت، لكنّنا، حتّى الآن، تكلّمنا على جانب واحد، هو الثقة بالنفس للانتصار في أيّ مواجهة، أمّا الجانب الآخر، جانب حبّ هذا الذي نثق فيه، فإنّه بقي في الظلّ، وأريد أن أؤكّده الآن، وبعبارة موجزة، وسؤال واحد: هل كانت ثقتي في نفسي تتحقّق لو لم تكن مبنيّة على الحبّ؟ في الجواب أقول: كلاّ! لو لم يكن هناك حبّ، ورهان على

هذا الحبّ، فإنّ ثقتي ما كانت لتتحقّق، فإذا تحقّقت الآن، فإنّ تحقّقها هو إثبات على أنّ حبّي هو الذي انتصر، حبّي لك، طول هذه السنوات، بنهاراتها واللّيالي.. إنّني أحبّك يا غيداء، وأعتذر عن ردّ فعلي، فقد كان عفويًّا، وكان صادقًا، وكذلك مفيدًا، بالنّسبة لي على الأقلّ، ولك أن تقبلي، أو ترفضي، هذا الحبّ، فهذا لا يغيّر من موقفي مقدار شعرة.. أحبّك! هذه هي الكلمة، ولم أتزوّج لأجلك، وهذه هي الحقيقة، لكنّنا، وقد تصارحنا، فإنّني أطلبك للزواج، وسننزل في مرسيليا، ومن هناك نأخذ الطائرة، لنتزوّج في لبنان، فإذا كنت موافقة، فإنّني أشرب كأس زواجنا وسعادتنا المقبلين.. تعالي!

وجاءت! وفي مرسيليا أخذا الطائرة إلى بيروت!

«انتهت»

دمشق ٩/ ١٢/ ١٩٩٥

عنوان المؤلف:
دمشق ـ سورية ص.ب. ٣٠٣٩٣ هاتف ٥١١٥٣٢٢

DAMASCUS - SYRIA, P.O.BOX 30393, TL: 5115322.

مؤلّفات حنّا مينة

المصابيح الزرق
الشراع والعاصفة
الثلج يأتي من النافذة
الشمس في يوم غائم
الياطر
بقايا صور
المستنقع
القطاف
الأبنوسة البيضاء
المرصد
حكاية بحّار
الدقل
المرفأ البعيد
الربيع والخريف
مأساة ديمتريو
حمامة زرقاء في السحب
نهاية رجل شجاع
الولاعة
فوق الجبل وتحت الثلج
الرّحيل عند الغروب
النجوم تحاكم القمر
القمر في المحاق
المرأة ذات الثوب الأسود
حدث في بيتاخو
عروس الموجة السوداء
المغامرة الأخيرة
الرجل الذي يكره نفسه
الفم الكرزي
حارة الشحادين
صراع امرأتين
ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
ناظم حكمت ثائرًا
هواجس في التجربة الروائية
كيف حملتُ القلم؟
البحر والسفينة... وهي!
حين مات النهد
شرف قاطع طريق
الذئب الأسود
الأرقش والغجريّة
النار بين أصابع امرأة
عاهرة ونصف مجنون

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت
تصميم الغلاف ريم الجندي